رواية

١٩٣٥



باسم عادل

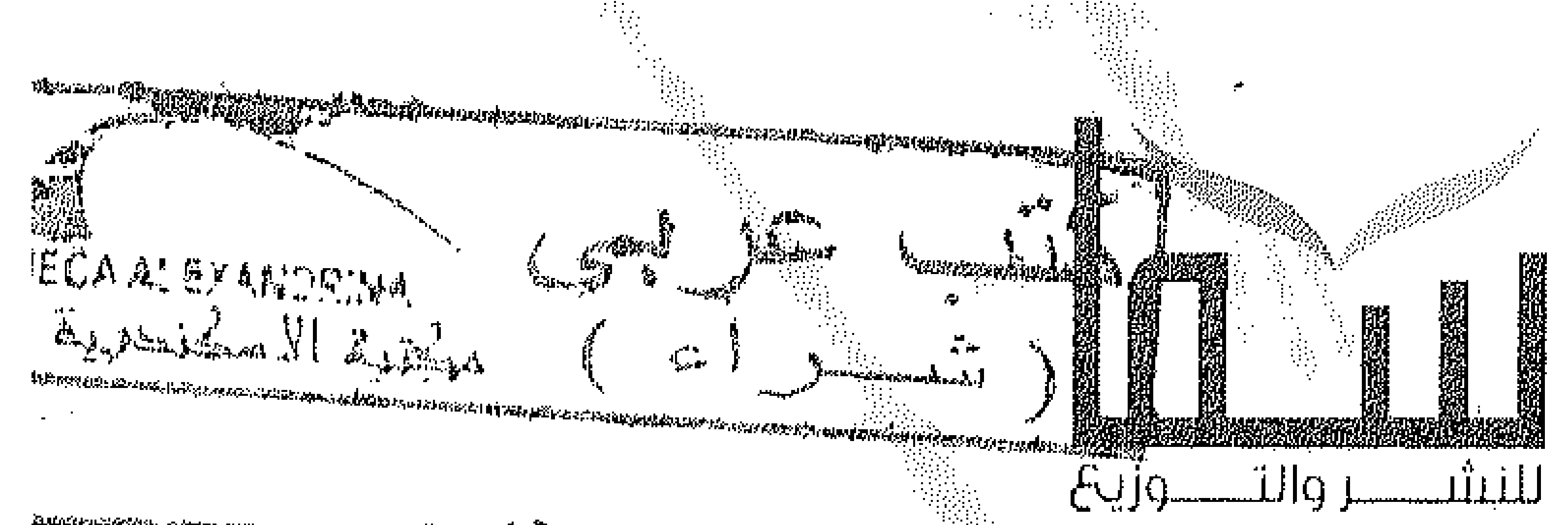
سما للنشر والتوزيع

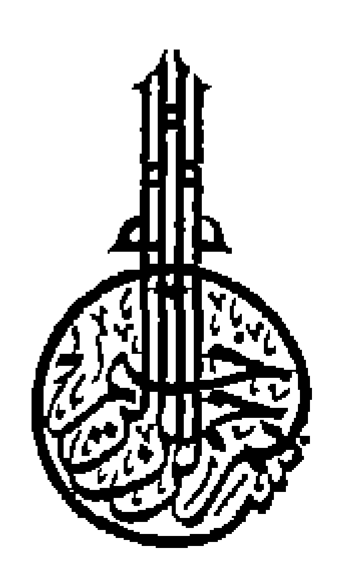
المجموعة الدولية للنشر والتوزيع

١٩٣٥

«روايـــة»

باسم عادل





العنـــوان: ١٩٣٥ «روايــة»

المــؤلــف: باســم عــادل

إشراف عـام: نجــلاء قاســم





25 امتداد ولي العهد حدائق القبة
تليفون: 24517300 - 01271919100
emil: samanasher@yahoo.com

التوزيع
المجموعة الدولية
للنشـر والتـوزيـع

80 ش طومان باي - الزيتون - القاهرة
تليفون: 24518068 - 01099998240
emil: aldawleah_group1@yahoo.com

تصميم الغلاف: إيمان صلاح

إخراج داخلي: معتز حسنين

الترقيـم الـدولـي: 978-977-6451-59-9
رقـــم الإيـــداع: 2014 / 3104
الطبعــة الأولــى: ينايــر 2014


١٩٣٥
«روايــة»

إهـــداء

إلى شعب مصر... أقبـــاط ومسـلـميـن...

غـدًا سـيكتـب التـاريـخ فصـول ثـورتكـم الجـديـدة!!

باســم عــادل

(١)

كانت شمس الصيف تعلن عن أفولها في عام ١٩٣٥ حين وصل يخت صاحب السمو الملكي الأمير يوسف كمال إلى الشواطئ المصرية قادمًا من أوروبا بعد رحلة طويلة اعتاد القيام بها كل عام، وقد أنهاها بجولة أمام شواطئ فلسطين ولبنان، بصحبة زوجته الأميرة كريمة، وصاحبة السمو الملكي الأميرة شويكار الزوجة الأولى للملك أحمد فؤاد، ووالدة صاحبة السمو الأميرة فوقية. وقتها شعر الأمير برغبة جارفة في أن يتوجه إلى قصره بنجع حمادي، فأمر سائقه على الفور بأن يُصوب وجهته ناحية الصعيد.

وكان الأمير قد أقام قصره في الناحية الغربية من نجع حمادي على أربعة أفدنة يملكها، وأحاط القصر بسور من الطوب الآجر من جهات ثلاث، بينما يطل القصر من الجهة الرابعة وهي الشرقية على نهر النيل مباشرة. والقصر يتكون من طابقين وله ملاحق أو قصور صغيرة من دور واحد أو دورين، وجميعها من طرز معمارية إسلامية وأوروبية فريدة، ومنها قصر الحرملك، وهو مخصص لإقامة والدة الأمير وبعض الأميرات، ويضم مجموعة من الغرف



ومطبخًا وحمامًا ودورًا مسحورًا وبدرومًا وسطحًا، وأهم ما في القصر هذا الأسانسير الخشبي الذي أحضره الأمير خصيصًا لوالدته التي كانت مريضة بوهن القلب.

وهناك أيضًا قصر السلاملك، وبه ثلاث قاعات للاجتماعات وواجهة خارجية.. ويغلب عليه الأساليب الفنية الخاصة بالعصرين المملوكي والعثماني. وفي كل قصر من هذه القصور الصغيرة أقيمت قاعة للطعام ومطبخ مربع الشكل، وفي حديقة القصر، جنوب السلاملك، أقيمت فسقية مرصَّعة بالأحجار والرخام الملون بألوان زرقاء وبرتقالية، ذات مسقط مربع من الخارج يتوسطها حوض مثمن، بالإضافة إلى سبيل رخامي يشرب منه الآدميون، وبيت خاص بالخدم، وإسطبل للخيل، وتطل تلك الوحدات المعمارية على حديقة القصر في مساحة أربعة عشر فدانًا وقد اتسقت على أحدث نظم تخطيط الحدائق المتخمة بأجمل أشجار الزينة والزهور التي يندر أن توجد بمكان آخر.

وعلى الضلع الجنوبي لأسوار القصر، تتصدر أحد هذه المبانى يافطة كبيرة كتب عليها (الدائرة اليوسفية). وكان الأمير يدير أطيانه في مديرية قنا وأجوارها في صعيد مصر من هذه الدائرة، ولذلك أقام قصره المنيف الذي اعتاد أن يقضي فيه شهور الشتاء، محتميًا من صقيعه وقرصة برودته بلفحة شمس الجنوب حين تلقي بأشعتها الحمراء الدافئة على صفحة النهر في أجمل إطلالة على

التاريخ، الذي لم يتنازل عن صفوف المقدمة في سجل البشرية رغم مرور سبعة آلاف عام من عمر الحضارة على شاطئيه .

وبمجرد أن تدلف سيارة الأمير نحو مدخل النجع، يلتف حولها الأهالي من المسلمين والأقباط من أبناء البلدة، مهللين ومرحبين، ورافعين أكف الدعاء نحو السماء وكل منهم يتضرع في دُعائه للأمير بعقيدته، وقد جعلوا سيارة الأمير في مركز دائرتهم يدورون حولها، كالفراش حين يطوف حول الأضواء، فما يلبث الأمير المتواضع إلا أن يترك سيارته، لينزل بين الناس، يصافحهم ويقبلهم، ويستقبل بأحضانه المشتاقة لدفئ اللمة.. صغارهم، وهو يداعبهم ويوزع عليهم الحلوى والشيكولاتة.

والأمير يوسف كمال.. شخص فريد.. ومحير للعقول التائهة في آتون ظلام الليل البهيم، حين تصر أن تفقد بشريتها وبينهم بشر بعذوبة الملائكة، فقد كان تعريف الإنسانية يتوقف كثيرًا على عتبات هذا الأمير ليجتر منه أرفع الصفات ومكارم الأخلاق. وبعد أن أوصى السلطان حسين كامل قبل وفاته أن يكون خليفته في وراثة العرش ابنه الأمير كمال الدين حسين، أو أخوه الأمير أحمد فؤاد أو ابن عمه الأمير يوسف كمال، نصب الإنجليز البرنس أحمد فؤاد على عرش السلطنة المصرية، ضاربين بعرض الحائط وجود الأمير يوسف كمال لمواقفه الوطنية الثابتة، وبساطته التي كانت لا ترضي أصحاب السلطان، بعدما تنازل الأمير كمال الدين حسين عن ولاية العهد ورفض وراثة العرش.

وأصلًا كان الأمير عازفًا عن أهواء الدنيا رغم ثرائه المذهل وكونه أغنى أغنياء مصر، وفي ذلك الوقت قدرت ثروته بحوالي عشرة ملايين جنيه، وكان في هذا العام أغنى شخصية في مصر، يمتلك أكثر من عشرين ألف فدان من أجود وأخصب الأراضي الزراعية في الصعيد، والتي تُدر عليه دخلًا يقدر بنصف مليون جنيه في العام.. بخلاف عدة قصور عظيمة المعمار في المطرية والإسكندرية والصعيد، ومع ذلك فقد كان ينفق من ثروته طوعًا وتطوعًا على العمل العام، جاعلًا في هذا المال فرصة للفقراء والمعدمين والمطحونين، كفرصة صاحب المال الأصلي.

وأنفق الأمير من حر ماله في تنمية عدد كبير من قرى الصعيد، وأدخل العديد من التقنيات الزراعية الحديثة في نجع حمادي، وأمد الفلاحين بالمعدات المتطورة، واشتهر بحبه للفنون الجميلة وشغفه بشراء اللوحات الفنية، وكان يجوب العالم من أجل شراء القطع الفنية النادرة ليهديها للمتاحف المصرية.

ولما طرح النحات الفرنسي جيوم لابلان فكرة إنشاء مدرسة الفنون الجميلة العليا في مصر، تحمس لها الأمير يوسف كمال وأبدى دهشته لرفض المسئولين في مصر فكرة إحياء الفن المصري، فعزم على تنفيذ الفكرة بنفسه وظل هو ولابلان يخططان لإنجاز المشروع، ودام التشاور والدراسة لستة أشهر، حتى فتحت مدرسة الفنون الجميلة أبوابها لأصحاب المواهب ولم تشترط تقديم مصروفات، فقد كان الالتحاق بها مجانًا دون تقيد بسن، بل

كان الأمير يتولى توفير أدوات الرسم بلا مقابل، ولم يكن القبول بها يحتاج سوى الخضوع لاختبار بسيط .

وقد تجلى حب الأمير للفنون في إنشاء المدرسة، على نسق معاهد الفن في أوروبا. وأنفق عليها من ماله ما يؤهلها للقيام بدورها على أكمل وجه، ورصد لها من أطيانه ما يُمكنها من النهوض بمهمتها. وهذه المدرسة أخرجت محمود مختار المثَّال المشهور، وأحمد صبري ومحمود فوزي وناجي وغيرهم من كبار الرسامين والمصورين الذين أرسلهم على نفقته إلى أوروبا. وقد خصص الرواتب لأساتذتها واقتنى ما يلزمها من أدوات وكتب لطلابها، وأوفد من خريجيها البعوث إلى أوروبا طلبًا للمزيد من تلك الثقافة الضرورية لنهضة الشعب. مما قدر لخريجي مدرسة الفنون أن يحملوا لواء الفن المصري الحديث في مصر بعد أن ظل معقودًا للأجانب زمنًا طويلًا.

وتجلى حب الأمير يوسف كمال للفنون الجميلة في رعايته لجمعية محبي الفنون الجميلة المصرية، وكانت تقيم المعارض السنوية في القاهرة، وكذلك في هداياه وعطاياه المتوالية إلى دار الآثار المصرية، وتتمثل هذه الهدايا الأثرية في السجاد والتحف النفيسة، حيث كان للأمير رجال في جميع أنحاء العالم يطلعونه على الآثار الشرقية النفيسة التي تُعرض للبيع، إما علنًا أو بصفة خاصة لحاجة أصحابها للمال.



وكعـادة الأميـر العازف عن الأضواء، فقد عُرضت عليه رئاسـة الجامعة المصرية، لكنه اعتذر واكتفى بأن يكون عضوًا في مجلس إدارتهـا، وحينما اضطر حسـين رشـدي باشـا للتخلي عن رئاسـة الجامعة، اختير هو رئيسًـا لها، وفي فترة رئاسـته كان يرسل النوابغ مـن طلابهـا للدراسـة في الخـارج على نفقتـه الخاصة كمـا، أنفق على الجامعة من ماله، حين تعرضت لضائقة مالية بسـبب الحرب العالمية الأولى.

لكن الأعجب هو ذلك القرار الذي اتخذه الأمير يوسـف كمال بالتخلـي عـن لقبـه، فقد أحدث هـذا القـرار دويًّا هائلًا فـي ديوان الملـك، وتناولته الصحف بشـيء من الدهشـة على مدى أسـابيع طويلـة، فقـد تنازل سـمو الأمير عن لقـب الإمارة، وفعلًا اسـتبدل اليافطة المعلقة على دائرته والمكتوب عليها (دائرة الأمير يوسـف كمال) بيافطة أخرى باسـم (الدائرة اليوسـفية)، وأمر بإجراء نفس التغييـر علـى كافة مكاتباتـه ومطبوعـات دائرته، وكانـت تعليماته الصارمة بأن يُستبدل لقب الأمير في أي كتاب يوجه إليه، بعبارة.. حضرة يوسف كمال، حتى إنه كتب اسمه في كل الفنادق التي نزل فيها أثناء رحلته الأخيرة (يوسـف كمال) وأمام خانة الصناعة كتب الوظيفة (مزارع مصري)!.

وكان حـب الناس للأمير جارفًا، إلى الحد الذي طغت شـعبيته على شهرة الملك ذاته، فلا يشعر الجالس معه بأنه يجلس في حضرة أحد أبناء الأسـرة المالكة في مصر، ومن كان قاب قوسين أو أدنى

مـن تولي عرش البلاد، بل ظل الفقراء مـن فلاحي النجع يرون أنه واحدًا منهم، وأنهم منه.. يسـرف الجهد والمشـقة كي يختصر بينه وبين الناس تلك المسافة التي اعتادوا عليها بين الأمراء والرعية.

وكعادتـه بمجـرد أن ينـزل بقدميه فـي حدود نجـع حمادي كل شـتاء، أن يأمـر سـكرتيره الخـاص بدعـوة الأهالي لاحتفـال كبير يقيمه في قصره المتاخم لشاطئ النيل، فقد اشتاق إلى هؤلاء الذين اعتبرهـم الأميـر أصدق خلق اللـه، ومع فقرهم.. فقـد لمس فيهم عزة النفس، ورغم مشـقتهم الراسـخة في تاريخ وجودهم بالدنيا، فقـد كانـت ابتسـامتهم الصافية أعظم كنـز يمتلكونه.. وبسـاطتهم المعهـودة تفتـح الأبـواب المغلقـة. لقد أصـر الأميـر أن يجمعهم ليستشعر حقًّا عودته إلى وطنه بعد رحلته الطويلة في أوروبا، وكان لا ينتابه هذا الشعور إلا في قلب دائرته بنجع حمادي، بين الأهالي الذين كانوا يبادلونه نفس الإحساس.

وبينمـا الأميـر مترجلًا في حديقـة قصره.. توقـف قليلًا وأمعن البصـر رويـدًا.. رويدًا في اتجاه صفحة النيـل العظيم، وهو يلتفت لسـكرتيره الخـاص متحدثـًا في نشـوة مـا بعدها نشـوة بينما تأخذ الشمس طريقها نحو الغروب:

- تعـرف يا طوسـون.. مصـر أم الدنيا.. أنا سـافرت ولفِّيت العالـم كله.. عمـر عيني مـا وقعت على منظـر أجمل من منظر النيل ساعة الغروب.



- يا جناب البرنس كلنا عارفين حبك وعشقك لمصر ..

يجيب بنبرة المتأمل العاشق:

- وده أجمل عشق في حياتي!.

كان الأمير قد بلغ منتصف عقده الخامس بالتمام، وقد منحته الحياة كل شيء، نعم.. كل شيء، منحته السمو الملكي الذي تنازل عنه بإرادته.. والثروة التي تكفي لحاجة قُطر بأكمله، والجاه الذي لا يذوب.. والأهم من ذلك حب الناس الذي لا تغيب عنه الشمس، لكن القدر لم يمهله الفرصة ليصبح أبًا.. يرى ذريته.. ويفرح بها ويُهيئها لترث هذه الثروة الطائلة وتكمل رسالته من بعده، لذلك كان الأمير يهتم بالنشء غاية الاهتمام ويعشق الأطفال ويتقرب إليهم بالهدايا والحلوى، فأقام بالنجع من حُرِّ ماله مدرسة البرنس وكانت نموذجًا لما يجب أن تكون عليه المدارس، فقد ضمت حجرات دراسية واسعة وكبيرة، ومعامل للعلوم وقاعات للرسم والتدريبات الزراعية، وملاعب لكل أنواع الرياضات ومسرحًا وغرفة موسيقى، وجعل الالتحاق بها متاحًا لأبناء الفلاحين والفقراء.

وبينما يترجل الأمير في أقرب مكان إلى قلبه.. حدائق قصره المطلة على النيل، التفت فجأة وكأنه تذكر شيئًا ثمينًا.. محدثًا طوسون:

- عملت إيه في الحفلة يا طوسون.. كلمت عبد الوهاب؟

- (أجـاب بتـردد) يـا سـمو الأمير.. أنـا قلت سـموك ترتاح الليلة، رحلة السـفر كانت شاقة.. وسموك يا دوب واصل من ساعات.

بدت تقاسـيم الغضب الهادئ ترسم نفسها على ملامح الأمير، فلـم يُعتـاد منه أن يغضب بسـهولة، لكن اشـتياقه لاسـتقبال أهالي النجـع كان قـد وصل ذروته فـي قلبه، لذلك ترك بعضًـا من تذمره المهـذب يجـوب علـى صوتـه وملامحـه وهـو يـرد بعفويـة على طوسون رامقًا سكرتيره بنظرة عتاب:

- أنـا قلـت الـكلام ده.. أول مـا وصلـت نجـع حمـادي.. (مسـتطردًا بأدب الصفوة) الكلام اللـي أقوله يتنفذ قوام يا طوسون.

وطأطأ طوسون رأسه حرجًا من سيده، وهو يزيح زلته بعيدًا عن موضع الحديث الجاري بينهما، فيقول في تلعثم وارتباك:

- يا سـمو الأمير.. أنا باعتذر عن السـهو.. اعتبر محمد عبد الوهاب بشـحمه ولحمه وصل نجـع حمادي.. خلاص.. المهم جنابك تحدد الميعاد.

يتدبر البرنس يوسف كمال.. الأمر وهو ينظر بعيدًا متأملًا روعة المكان مـن حوله، بينما يعبث بوجنته بأنامل كفه الأيسـر، مراجعًا أنسب الأيام لإقامة الاحتفال:

- يوم الخميس كويس.. (ثم ملتفتًا بانتباه إلى طوسون) الخميس يا طوسون.. يعني بعد ثلاثة أيام.. الوقت مش كتير..
- تحت أمرك يا سمو الأمير ..
- (متذكرًا) ما تنساش كمان سامي الشوا.. عايزين نستمتع بعزفه على الكامنجة.

والأمير عاشقًا للطرب الأصيل بطبيعته، ومُتيمًا بالموسيقى وكثيرًا ما أقام الحفلات التي يحييها كبار الموسيقيين وأهل الطرب أمثال محمد عبد الوهاب وسامي الشوا، لكنه قرر هذه المرة أن يعقب الحفل مأدبة عشاء فاخرة.. وقتها نظر إليه طوسون متعجبًا.. وهو يردد.. الحضور هيكون بالمئات.. سموك.. والتكلفة هتكون عالية يا برنس!! فعاودت حالة الغضب الأولى كرتها مرة أخرى، وانتفض يوسف كمال قائلًا:

- وبعدين معاك يا طوسون.. وإنت بتدفع من جيبك.. (مستطردًا) مش خسارة في أهل النجع.. دول ناسي وأهلي ... (بجدية) شوف شغلك.. وبَطّل كلام كتير!!.

■ ■ ■

كان حال أهل النجع يدور على نحو من المحبة الراسخة بينهم، فقد أضاف وجود الأمير بينهم كثيرًا من راحة البال والأمان، فكانت نجع حمادي وأجوارها أشبه بسلطنة فريدة المقام، وكان البرنس يوسف واليًا شعبيًا عليها، أحاطه الناس بالحب، ونصبوه

كبيرًا لهم، وألقوا عليه أحمالهم وهمومهم، وما كان البرنس إلا بقدر مسئولية الحب الكبير الذي يحظى به، خاصة بعد أن تنازل عن لقبه منذ نحو عامين تقريبًا، ووقتها شعر الأهالي بالفعل وليس بالقول أن البرنس واحد منهم، من عجينتهم، وأنه عاشق للأرض والشمس وماء النهر، تمامًا كما ارتبطت حياتهم بهذا المثلث الذي كان يطلق عليه في ليالي السمر دائمًا.. مثلث الحياة في نجع حمادي.

ولأن الحياة في هذه البقعة من أرض مصر تحتاج الكثير من لوازمها، فلم يبخل البرنس يوسف على أبناء دائرته بتلبية احتياجات معيشتهم، فأقام المستشفى الكبير بنجع حمادي من ماله، وأمده بالأجهزة الحديثة، واختار له من الأطباء أكفأهم وأخيرهم خلقًا وعلمًا، غير أنه عَيَّن كثيرًا من أبناء النجع في دائرته وأغدق عليهم بالرواتب المجزية، وأعظم ما كان من الأمير أنه لم يفرق في عطائه بين الناس بسبب الدين أو العرق أو الانتماء، فقد استعان بكل الطوائف في إدارة أملاكه وفي النهوض بالبلدة، لذلك كان الأقباط يبادلونه نفس الحب والولاء.

وكان الأهالي في هذا الوقت يشتغلون في الزراعة والحصاد، وأغلبهم يعملون في تلك الأراضي الشاسعة بالدائرة اليوسفية، غير أن بعضهم إلتحق بمصنع السكر في نجع حمادي، فزراعات القصب في الدائرة أحد أهم المصادر التي كان يعتمد عليها المصنع في إنتاجه، بينما تميز الأقباط إلى جانب ذلك في الحرف



الفنيـة وأمور التجارة وخاصة تجـارة الذهب، وكان النجع والقرى المحيطة به يعج بحالة من النشـاط الصناعي والتجاري والزراعي، فيتلاحم الأهالي في منظومة بشـرية رائعة لم تتكرر كثيرًا في أنحاء القطر، بينما يقف الأمير موقف القائد الروحي لتلك المنظومة التي تكتب فصلًا جديدًا من فصول التاريخ الوطني.

ولـم تخـل البلدة من هـذا الصراع الدائـم بين قبيلة الهـوارة وقبيلة العـرب، وهمـا مـن القبائـل العربية التي نزحـت إلى مصر بعـد الفتح الإسلامي على يد عمرو بن العاص، وأعرق قبائل الهوارة هم الهمامية الذيـن يتمركـزون في جنوب مصـر وخاصة نجع حمادي وفرشـوط، وهذه القبيلة بالتحديد استقرت في صعيد مصر وتمتعت بقدر كبير من الثروة والنفوذ وسـيطر شـيوخها على مقاليد الأمور في الصعيد. وبعد تولي الشـيخ همام الحكم بعد وفاة والده يوسـف عام ١٧٦٧ م، مضى قدمًا في توسـيع ومد سـلطانه على كافة أقاليم الصعيـد، من المنيا إلى أسوان فكان دولة داخل دولة.. واتخذ من فرشوط عاصمة لحكمه.

أنشـأ الشـيخ همـام الدواويـن لإدارة شـئون الأراضـي الواقعة تحـت سـيطرته ولرعاية العاملين عليها، وشـكل قوة عسـكرية من الهـوارة ومـن المماليك الفارين من حكم علـي بك الكبير، فدقت أبـواق الحـرب بيـن دولة فـي الجنوب يرأسـها همام وِلد يوسـف أحمد الهواري، ودولة أخرى في الشـمال يرأسـها عليَ بك الكبير الـذي كان حليفًا للروس، وكان يعدهم بأن يدخلوا مصر على جثه همام (أمير الصعيد)، فأمدوه بأكثر الأسلحة تطورًا في هذا الوقت.

وأرسل همام جيشًا كبيرًا جمع فيه عدة جيوش من الصعيد ومن هوارة وعلى رأسهم اسماعيل الهواري ابن عم الشيخ همام وزوج أخته وخال أولاده، وبدأت الحرب وكانت الغلبة من نصيب أهل الصعيد وهوارة في البداية ولكن بسبب مكر المماليك، استطاعوا أن يخدعوا اسماعيل الهواري، فأغروه بخيانة ابن عمه وانتصر المماليك بسبب الخيانة، ودخلوا فرشوط وجعلوها كومًا من الرماد، فاتجه همام إلى النوبة ليبني جيشًا آخر من الصعيد ولكنه لم يستطع بسبب الموت الذي لحقه في الطريق.

وجميع قبائل الهوارة تمركزت بعد زوال حكم الشيخ همام، في شمال قنا وجنوب سوهاج.

أما قبيلة العرب، فقد انتشرت في كل قرى شمال وجنوب قنا، وبعض المناطق في جنوب سوهاج، وهي عبارة عن عائلات مختلفة وغير متجانسة وتنتمي إلى جذور متنوعة، لكن صراعات الأزمنة البعيدة بسبب الماء والأرض وبسط السطوة والنفوذ، فرضت عليهم أن يتحدوا في خندق المواجهات الدامية ضد الهوارة، ورغم مرور العقود الطويلة من الزمان، فمازال الصراع الأزلي بين قبيلة العرب، والهوارة في البلابيش تحديدًا، هو الذي قلب الحياة برمتها في الصعيد منذ البدايات الأولى لمحاولات إثبات القوة بين الطرفين.

■■■



وكعادته في المساء كان حضرة يوسف باشا كمال يميل إلى قضاء سهرته بالقاعة العربية في قصره بنجع حمادي، والقاعة تجعل من يدخلها يعيش في أجواء عصر المماليك، إذ جمع الأمير يوسف كمال محتوياتها من قصور بعض المماليك القديمة، وتنطق الصورة بجمال هذه القاعة البديعة وروعتها، وحين يرمق الناظر سقفها، تظهر هذه القبة التي يشع زجاجها بضوء الشمس في الصباح، فما يرغب الرامق أن يحرم مقلتيه من هذا الإبداع.. أما زخارفها فتتناغم بجمال الحليات الخشبية وقد انسجمت برونق ملائكي مع بقية العناصر الزخرفية، وتتماثل القبة مع النافورة في خط يربط بين مركزيهما، وتشع في هذه القاعة التأثيرات العثمانية على (بلاطات القيشاني)، وعلى أحد جدرانها تقف نافذتان شامختان، تأخذان الشكل المتطور من فن المشربية، فتبدو الزخرفة الخشبية التي يغطيها الزجاج الملون كأنها قرص من صناعة النحل.

وكان الأمير يدعو أصدقائه من الأعيان أو المقربين له من أهالي النجع لقضاء الأمسيات الجميلة بالقاعة العربية، ودائمًا ما كان الأصدقاء يعاتبون البرنس لأنه يحرص على دعوتهم دائمًا بعد غروب الشمس، فلا يمكنهم ذلك من الاستمتاع بالقبة المضيئة في سقف القاعة، لكنه كان يعدهم بتحقيق تلك الأمنية.. وكان من الذين حرصوا على الذهاب لقصر البرنس والترحيب بسلامة عودته لأرض الوطن، المطران متّى.. مطران نجع حمادي وأجواره،

والشـيخ إبراهيم سلامة شـيخ وإمام الجامع الكبير، ومأمور البلدة البكباشي رفعت الضو، والدكتور ألفونس سماحة مدير المستشفى التي أسسـها البرنـس لخدمة الأهالي، وعمدة النجع الشـيخ حماد الراسـي، وشـيخ قبيلة الهوارة عبـد الرحيم الهواري، وشـيخ قبيلة العرب سليمان النديم.

ومن رابع المسـتحيلات أن يجتمع شـيوخ الهوارة والعرب في مجلـس واحـد، لكن حب النـاس للأمير واحترامهـم لمكانته كان يقشع أي غيوم تخيم على العلاقة بين الشيخين، فهو الوحيد الذي تتوحد عنده المشاعر ويتآلف المختلفون، لكن هذا لم يمنع الشيخ سـليمان النديم من محاولة ترك الأمسـية عاجـلًا، فقد اطمأن على سـمو الأمير وقدم له هدية كعادة العرب في مثل هذه المناسـبات، وكانـت عبـارة عـن خمسـة عجـول وعشـرة أزواج مـن الخـراف والماعـز، وكالعـادة فقد كان العـرب يقدمون الدواب والمواشـي كأرفـع ما يقدمونه من هدايـا، وإن كانت النياق هـي أغلى ما اعتاد العرب الأوائل على تقديمه للملوك والأمراء في المحافل وكتعبير عـن العلاقـات الوطيـدة مـع أمرائهـم، لكـن الشـيخ عبـد الرحيم الهـواري.. رمـق غريمه بنظرة اسـتهتار وهمَّ واقفًا فـي تحفز النمر حيـن يمتطي الدهـاء ليقتنص فريسـته، وهو يبـادل غريمه بنظرات الكبرياء والتحدي.. قائلًا بترحاب زائد:

- النهـارده عيد في الهـوارة كِلتها يا سـمو البرنس.. كل دار فـي الهوارة صمم إنه يهادي الأمير يوسـف كمال.. حبيبنا



كلنـا.. ورمـز النبل والشـهامة (رمق الشـيخ النديـم بنظرة يستعرض فيها نفوذه ثم اسـتطرد محدثًا البرنس): الهدية وصلت يا سـمو الأمير واسـتلمها ناظر الدايرة.. عشـرين بقـرة.. وتلاتين من النياق الصحراوية.. ده غير المشـلتت وزِلع العسل والجبنة وأقفاص الفاكهة.. وده كله ما يجيش حاجة في مقامك العالي يا سمو الأمير.

ابتسـم الشـيخ عبـد الرحيـم، ابتسـامة المنتصر، وقـد لمح في عيـون الحضور نظرات الإعجاب بينما شـعر الشـيخ النديم بحرج لـم يتوقعه، لكـن كبير الهـوارة أراد أن يؤكد انتصـاره على غريمه، فأخـرج من سـيالته علبـة فاخـرة، كتلك التـي تُقدم فيهـا الجواهر الثمينة.. وفتحها مستعرضًا وهو يقدمها للأمير بفخر لـم تسعه الدنيا وقتها لاحتماله.. قائلًا:

- اللـي فـات ده كله هديـة الهوارية لسِـموك.. أمـا دي بقى (مقدمًـا العلبة) هديتي المتواضعـة (ضاحكًا بغبطة) لأمير الأمـرا.. خاتم من الذهب الأبيض بفص ماس، دَليت وِيد مـن الهوارة لباريز مخصوص علشـان يجيبـه لفخامتك.. وده برضه مش قد المقام.

ابتسـم الأمير.. ابتسـامة هادئـة يمتن فيها للشـيخين، وقد تفهم جيـدًا هـذا الموقـف الـذي وضـع فيـه كبيـر الهـوارة غريمـه كبير العـرب.. ومد البرنس يـده ليلتقط الهدية.. متحدثًـا بلباقته وذكائه المعهود وتواضعه الجم:

- شيوخ الهوارة والعرب مش محتاجين يعبروا عن حبهم بالهدايا.. وجودكم معايا هنا شرف كبير ومجاملة رائعة (مستطردًا): لو لا إني أفهم في الأصول وأعرف العيب.. كنت رديت هديتكم.. الواجب ده.. مفروض عليَّ أنا.

كان الرد محيادًا، وخاطفًا.. حفظ لكبير العرب ماء وجهه، ولو كان يعلم بخطة غريمه لأغدق بهداياه، لكنه لم يتوقع أصلًا أن يلتقي الشيخ عبد الرحيم في قصر البرنس.. وعم الوجوم قليلًا على أجواء القاعة، لكن البرنس قطعه سريعًا بدعوتهم لمأدبة عشاء فاخرة كان قد أعدها خصيصًا لضيوفه، وبدا أن الشيخ سليمان يرغب في الاعتذار ومغادرة القصر.. لكن رفض الأمير كان أقوى من اعتذاره.. فاصطحب الأمير ضيوفه إلى قاعة الطعام، وعلى مائدة بلغ مداها عشرة أمتار.. ارتصت ألوان الأطعمة وصنوف المشروبات وأطباق الحلوى والفاكهة.. ولحم الأغنام المشوي.. وكان المشهد مبهرًا لضيوف الأمير.. فانفجر الشيخ عبد الرحيم ضاحكًا بتلقائية وعفوية قائلًا:

- إيه ده كله سِموك يا برنس.. (مشيرًا للمائدة) دي عايزه بطن الفيل.

فضحك الأمير من قلبه، وهو يربت بكف يده على بطن الشيخ عبد الرحيم بلطف المداعب:

- ودي تبقى بطن مين.. يا كبير! عمومًا الدكتور ألفونس موجود.. خلص الأكل ده كله وهو هيسعفك وقت اللزوم.

■ ■ ■

كان الجميع قد انصرفوا بعد الاحتفاء بهم على مائدة العشاء في قصر الأمير يوسف كمال، بينما استأذن الأب متى مطران الكنيسة بورعه المهذب في أن ينفرد بالأمير لدقائق معدودة.. قائلًا بلطف:

- أنا عارف يا سمو الأمير إن الوقت متأخر.. لكن عايز سموك في كلمتين لو وقتك يسمح..

رد الأمير بشهامته المعتادة:

- ما تقولش كده يا أبونا متى.. البيت بيتك.. وتدخله وقت ما تحب وتخرج منه في الوقت اللي يناسبك (مستطردًا) لكن أنا عاتب على نيافتك يا أبونا!

- (بدهشة) يا خبر.. مين يقدر يزعل سموك.. إحنا بنتعلم المحبة على إيديك.. بنشوفها كائن حي من لحم ودم وأعصاب لما بنشوفك يا أمير.

- (بشيء من الاهتمام والجدية) حكاية أمير دي.. والسمو الملكي اللي مش عايز يفارقني..

- (مقاطعًا بلطف) دي حقيقة.. ولازم نِنزل الناس منازلها.

يضحك البرنس يوسف بهدوء المستكين:

- يا أبونا أنا اتنازلت عن اللقب من سنتين.. وما أحبش أصدقائي بالذات يصرُّوا عليه.. أنا عايز أعيش إنسان عادي.. أنا مش بتاع أبهة وعظمة وخيلة كدابة، كلنا سواسية كأسنان المشط أمام الله (متسائلًا) مش برضه أنت متفق معايا في كده يا أبونا.

- (بسلام نفسي هادئ) يا سلام على محبتك.. الله من محبته قيل عنه: ليس لأحد حب أعظم من هذا.. أن يضع أحد نفسه لأجل أحبائه، وإنت يا أمير سخرت نفسك علشانا كلنا ... والمسيحي قبل المسلم.. يبقى لازم نعبر لك إحنا كمان عن محبتنا ليك.

- (بعفوية) يبقى بلاش حكاية الأمير دي.

- (متسائلًا) أمال ننده عليك ونقول إيه.. مش معقول يعني الناس تكلمك وتنده عليك كده..

- إذا كان ولابد.. يبقى تقولوا يوسف.. يوسف باشا ..

يضحك المطران متى معجبًا بتواضع الأمير وهو لا يريد أن يثقل عليه في أمر يضيق به صدره:

- زي ما تحب يا يوسف باشا.

واصطحب يوسف باشا الأب متى وهو يقبض على كفه في محبة واعتزاز بصداقته، ويَنحى به إلى تراس يطل على حديقة القصر، فيجلسا سويًا على لفح نسيم منعش، تنازل عن برودته



فـي تلك البقعة الدافئة، وقد امتزج بشـيء من عبيـر الزهور النادرة التي ازدانت في أحواضها بحديقة القصر، والباشـا يسـأل المطران باهتمام عن هذا الأمر الهام الذي طلب التحدث فيه، فيلتقط الأب متى شهيقًا هادئًا من عبير الزهور وهو يتكلم بِرَوِية:

- البطريرك يوأنس التاسـع عشـر.. بيعزك ومحبتك في قلبه مالهاش حدود .

- (متريثًـا) أنـت يـا أبونـا أكتر واحـد عارف مـدى صداقتي بالبابا، أنا حضرت حفل تنصيبه من ست سنين لأنه صديق قبل ما يكون صاحب قداسـة. (مسـتطردًا) إنـت قلقتني يا أبونا.. قداسة البابا زعلان من حاجة؟

- أبدًا.. أبدًا.. لكن موضـوع الإضرابات العمالية في مصنع السـكر بدأ ياخد منحى مقلق شوية.. العمال الأقباط ليهم مطالب عادية اتقدموا بيها للإدارة مع إخواتهم المسلمين، لكـن الإدارة فرقـت فـي التعامـل بينهـم، وده كان شــيء ملحوظ.. والموضوع تطور مع الإدارة لدرجة إن البوليس قبض على تلاتة منهم.. جرجس دميان.. وحلمي الديب.. وبطـرس فـؤاد، ومـا حـدش عـارف عنهـم أي حاجـة... وقداسة البابا لما عرف طلب مني إني أكلمك.

انتفض يوسف باشا واقفًا في غضب شديد، وقد انتفخت أوداجه، وفارت الدماء في عروقه، وهو يضرب بقبضة كفه اليمنى ترابزين التراس المطل على حديقة القصر:

- ازاي ده يحصل.. ده كلام فارغ.. أنا هأتصل بمحمد توفيق نسيم باشا رئيس الوزارة ووزير الداخلية، ولو ما أفرجش عنهم فورًا أنا هاوصل الموضوع للملك فؤاد شخصيًّا .

- إحنا مش عايزين الموضوع يكبر يا باشا.. إنت عارف العلاقة بين الملك والبابا علاقة محبة، واسمح لي مش عايز أكون سبب في تعكيرها.

التقط يوسف باشا شهيقًا طويلًا وكأنه يحاول أن يسيطر على غضبه:

- ده تعدي على ناسي وأهلي.. هما مش عارفين إن الناس بتعتبرني كبير النجع (متداركًا) عمومًا يا أبونا متى.. أوعدك إنهم هيكونوا في بيوتهم وفي حضن عيالهم بكره الصبح (مؤكدًا بشموخ) ده وعد من يوسف كمال!.

■ ■ ■

صناعة السكر.. تعد من أعرق الصناعات في مصر منذ أن نقل العرب زراعة القصب وطرق استخراج السكر منه حيث ازدهرت هذه الصناعة في أخميم وفرشوط وكانت الصناعة أيامها بدائية.

وكان الخديوي اسماعيل مُقيدًا ممنوعًا من الاقتراض، لضخامة الديون التي تراكمت على خزانة الدولة، ولفَتت هذه القروض وضخامتها أنظار الباب العالي، فحاول وضع حد لها، فحظر على الخديوي بمقتضى فرمان سنة ١٨٦٩ أن يقترض إلا بإذن من الباب العالي، ولكن الخديوي كان يريد الاقتراض بأية وسيلة فلم ير بدًا من أن يعقد قرضًا لحسابه الخاص. واستدان في أبريل سنة ١٨٧٠ من البنك الفرنسي المصري ما يزيد عن سبعة ملايين جنيه بفائدة كبيرة، بضمان أطيانه الخاصة، عدا الأطيان التي رهنها سابقًا، وأطلق على هذا قرض الدائرة السنية، وهو الاسم الذي يُطلق على الدائرة التي تدير أملاك الأمير أو الخديوي، واستبعد منه نفقات السمسرة والعمولة والمتعة، فكانت النتيجة أنه لم يدخل منه في خزائن الخديوي سوى نصف مليون جنيه فقط، ولكنه يسدد على القيمة الاسمية التي اقترضها أصلًا، وكانت حجة الخديوي اسماعيل التي تذرع بها لعقد هذا القرض المجحف، أنه يحتاج إلى تمويل لإنشاء مصانع السكر، ومد سكك الحديد الزراعية لأطيانه التي خصصها لزراعة القصب، وقد أنشئت المصانع فعلًا، ولكنها استلزمت من النفقات أضعاف ما تستحقه. وكان للدائرة السنية خمسة مصانع بلغ رأسمالها ١١٤ مليون فرنك وبلغ عدد عمالها سبعة عشر ألف عامل عام ١٩٠٥. ثم اشترى الشركة رجل الأعمال البلجيكي هنري نوس وكان معظم قياداتها من الأجانب، وشيدت الشركة الجديدة مدن مُسَوَرة أطلق عليها المستعمرات

لتكون نُزلًا يقيم به تلك القيادات، حرصًا على حياتهم حيث كانت الإدارة الأجنبية تمارس عسفًا وظلمًا ضد العمال.

أما مصنع السكر في نجع حمادي فكان الأقدم والأعرق، فقد اشتعلت الحرب العالمية الأولى وخلفت لسنوات طويلة آثارًا من الغلاء والبطالة واتجهت إدارة المصنع لتقليل الإنفاق بخفض أجور العمال وفصل أكبر عدد، مما هيأ للعمال أن تفور ثورتهم لذلك كان عمال السكر بنجع حمادي جزءًا من الحركة الوطنية التي انفجرت طاقاتها في ثورة ١٩١٩ بقيادة سعد زغلول، الذي زار مصانع السكر في رحلته إلى الصعيد على ظهر باخرة نيلية طافت به مدن وادي النيل في الجنوب. وكانت التشريعات أيامها تخلو من قوانين للعمل تكفل تنظيم العلاقات بين العمال وأصحاب الأعمال وتحمي العاملين من الظلم والجور والتعسف والإذلال وتضمن لهم حقوقهم الأساسية، لذلك تركت هذه الأجواء خلفها نوعًا من الاحتقان في صدور عمال مصنع السكر، ومن وقت لآخر كانت اعتصامات العمال تأخذ مداها الأوسع من الغضب والتذمر، ومنذ ذلك الحين كان الصراع دائر على أشده بين الإدارة من جهة وبين العمال من جهة أخرى لمنع أي فرصة يتمكن العمال من خلالها من إنشاء نقابة لهم تطالب بحقوقهم وتدافع عن وجودهم.

من بين هؤلاء العمال بزغ نجم عبد المنعم الطحان، الذي تمتد جذوره في صعيد مصر، فتَخَلق بشجاعة ومروءة أهل الصعيد،



وكان لا يخشى سلطانًا أو أذى، شجاع في قول الحق، وخطيب مُفَوه حين يلزم الأمر، وبكلمة واحدة منه يشعل لهيب أقرانه، وبكلمة منه أيضًا ينهي الأمر وكأن شيئًا لم يكن ..لقد وثق العمال فيه، وأطلقوه متحدثًا باسمهم وقائدًا لهم.. لذلك كانوا ينادونه دائمًا بالريس منعم.

وكان العمال من المسلمين والأقباط لُحمة واحدة، وكانوا يعقدون اجتماعاتهم في الميدان المطل على الجامع الكبير، أو في تلك الحديقة المواجهة للمطرانية، وكثيرًا ما التهبت مشاعرهم وانطلقت انتفاضاتهم على صوت المؤذن وهو يردد.. الله أكبر.. الله أكبر، أو على أجراس الكنيسة التي تصدح بصوتها محلقة في سماء النجع، والحكاية التي تكلم فيها المطران متى، أن إدارة المصنع استطاعت أن تجند عطوة أبو اليزيد وهو أحد العمال المتسلقين، ليقف في مواجهة الريس منعم، وقامت الدنيا ولم تقعد، وفارت الدماء في عروق الثلاثي القبطي جرجس دميان.. وحلمي الديب، وبطرس فؤاد، فقد كانوا من الداعمين للريس منعم، وكانوا يعتبرون مصنع السكر في أهمية الكنيسة، ولأنهم صعايدة.. كانوا يرون في زَوْدهم عنه، كمن يزود عن عرضه مدافعًا حتى آخر قطرة في دمائه.

ووقعت الفتنة بيد الإدارة الباغية وتمكن عطوة من أن يجمع حوله البعض من ضعاف النفوس ليساندوا موقف الإدارة ضد الريس منعم، بعد أن وعدهم مدير المصنع بمضاعفة رواتبهم على

أمـل أن ينجح بهـم في إخماد نيران الغضـب والاعتصامات، بينما حـرم بقيـة العمال مـن نفس الحوافز، ومـن بينهم العمـال الأقباط بالمصنع .

فمـا كان من جرجس دميان وقد فارت الدماء في عروقه إلا أن يشـج رأس عطوة بشومة غليظة، ولما التف حوله أنصار عطوة، لم يتمالك جرجس دميان وحلمي الديب أن يكبحا غضبهما، ودارت معركة بالأيدي اشـتد وطيسـها.. وعلى إثر ذلك تم اعتقال الثلاثي القبطـي، وأوحى مدير المصنع لمأمـور نجع حمادي بأن في الأمر شبهة فتنة طائفية!.

■ ■ ■

(٢)

كان الأمير يستيقظ في ساعة مبكرة من الصباح، ويأخذ مكانه في الناحية الشرقية من حديقة القصر المطلة مباشرة على شاطئ النيل، وقد أعدت له مائدة يحجب بينها وبين شمس الصباح اللافحة.. مظلة كبيرة، وكعادته يتناول إفطارًا خفيفًا وكوبًا من الشاي الصعيدي بالنعناع الأخضر.. ويظل الأمير في تلك الساعة مختليًا بنفسه، حتى يصدر الإشارة بالخروج من خلوته.. وكانت هذه الإشارة هي آخر رشفة من كوب الشاي، ويظل طوسون بعيدًا يترقب هذه الإشارة، حتى إذا حلت.. تقدم نحو الأمير ملقيًا عليه تحية الصباح، وطالبًا من عم إدريس.. سفرجي الأمير أن يحضر فنجان القهوة الصباحية.. تمامًا كرغبة الباشا اليومية.

وأول شيء أراد طوسون أن يبدأ به حديثه مع الباشا، كان عن الحفل الذي سيستقبل فيه أهالي النجع ورموزه، فأخبره بأنه اتصل بعبد الوهاب وسامي الشوا، وأن التخت الشرقي والآلاتية سيصلوا إلى النجع صباح يوم الخميس، أما عن حفل العشاء، فقد اقترح طوسون على الأمير أن يأمر بذبح المواشي التي أهديت له

من كبير الهوارة وكبير العرب.. لكن الأمير الذي كان مركزًا ببصره نحو النهر الجاري أمامه.. متأملًا في حركة تلك الطيور التي تحط بين اللحظة والأخرى على صفحة النيل في رشاقة بديعة.. كان باديًا عليه أنه مكترث بأمر ما.. لذلك أجاب طوسون بكلمات قليلة حاسمة دون أن ينظر إليه:

- المواشي دي تتبرع بيها مناصفة بين الجامع والكنيسة.. (مستطردًا) ومش عايز حد يعرف الحكاية دي يا طوسون... وخد احتياجاتك للحفلة من مزرعة الدايرة .

تنبه طوسون إلى اكتراث سيده.. فهو لم يكن بطبيعته المعهودة، وتردد طوسون كثيرًا في أن يسأله عن انشغال باله.. لكنه حسم الأمر في دقائق بسيطة، وقرر أن يقتحم عقل الأمير المهموم بلطف وابتسامة رقيقة:

- اسمح لي سموك.. أنا شايف البال مشغول.. يا ترى فيه حاجة ممكن أعملها؟

التفت إليه الأمير بعيون ذابلة حزينة ورد بكلمات مقتضبة:

- اطلب لي نسيم باشا رئيس الوزارة فورًا ..

كانت لهجة يوسف كمال قوية وحاسمة، وبدا أنه يدفن حزنًا شديدًا، وجُرحًا عميقًا داخله، إلى الحد الذي جعل طوسون ينسحب في هدوء نحو الداخل دون أن ينطق أو يسأل عن الأسباب، فهو بطبيعة عمله سكرتير الأمير الخاص، وأمر عادي أن يعرف كل

شـيء، لكنه استشـعر من هدوء البرنس الغاضب، أنه الهدوء الذي يسبق العاصفة.. وأن الأمر جَلل بالنسبة للرجل، وربما يُطلق غضبه عليه إذا أفاض في الاستفسـار والسـؤال، لذلك فضل الانسـحاب منفذًا الأمـر، واتجه إلى مكتب البرنـس بالطابق الأرضي بالقصر، ليتصـل برئيس الـوزراء.. وما هـي إلا لحظات من الزمـن انتظرها الأميـر متدبرًا، ونوبات الاحتجاج تتقلب في وجدانه، حتى أخطره طوسـون بأن سـكرتير رئيس الوزراء على الهاتف في مكتبه، وهَم البرنس باكتراث المهتم، وتوجه في خطوات مسـرعة ناحية مدخل الطابـق الأرضـي في قصره، ثم دلـف نحو مكتبه، والتقط سـماعة الهاتف متحدثًا:

- آلـو ... (ثـم صَمَـت قليـلًا.. وهـو ينصت لمحدثـه الذي أغـدق عليه بالترحيب، لكن الباشـا اسـتكمل بجدية دون تعليق علـى كلام محدثه): من فضلك وصلني فورًا بدولة الباشا رئيس الوزارة!..

لـم يكن يوسـف كمال يحـب أن يلجأ إلى دولة رئيـس الوزراء أو أي مـن وزرائـه فـي مـأرب أو مطمـع شـخصي، فدولة الباشـا رئيـس الوزراء من أصدقائه، وكثير مـن وزراء الحكومة يرتبط بهم بصداقـات قوية، بخـلاف أنه في النهاية أحد أبنـاء العائلة الملكية، وهو ابن عم الملك فؤاد، وكان من أبرز الأسماء المرشحة لاعتلاء عرش مصر عندما توفي السلطان حسين كامل شقيق الأمير، لكنه ما احتاج يومًا إلى كل هذا النفوذ، فقد اختار حياته بعيدًا عن السلطان

والجـاه، إلا أنه استشـعر غضبًا شـديدًا مـن حادثة مصنع السـكر، وكان يـرى أنه من المفروض أن يخطره وزيـر الداخلية بالأمر قبل أن يتخذ أي إجراء، فهو في النهاية رمز النجع، وتقريبًا لا يخرج من تحت زمام ملكيته من الأراضي سوى القليل جدًّا، وهو الذي ينفق من ماله طوعًا لتحسين أوضاع الحياة، وأحوال الناس في الصعيد، وهي مهمة الحكومة أصلًا، وإذا رفع يوسـف باشا يده عن الصعيد لتورطـت الحكومة، وما اسـتطاعت أن تملأ الفراغ الذي يمكن أن يتركه البرنس.

وتلقى دولة نسـيم باشـا الاتصال بترحيب مبالـغ فيه، إلى الحد الـذي لم يفكر فيه رئيس الوزراء من طول إطرائه أن يسـأل البرنس يوسف عن حاجته، لكن يوسف باشا قطع هذا الفاصل من الاطراء المبتـذل باحتجاج مباشـر علـى اعتقال العمال الأقبـاط في مصنع السـكر، وفاض في غضبه بشـيء ملحوظ، حتى إن طوسون الذي تسـمر في الأرض إلى جوار الباشـا، كان يومئ له بإشارات ليُهدئ من فورته.. وبدا أن نسيم باشا يقدم اعتذاره.. فرد عليه يوسف باشا بحسم لا يقبل المفاوضة:

- يـا دولة الرئيس.. أنا مش هأقبل الاعتـذار إلا بعد الإفراج الفوري عن المعتقلين.. وإلا هأنزل مصر.. وأروح للملك بنفسي.

ولـم تمض سـاعة فقط حتى أفرج نسـيم باشـا عـن المعتقلين، وعادوا جميعًا إلى ديارهم، تمامًا كما وعد الأمير.. ودقت الكنيسة

أجراسها فرحًا بإخلاء سبيل الثلاثي القبطي.. بينما لم تهدأ عاصفة الفتنـة، وخرجـت مظاهـرة كبيـرة يقودها بعـض العمـال الموالين لمديـر المصنع نحو الجامـع الكبير في النجـع، وهي تطالب بحق عطوة أبو اليزيد الذي شج رأسه.

■ ■ ■

كان بولس سمعان نجارًا قبطيًّا.. وهو بالفعل أشهر نجار في نجع حمادي.. يده تلف في حرير كما يقولون، وحين يحط منشـاره في قطعة الخشب الخام، يحيلها إلى تحفة فنية تسر الناظرين.. وبولس امتهن النجارة أبًّا عن جد، وكان جده نجارًا معروفًا أيضًا، وقد لقي حظًّـا من الرعاية حيـن صوب محمد علي باشـا اهتمامـه بالعمال المهرة والحرفيين للاستفادة بهم في بناء الجيش المصري، وجلب لتدريبهم المهندسين والفنيين من أوروبا، ولذلك كان الجد واحدًا من أمهر النجارين في بر مصر، وقـد نقل ما تعلمه من فنون حرفته إلى ابنه سمعان.. وهو بدوره نقلها إلى ولده بولس.

واسـتدعى طوسـون.. بولس ليبدأ في تجهيز المسرح الذي أمر بإعداده يوسـف باشا خصيصًا ليشدو من فوقه محمد عبد الوهاب فـي حديقة قصـره الخلابـة، ومنذ يوميـن والعمل يـدور على قدم وسـاق، وكان الأمير يطل من حيـن لآخر على مكان الحفل ويتابع بنفسه عن كثب بناء منصة المسرح، ويعطي ملاحظاته الدقيقة، فقد كان الأميـر معجبًـا ببولس وكثيرًا ما اسـتعان به فـي أعمال النجارة

بقصره.. وليس هذا بمستغرب، فأبوه سمعان هو صانع مشربيات القصر التي أبهرت كل زواره، وبدت بمثابة الماكياج الذي تجمل به القصر، فزاد من رونقه، وأضاف إليه طلة لا تزول من الشموخ والجمال . غير أن بولس لم يأتِ اليوم إلى القصر، كعادته منذ أيام، وحين سأل الأمير بقلق عن غيابه.. لم يكن هناك ما يبرر به طوسون ذلك، سوى احتمال احتجابه في بيته خوفًا من غضبة عمال مصنع السكر، وقد أشيعت الفتنة في النجع، وأختصر الأمر في النهاية على أنه صراع بين المسلمين والأقباط، وأن العمال المسلمين قرروا أن يفتكوا بشركاء الأرض.. انتقاما لعطوة!!.

وظهرت علامات الضيق والغضب على الباشا، فلم يُعتاد في دائرته من قبل أن يحدث هذا النوع من الصراع.. وصحيح أن الصعيد كان يعج بالصراعات وكانت الأجواء تلتهب أحيانًا بنيران الغضب، لكنها لم تخرج يومًا عن تلك التي كانت دائرة بين الهوارة والعرب.. أو بسبب عادة الأخذ بالثأر بين قبائل وعائلات الصعيد، وخاصة في نجع حمادي.. لكن وجود الأمير بينهم كان بمثابة الماء الهادر الذي يُلقَى فوق الجمر المشتعل، فيَئِد نيرانه قبل أن تأكل الأخضر واليابس، أما جمر الفتنة الطائفية.. فهو موضة جديدة على النجع، وهو ما أثار قلق الأمير الذي وجد الشيخ إبراهيم سلامة شيخ وإمام الجامع الكبير بالنجع واقفًا أمامه فجأة، وملامح العتاب قد رسمت نفسها على وجهه.

والشيخ إبراهيم سلامة بطبعه رجل هادئ.. معتدل، وهو من أنصار الإسلام الوسطي، وكيف لا يكون هذا مبدأه وهو الذي قضى نصف عمره في أروقة الأزهر الشريف حتى نال شهادة العالمية.. والأزهر قلعة الإسلام الوسطي في الأرض، وهو من يحمل لواء الدعوة.. والشيخ سلامة هو أحد رموزه في صعيد مصر.. لكن هذا التجمهر العمالي الذي زحف نحو الجامع الكبير أثار حفيظته، وهو يرى الدماء تسيل بغزارتها على وجه عطوة، وقد فهم من الغاضبين أن غضبتهم بسبب العمال المسيحيين في مصنع السكر والذين جاروا على زميلهم المسلم، خاصة وأن تدخل الباشا للإفراج عنهم قد تُرجِم على أنه يناصرهم ويؤيدهم.

لكن يوسف باشا انتفض واقفًا، بعد أن أعطى للشيخ الجليل حقه في الترحاب مُنزلًا إياه مكانته التي يستحقها، وابتسم بلطفه المعتاد قائلًا بعتاب رقيق:

- من إمتى يا شيخ سلامة وأنا بأكيل بمكيالين؟ كان لازم تفهم الأمر، وتهدي العمال (مستطردًا) ده عهدي دايمًا بحكمتك ووسطيتك.
- (بغضب هادئ) يا باشا.. أنا شفت بعيني.. الراجل غرقان في دمه.

ينظر إليه يوسف باشا.. بعتاب شديد:

- وجاي علشان تاخد التار يا شيخ الجامع؟.. يظهر إن إبراهيم سلامة الصعيدي.. قدر يهزم إبراهيم سلامة العلَّامة الأزهري وشيخ الجامع الكبير في النجع!!.

شعر الشيخ بشيء من الحرج، وتردد قليلًا في حديثه ثم قال:

- أستغفر الله يا يوسف باشا.. لكن الأمر لازم له وقفة.. ووقفة شديدة كمان.

دعاه يوسف باشا للجلوس، وأمر له بفنجان من الشاي.. وابتسم برونق هدوئه المهذب، وتحدث بلطف مسترسلًا:

- جدنا محمد علي باشا.. من سنين طويلة اهتم بالأقباط يا شيخ إبراهيم، في عهده مثلًا إخواتنا الأقباط تولوا مناصب قيادية ..زي بطرس أغا اللي كان مأمور قنا وجرجا.. ده غير إنه كان أول حاكم مسلم يمنحهم رتبة الباكاوية، ويعينهم حكامًا للأقاليم (مستطردًا بحماس) محمد علي باشا.. هو اللي أمر بتحديد المصرية بواقعة الميلاد وحدها .. مش بالديانة يا شيخنا.. والتاريخ يشهد إنه لم يرفض أي طلب لبناء أو إصلاح الكنائس.. (مستمرًّا) أنا محتفظ بنسخة من مخطوطات الأوامر الخاصة بالكنائس، ودايمًا كان بيشدد فيها على التصريح للأقباط بتعمير الكنائس ومساعدتهم وعدم ممانعتهم .

سـرى في نفس الشـيخ إبراهيم شـيء من الهدوء والرَوية، لكن دهشـته بحديـث الباشـا كانـت قد أخـذت منـه موضعها.. فسـأل متعجبًا:

- مـا تآخذنيش يا باشـا.. إيـه علاقـة الـكلام ده.. بالحكاية بتاعتنا.

رد بعفوية وتلقائية:

- علاقة كبيرة قوي يا فضيلة الشيخ.. إحنا لازم نحافظ على الوحـدة الوطنية.. لازم نحافظ علـى اللي بناه محمد علي باشـا.. وأعتقد أنها تعاليم ديننا الحنيـف.. كمان (مؤكدًا) إحنـا عايشـين في سـلام من سـنين طويلة فـي البلد دي.. بنـزرع أرضنـا مع بعض، وولادنـا بيتعلموا في مدارسـهم مع بعض.. حتى في مواجهتنا للاحتلال، بنقاوم مع بعض ..إنـت نسـيت ثـورة ١٩ يـا مولانا ..(مسـتطردًا) علشـان كده فتنـة الدين لو سـيطرت على مشـاعرنا، هتحرقنا كلنا بنارهـا.. وأمثالك من العلماء المسـتنيرين.. لازم يتصدوا للفتنـة دي، ويطعنوهـا فـي مقتل.. وإلا قول علـى بلدنا.. السلام.

بـدأت أمارات الاقتناع بحديث الباشـا تأخـذ مأخذها في عقل وقلب الشيخ سلامة، وقد انفرجت أسارير وجهه قليلًا، فرد قائلًا:

- معاك حق يا باشا.. معاك حق.. لكن ...



قاطعه الباشا بهدوء الواثق:

- لكن حكاية مصنع السكر واللي حصل فيه (متسائلًا) هو ده قصدك يا شيخ إبراهيم.. تمام؟

- تمام يا باشا.

- موضوع زي ده ما يفوتنيش ..أنا اتحققت من الموضوع بنفسي.. وعرفت إن عطوة هو اللي غلطان.. ومش ممكن أبدًا كنت هاتدخل علشان أفرج عن مخطئ.(راجيًا برفق) يا ريت يا مولانا تفهم الناس الكلام ده، وياريت تهديهم، وتخليهم يرجعوا مصنعهم، ويدوروا المَكن ويشتغلوا.. وينتجوا.. هو ده اللي لازم ننشغل بيه.. مش حاجة تانية خالص.

■ ■ ■

وعرض طوسون قائمة المدعوين للحفل على الباشا، وكانت تضم في سطورها كل الشخصيَّات البارزة في النجع، ومن بينهم طبعًا الشيخ إبراهيم سلامة والأب متى.. وزعماء القبائل العربية وبالأخص زعيم الهوارة وزعيم العرب.. لكن الباشا طلب من سكرتيره أن يدعو أيضًا عطوة الزناتي، ومعه الثلاثي القبطي جرجس دميان.. وحلمي الديب، وبطرس فؤاد.. وبالطبع حرص على دعوة الريس منعم.. بل أكثر من ذلك فقد طلب من طوسون أن يدعو ما يتمكن من دعوته من عمال مصنع السكر، وألا ينسى

الفلاحين في الدائرة اليوسفية.. فقد أراد يوسف باشا أن يكون الحفل مناسبة للمصالحة وإزالة شوائب تلك الفتنة التي ذرعها مدير مصنع السكر في نفوس عماله، وأبتغي أيضًا أن يصل للفلاحين في دائرته أنه يقدرهم ويثمن جهودهم.

وأرسل الباشا سيارتين فارهتين، لإحضار محمد عبد الوهاب وسامي الشوا من محطة القطار بالنجع، وكان عبد الوهاب قد قام بدراسة العود في معهد الموسيقى العربية، وذاع صيته كثيرًا بعد أن قدم أول أعماله السينمائية.. فيلم الوردة البيضا.. وبدأت الإذاعة المصرية في بث أغنياته التي حظيت بإعجاب المصريين، لكن الفاصل الأعظم في حياته، كان لقاؤه بأمير الشعراء أحمد شوقي، وفي عام ١٩٢٤.. أقيم حفل بأحد كازينوهات الإسكندرية أحياه محمد عبد الوهاب وحضره رجال الدولة والعديد من المشاهير، وكان من بينهم أحمد شوقي الذي طلب لقاء عبد الوهاب بعد انتهاء الحفل، ولم ينس عبد الوهاب ما فعله به أحمد شوقي بمنعه من الغناء وهو صغير، وقد برر أحمد شوقي فعلته بأن ذلك كان خوفًا على صحته وهو طفل، ومنذ ذلك اللقاء تبناه أحمد شوقي، واعتبره عبد الوهاب مثله الأعلى والأب الروحي له الذي منحه الكثير، فكان يتدخل في تفاصيل حياته وعلمه طريقة الكلام واتيكيت الأكل والشراب، وأحضر له مدرسًا لتعليمه اللغة الفرنسية، ووقتها كانت لغة الطبقات الراقية، وبدأ نجم محمد عبد الوهاب يبزغ حيث قدمه أحمد شوقي في كافة الحفلات التي كان

يذهب إليها وقدمه إلى رجال الصحافة والأدب مثل طه حسين وعباس محمود العقاد والمازني، وكذلك رجال السياسة مثل أحمد ماهر باشا وسعد زغلول ومحمود فهمي النقراشي.

ووصلت السيارة التي تقل عبد الوهاب أمام بوابة قصر البرنس بنجع حمادي، وقد أحاطها الأهالي منذ وصوله النجع بزفة شعبية بالطبل والزمر، بينما تقدمت الخيول سيارة النجم اللامع في موكب مهيب يعكس حب الناس له، في حين انطلقت الأعيرة النارية في سماء النجع، معلنة مَقدم نجم النجوم وقتها.. المطرب الشاب.. محمد عبد الوهاب، ولم ينتظر الباشا حتى تدخل السيارة إلى حديقة القصر، بل أصر على استقبال عبد الوهاب عند بوابته المنيفة.. وبمجرد أن لمح عبد الوهاب.. الباشا.. حتى ترك السيارة التي أقلته، وخطى مسرعًا ليقطع الأمتار القليلة بينه وبين الباشا في ثوانٍ.. بينما تقدم نحوه البرنس مرحبًا وهو يبادله القبلات والأحضان بمشاعر فياضة من الحب والاعتراف بالموهبة.. وابتسم الباشا بغبطة وهو يستقبله قائلًا:

- أهلًا.. يا عبد الوهاب.. شرفت نجع حمادي كلها.. الناس هنا كلها بتحبك وبتعشق فنك.. وأنا أولهم طبعًا ..

ابتسم عبد الوهاب بفرحة سيطرت على نفسه، فلم يكن يتوقع هذا الاستقبال الرائع.. وأجاب بطريقته الهادئة وصوته الرخيم:

- الشرف ليا.. يا سمو الأمير ... أول ما طوسون كلمني.. قلت حفل في قصر راعي الفنون يوسف باشا كمال.. فرصة لا يمكن تفوتني..

ثم ضحك ضحكته المتقطعة، وقبض الباشا على كف ضيفه وهو يصطحبه نحو القصر، بينما يميل على أذن عبد الوهاب قائلًا بعشم الأصدقاء:

- أنا عايز اسمع النهارده.. جفنه علَّم الغزل.. أول حاجة تغنيها يا عبد الوهاب لما تطلع على المسرح ..

تنطلق ضحكات عبد الوهاب المعتادة.. وضحكته كانت شيئًا بين القبول والرفض.. قبول في رغبة الابتسام.. ورفض في رغبة الانطلاق، فقد كان متحفظًا في ابتسامته وضحكاته، وكأنها ستفقده الكثير إذا خرجت من قيدها وأطلق سراحها.. لكن الأمير عاجله قائلًا:

- إحنا هنتغدى مع بعض على شط النيل ... جو بديع يا عبد الوهاب، هيضيف لجمال صوتك سحر عجيب.. (مستطردًا) هتشوف بنفسك.

ونما إلى مسامع عبد الوهاب، أن سامي الشوا سيكون غريمه أمام الجمهور، والشوا له أيضًا في قلب الناس ما له من محبة، فهو أشهر وأعظم عازف للكمان في الشرق، وكان يعتز كثيرًا بآلة كمان قديمة ورثها عن جده الذي عزف على الكمان أيضًا في

حضرة إبراهيم باشا عند غزوه لسوريا، كما عزف أمام ملك وملكة إيطاليـا، على وتر واحد فقط بذلك الكمـان القديم أيضًا ..ودهش الملكان.. فأهدته الملكة هدية ثمينة من الماس.. وحينما استقبله البرنس يوسف.. طلب منه أيضًا معزوفة الوتر الواحد.. وهو يداعبه بلطف: إلا إذا كنت بتعز ملكة إيطاليا أكتر من يوسف كمال!!.

لكن المشـكلة كانت بين الغريمين، رغم كونهما من الأصدقاء وكثيـرًا مـا تغنـى محمد عبـد الوهاب علـى أنغـام الشـوا.. وأمير الشـعراء.. شـوقي باشا نفسـه، كان متحمسًـا لهما بنفس القدر ... وكلاهمـا كان لـه قـدر كبير مـن المحبة فـي نفوس النـاس، وأراد الشـوا أن يقدم فقرته فـي نهاية الحفل، بعـد أن ينتهي عبد الوهاب مـن وصلته.. لكن عبـد الوهاب كان يرى أنه الأجـدر بتقديم فقرة النهاية.. وغضب عبد الوهاب كثيرًا.. وبدت تقاسـيم التوتر تسيطر علـى وجهـه.. بينما احتفظ بذوقـه الرفيع في حضرة الباشـا.. وقد شـعر بما ألَم بضيفه من ضيق ... وظل الباشا يفكر كيف يخرج من هـذا المـأزق.. فهو لا يسـتطيع أن يجبر أيًّا منهما على شـيء، وهو الرجـل الذي يقـدر الفن وأهلـه، ولا يخفي إعجابـه المتناهي بفن الغريمين، فكلاهما معجزة بذاته.

وفجـأة لمعت فكرة.. ارتآهـا البرنس.. فكـرة جهنمية.. فخطر ببالـه أن محمـد عبـد الوهـاب فنان مسـلم.. وأن الشـوا مسـيحي قبطي.. ولد على أرض مصر.. في حي باب الشعرية.. نفس الحي الذي شـهد ميلاد عبـد الوهـاب.. وأن فتيل الفتنة بدأ اشـتعاله في

النجع هذه الأيام، فما الذي يمنع أن يستغل البرنس هذه الصدفة، في أن يضرب عصفورين بحجر واحد! وكانت الفكرة أن يجمع الباشا كلاًّ من عبد الوهاب والشوا، ويقص عليهم أحداث الفتنة التي تدور في النجع، وأنه يأمل في هذا الاحتفال أن يعقد مصالحة بين المتخاصمين، وليس هناك فرصة أعظم من تلك الفرصة ليحمل كلاهما لواء المصالحة. واختمرت الفكرة في ذهن عبد الوهاب.. ورحب بها سامي الشوا، واقترح الباشا أن يبدأ عبد الوهاب بتحية الجمهور ويقدم لهم الشوا الذي يأخذ دوره أولًا.. ثم يأتي الدور على الشوا الذي يخرج للجمهور معلنًا عن فقرة عبد الوهاب ... ثم يعتلي الباشا بنفسه خشبه المسرح ويلقي كلمة قصيرة عن الوحدة الوطنية، ويعقبها فقرة مشتركة يشدو فيها عبد الوهاب على عزف منفرد من سامي الشوا . كانت الفكرة رائعة، ولمعت في عقول الجميع.. وعكست هذا الفكر الرشيد الذي يحمله الباشا في وجدانه.. وهنا تحدث الشوا برضاء وغبطة:

- فكرة رائعة يا سمو البرنس ...

واستأنف عبد الوهاب قائلًا بفخامته المعهودة:

- ما فيش أروع من هذا الدور الوطني.. يا يوسف باشا .

ابتسم الباشا.. بزهو المنتصر، والتقط شهيقًا طويلًا يعكس رضاءه وغبطته، بينما يطل بكلماته الرزينة على ضيوفه قائلًا:



- الفن ممكن يحل مشكلات كبيرة ... أنا كنت ناوي أستغل الحفل علشان أنهي المشكلة، لكن بالتصور اللي اتفقنا عليه، الرسالة هتكون مباشرة وهتوصل للجميع (مستطردًا) اتنين من كبار الفنانين زي حضراتكم، لما يقدموا المثل والقدوة، أكيد كل محبيهم ومعجبيهم هيقتدوا بيهم.

■ ■ ■

حل المساء مشرقًا على حديقة القصر.. نعم.. كانت ليلة مشرقة بمشاعل تناثرت بكثرة في أرجاء الحديقة، وقد أوقِدت بلهب برتقالي في قلب تلك الفوانيس النحاسية التي ثبتت في أماكن مختلفة، ويتربع الفانوس المزخرف ذو الجوانب الزجاجية الشفافة، كتحفة فنية مستقلة، وفي جوفها يتراقص لهب المشاعل ليضيء المكان ويحيله كصبح مشرق بضوء الشمس. وكان الجو رومانسيًّا، بينما تعكس تلك المشاعل أضواءها على مساحات من صفحة النيل على شاطئ القصر.. وقد أقيم متاخمًا له.. هذا المسرح الذي سيشدو من فوقه عبد الوهاب بأروع أغانيه.. بينما يعزف سامي الشوا أجمل مقطوعاته على الإطلاق.. وعلى مقربة من المسرح ارتصت العشرات من الطاولات المستديرة، يحف كل منها عشرة مقاعد، وجميعها اكتست بقماش الساتان المخيط يدويًّا بعناية فائقة.. وقد تحزم من منتصفه بفيونكة حمراء لامعة، جعلته أشبه بفستان عروس في ليلية زفافها، بينما اعتلت الطاولات

مفارش حمراء.. مطرزة في أشكال فنية بديعة.. وتتوسط كل طاولة زهرية بها صنوف الورد الأبيض والأحمر والأصفر من حديقة القصر، ومشكاة تضاء بداخلها شمعة صغيرة.

وجلس على طاولات المقدمة أعيان البلد وسادتها، مأمور النجع ومدير المستشفى وكبير الهوارة وكبير العرب.. ومديرو المديريات المختلفة.. بينما جلس الشيخ إبراهيم سلامة، والمطران متى على طاولة مستقلة، وحرص الباشا على أن يشاركهما فيها عمال مصنع السكر المتخاصمين.. جرجس دميان.. وحلمي الديب، وبطرس فؤاد.. ومعهم الريس منعم.. وأيضًا عطوة أبو اليزيد، واقترب الدكتور ألفونس سماحة مدير المستشفى والذي كان معروفًا بتشدده الديني وعلاقته الحميمة بالكنيسة.. ولام بشدة عطوة أبو اليزيد.. واتهمه بالخيانة والعمالة، وشعر عطوة بالحرج الشديد.. وأحس أن كمينًا قد أعد له بدعوته لهذا الحفل، وعلا غاضبًا وهو يرد على الدكتور ألفونس.. ويتوعده بأنه لن يترك إهانته له تمر مرور الكرام.. ولما تنبه الباشا إلى تلك المشاحنة أسرع نحوهما.. وتدخل بحسمه المهذب لفض الاشتباك بينهما.. وحتى يطمئن لعودة المياه إلى مجاريها.. حرص الباشا على أن يستقر بعد ترحيبه بضيوفه على نفس الطاولة، ومن حين لآخر كان يُقرب بحكمة حديثه وجهات النظر بين الجميع، بعد أن طلب من الريس منعم أن يكون محايدًا ليستعيد الجميع ثقتهم به .



ورغـم حنكـة الباشـا.. ومحاولتـه لـرأب هـذا الموقـف الذي لـم يكن بخاطـره.. إلا أن تلالًا مـن الجليد كانت قد ترسـبت بين المتخاصمين.. وبدا أن عطوة لم تصف نفسه.. كما كان يحاول أن يؤكد في كل كلمة ينطق بها!!.

ومر برنامج الحفل تمامًا كما خطط له الباشا، فخرج عبد الوهاب ليقدم للشوا فقرته، متحدثًا عن فنه الجميل، وعراقة موهبته، وبلفتة ذكيـة أعطى ترحيبًا خاصًّا للأب متى مطران كنيسـة النجع.. وأبدع الشوا في عزفه المنفرد، ولـم ينس معزوفة الوتر الواحد.. فاشتعلت الحديقـة بالتصفيـق المتواصـل، وطلـب الحاضرون منـه أن يعيد عزفهـا مرات ثلاثـة، حتى كاد الشـوا أن يحتل بحـب الجماهير له جزءًا من الوقت المخصص لفقرة عبد الوهاب، لكن طوسون نبهه بلطف إلى ذلك، وقبل أن يترك الشـوا مكانه فوق المسـرح.. تكلم كثيـرًا عـن عبد الوهاب.. وأسـرف فـي الإطراء عليـه ..حتى قطع الحاضرون حديثه أكثر من مرة بعواصف التصفيق المسـتمر.. فقد كان عبـد الوهاب نجمًا مشـهورًا.. وكان حب الناس له عارمًا.. لا يقبل المفاصلة أو المفاضلة.. وصعد عبد الوهاب إلى المسـرح.. فاندفع نحوه سـامي الشـوا ليسـتقبله علـى الدَّرج، وهـو يصطحبه ممسـكًا بكفه إلى مركز خشـبة المسـرح.. تاركًا إياه يرد على تحية الحاضرين وقد استقبلوه بعاصفة مدوية من التصفيق .

وظـل بولس سـمعان.. مفتخـرًا بهذا المسـرح الـذي أقامه في زمن قياسـيٍ، وهو ينأى جانبًا نحو طوسون، هامسًا في أذنيه بقفشة ساخرة قائلاً:

- مـا فيـش كلمتيـن حلويـن للعبد للـه.. يا جناب طوسـون أفندي..

فيبتسـم له طوسون بشـيء من اللطف، وهو يؤكد له أنه سيكون موضع تقدير الباشـا، ولا يجب عليه أن يتعجل ذلك.. لكن بولس كان يأمل في شـيء آخر، فلم يكن ينتظر المقابل المادي.. بل كان في رأسه شـيء يدور.. ولـم يكن توقف هذا الدوران سوى بمقابلة الباشـا وطرح الأمر أمامه.. لكن طوسون طلب منه أن يرجئ الأمر إلى الغد.

وبـدا عبد الوهـاب ملكًا متوجًا على المسـرح، فقـد أفاض من فنه وصوته العـذب، بينما جمهور الحاضرين يتفاعل معه في حب وتناغم.. واقتربت وصلة عبد الوهاب من نهايتها.. واسـتعد الباشا للصعـود إلى المسـرح.. تمامًـا كما اتفق مع عبد الوهاب وسـامي الشـوا.. وبمجـرد وصوله إلـى أول الدَرج.. وهو فـي صعوده إلى خشـبة المسـرح، حتى هب الجميع في وقوف لتحية البرنس، وقد تحولـت كفوفهـم إلـى طبول ودفـوف يقرعـون عليهـا بتصفيقهم الحـاد، والبرنـس يرفع يديـه، وقد مال برأسـه منحنيًـا للأمام وهو يـرد تحيتهـم بتواضعه الجم.. بينما اتخذ موضعًا في مركز خشـبة المسرح، متحدثًا مع ضيوفه قائلاً:



- أنـا النهـارده.. أسـعد النـاس.. فعلًا أنا سـعيد بتشـريفكم لـي في هـذا الحفل المتواضـع.. وأنا بأرحـب في قصري بـكل الكبار والمشـايخ.. وبأرحـب بإخواتي مـن العمال والفلاحيـن.. وبأقولهـم أنا فعـلًا مفتخـر بوجودكم معانا النهاردة ..

(يقتطع العمال والفلاحون حديث الباشـا بعاصفة من التصفيق الحاد) ويستمر الباشا في حديثه:

- المشـاكل اللـي حصلـت في النجـع.. فـي اليوميـن اللي فاتـوا ... غريبة علينا ومش من طباعنـا.. إحنا طول عمرنا جسـد واحد وإرادة واحدة.. ما فيش حاجة اسـمها مسلم ومسـيحي.. ولا حاجة اسمها صاحب أرض.. أوعامل أو فلاح.. وأنا أول واحد بأطبق الكلام ده على نفسي..

(يعـاود الحضـور جميعهـم التصفيـق بحـرارة للباشـا إعجابًـا بحديثه):

- عطوة أبو اليزيد.. وجرجس دميان.. إخوات.. وهيفضلوا إخـوات مهما يحصل، واللي جـرى بينهم.. حادث عادي زي أي مشـكلة بتحصـل بيـن أخين ... وأعتقـد إنهم مش ممكن يقدروا يستغنوا عن بعض .

تنتفض أرجاء الحديقة على كلمات الباشـا مرة أخرى، فيلتهب التصفيـق المدوي، ويشـعر عطوة وجرجس بشـيء مـن الخجل..

فينطلق كل منهما، بمشاعر مكتنزة في عروقهم نحو الآخر، فيحتضان بعضهما البعض، ويذهبان ناحية الريس منعم الذي يستقبلهما بين ذراعيه في حفاوة بالغة، بينما يلتفت إليهم الحضور وقد استمر التصفيق في حرارة، وكأن الجميع يعلن موقفه من هذا المشهد الرائع، فيشير إليهم الباشا بلطف، ليتابع كلمته:

- إحنا هنا كلنا في النجع أسرة واحدة، ولازم نفضل أسرة واحدة، وأنا متأكد إننا كلنا هنخرج من الحفل وإحنا زي ما إحنا إخوات وحبايب، أما بالنسبة لمطالب العمال في مصنع السكر، فأنا أوعدكم إني هأناقشها مع المسئولين (ثم بتواضع شديد) أنا عايز العمال يعتبروني واحدًا منهم، ويسيبوا لي الموضوع ده .

تشتعل عاصفة التصفيق من جديد، وقد هم العمال منتفضين في حماس وهم يهتفون جميعًا بأصوات تصدح في سماء الليل الهادئ:

- يا رجال.. يا رجال.. يوسف باشا ..حبيب العمال، يا رجال.. يا رجال.. يوسف باشا.. حبيب العمال ...

يربت الباشا بكف يده الأيمن على صدره، ممتنًّا وشاكرًا لمشاعر العمال الذين لم يتوقف هتافهم إلا بعد أن أشار لهم.. مستكملًا:



- وبيكمل سعادتنا النهارده تشريف الأستاذ عبد الوهاب، والأستاذ سامي الشوا.. حقيقي إحنا كلنا سعدنا بفنهم الجميل والراقي.. ودلوقتي الأستاذ عبد الوهاب الفنان المصري المسلم، هيشترك مع أخوه الأستاذ سامي الشوا الفنان المصري القبطي.. في فقرة فنية رائعة بيعبروا من خلالها عن محبتهم لمصر.. ورفضهم لأي فتنة ممكن تحصل بين أصحاب الأرض الواحدة.

وصفق الجميع بغبطة المنتصرين، فقد كانت كلمات الباشا مؤثرة، وأعادت الأشياء إلى أصولها.. ولم يكن هذا بغريب عن الباشا.. فلم يكن يطيق أن يرى أبناء النجع في صدام زائف، وهو بنفسه الذي يحرص دومًا على تصفية الأجواء، وكثيرًا ما تدخل لفض النزاعات بين الهوارة والعرب.. وكثيرًا ما استضاف في قصره مجالس الصلح في قضايا الثأر، وكم من الأرواح.. حُفِظت بحكمته وتدخله الرشيد. وصعد عبد الوهاب والشوا مرة أخرى إلى المسرح، وقد تعانقا بحرارة المحبين، بينما جلس الشوا على مقعد صغير وأخرج الكمان من حقيبته، وأطلق أنغامه الرائعة، وعبد الوهاب يشدو بإنشودة الختام .

وبمجرد أن انتهت الفقرة، دعا الباشا ضيوفه، وقد تعدوا المئات الثلاثة، لتناول عشائهم.. وقد أغدق على ضيوفه بكل الصنوف والألوان التي تعكس كرمه الزائد، وعشقه لأهالي النجع.. بينما كان يترجل بين الطاولات ليتأكد بنفسه من حسن ضيافته، حتى استقر

علـى تلك الطاولة التـي يجلس حولها جرجس دميـان وعطوة أبو اليزيد، وتناول معهم الحديث معاتبًا برفق، وهو يرجوهم ألا يتكرر هـذا الموقف مـرة أخرى، وأن مطالبهم لن تتحقـق إلا إذا اصطفوا في فريق واحد.. فلن يطول الوقت أمام مشعل الفتنة، حتى إذا شعر بأنـه تخلص من معارضيه.. فيسـتدير مواجهًا من أيدوه.. وقد غرر بهم، وأسـرف فـي وعوده الكاذبـة لهم ... فالمسـتبد لا يغمض له جفن.. قبل أن يخلي الساحة أمامه لينفرد بسلطانه الزائف.

■ ■ ■

(٣)

كان بولس من أسرة فقيرة كحال أغلب المصريين في تلك الحقبة من الزمان، يقطن بيتًا صغيرًا من الطوب اللبِن في أطراف النجع، وقد عَرَش سقفه بالبوص الملتصق بالطمي، وبالكاد يكفي قوت يومه، وأحيانًا كثيرة لم يكن باستطاعته أن يكفي أسرته الصغيرة، فأعمال النجارة لا تستطيع أن تسد احتياجاته، وهو يعول أسرة من ثلاثة أبناء.. علاوة على أن نطفة لوافد جديد قد زُرعت في أحشاء زوجته، والتقى الباشا في اليوم التالي، تمامًا كما وعده طوسون، وفي خجل شديد طلب من الباشا أن يُعيِّنه في الدائرة اليوسفية، فقد كان يأمل أن يشتغل بالزراعة، وهو يرى الباشا يغدق على الفلاحين في دائرته، كأحسن ما يكون اهتمام صاحب العمل بعماله وفلاحيه.

لكن البرنس كانت له وجهة نظر أخرى، وكان يرى بولس من العمال المهرة، بعدما ورث عن أبيه وجده موروثًا من الخبرة في فنون النجارة، وكان يرى أن مطلبه في غير موضعه، وأن الأفضل أن يظل في مهنته.. ونظر بولس في موضع قدميه.. نظرة يأس



وهـو مفعم بخيبـة الأمل، وما لبـث البرنس إلا وقد قـرر أن يتحفه بالحـل الذي يحقق رغبته.. فقد وافق على تعيينه في الدائرة وبأجر مجـزٍ، لكنه طلـب منه أن يحتفظ بمهنته كنجـار.. وليس كمزارع.. كما سـمح له أيضًا بأن يعمل خارج الدائـرة في أوقات فراغه حتى يتمكن من رعاية أسرته على هوى رغبته الإيجابية.

وقَدَّر بولس هذه اللفتة الإنسـانية من الباشـا، لعلها تكسبه عونًا يسـتطيع به أن يتغلب على محن الحياة.. ومشـكلة بولس الحقيقية كانـت في ابنته الكبـرى.. بتول.. كانـت فتاة يانعـة، رائعة الجمال حقًّـا.. وجههـا مرتسـم بتقاطيـع الملائكـة.. وحلاوتهـا ملفتة في عذوبـة، تغلبت بهـا على حلاوة نسـاء النجع رغم أنهـا لـم تتجاوز الثامنة عشـر مـن عمرها.. وارتبطت الفتاة بحب جارف مع شـاب مسـيحي من طائفـة الأرمـن الكاثوليك.. كان يعمل في حسـابات الدائـرة اليوسـفية، وقـد تجاوزهـا فـي العمـر بمسـاحة كاملة من السـنين بلغت السنوات العشرة.. وجلبه البرنس من الإسكندرية.. فهـو مولـود بهـا.. ويحمل الجنسـية المصريـة.. مثله كمثـل باقي الأرمـن الذيـن هُجِّروا من أرضهـم.. وجاء الكثيـر منهم إلى مصر وبالتحديد.. إلى سـيدة الموانئ.. الإسكندرية. والتقاه البرنس في إحـدى زياراته هناك، وأعجب بذكائـه وطموحه، ودقته في تدوين الأرقام والحسـابات، وهو أمر أجـاد فيه الأرمن.. وتخصصوا فيه، حتى إن حكومات أمراء وسـلاطين مصـر المتعاقبة لـم تترك فرصة

إلا واستفادت من خلالها بخبرة وذكاء المصريين من الأصول الأرمينية.

والتقت بتول.. بفتاها آرام.. في فرح إحدى صديقاتها من بنات النجع، وكان اللقاء الأول.. بالعيون فقط.. ورغم أن كلمة واحدة لم تنطلق من أحدهما نحو الآخر، فقد كان همس العيون ..أبلغ لغة.. وهو يتفوه بعبارات من العشق.. لم تُنطق.. ولكنها رسمت نفسها على الملامح والتقاسيم.. وكل منهما يشعر بأنه التقى صدفة بنصفه الآخر في الكون، وبقدره المكتوب في هذه الحياة.. نعم هو هذا القدر الذي رتب اللقاء دون موعد.. ولسان حال آرام يحدث قلب المحب قائلًا: مستحيل أن تراها يا قلبي.. وتظل تائبًا عن حبها!!.

وفعلت الأيام فعلتها بالعاشقَيْن، وكثيرًا ما التقيا عند شجرة قديمة، غرزت جذور القدم على ضفاف النيل في مكان ينأى عن العيون.. وكان الأمر صعبًا، فعادات النجع وتقاليده لم تكن تسمح بذلك.. لكن الفتاة كانت تستغل مشاركتها في موسم الحصاد، وكعادة بنات النجع.. تعمل باليومية في مقابل قرش صاغ واحد.. فهي تريد في النهاية أن يكون لها دور في مساندة أبيها.. حتى لو كان ذلك بالقدر الضئيل، فالأهم عندها المحاولة أما النتائج فقد تركتها لله.. مُصرف ومدبر الأمور.. وكانت الشجرة القديمة على مقربة من أرض الحصاد، وفي وقت الذروة.. كانت الفتيات تنأى جانبًا تحت ظلال الأشجار حتى تخف وطأة الشمس، فيرجعن مرة

أخرى إلى سجيتهن، بينما بتول كانت تدلف مسرعة نحو الشجرة القديمة لتقابل حبيبها في لحظات معدودة.

كانت النظرات فيها هي اللغة السائدة، وقليل من الكلام المحفوف بالعفة.. فقد كان حبهما طاهرًا.. ولم تلوثه آفات الشهوة أو ضلالات الغرائز المريضة..

لكن المشكلة.. كانت قائمة، والحب بينهما بدا محكومًا عليه بأن يظل.. تحت الشجرة!! ولم يكن مكتوبًا له أن يُظلل بسقف ويحاط بجدران.. وصحيح أن الحب في قلبيهما لا تقيده أغلال الدنيا كلها.. لكن بدايته الحقيقية في أن يظللهما هذا السقف الواحد. فهو بمثابة الحب الخطأ في الزمن الصواب.. وكانت الكنيسة الأرثوذكسية ترفض زواج أبنائها من الكاثوليك، إلى حد اعتبار أن الكاثوليك فئة ضالة ولا يجوز التناول منها أو التصاهر معها، وبولس نفسه كان يعرف الحقيقة، ويدرك أن قلب ابنته الرقيقة معلق بفتى أحلام من غير مِلتها، وحين ذهب آرام ليحدثه في أمر زواجه من بتول، قامت الدنيا ولم تقعد، وانتفخت أوداج الرجل، واحمرت عيناه بغضب فائر، وأوسع من غلظته وهو يحدث الشاب العاشق وكأنه يصوب نحو قلبه السهام القاتلة، ويمزق آخر أوصال المحبة بسيف قاطع بتار، يُصفي دماء الحب في عروقها، ويعلن موتها بلا عودة.

والفتاة المفعمة بعذوبتها ونقائها الملائكي، كانت قد أحبت آرام لدرجة العشق المجنون، وتعاطفت مع حكايته وهو يعيش في

وطـن.. بعيدًا عـن أرض أجداده.. ورغم أنه مصـري ومولود على أرض مصـر، فقـد ظل يعيـش بها على أنه من ينتمـي لفئة من فئات الأقلية.. فهو مسـيحي يعيش في بلد ديانته الأساسية هي الإسلام، بل كان من الأرمن الكاثوليك أيضًا وقد طردوا من بلادهم، وأوسع فيهـم الأتراك العثمانيون القتل والإبـادة، ومن أنجده القدر منهم.. فر بآخر ما تبقى من عمره إلى بلاد الله، ومصر بطبيعتها وسماحتها كانت من البلاد التي وجد فيها الأرمن أمنًا وسكنًا.

وحكاية الأرمن لها جذور بعيدة، فقد عاشوا منذ القرن الحادي عشـر في ظل إمارات تركية متعاقبة، وبحلول القرن التاسـع عشـر أصبحت الدولة العثمانية أكثر تأخرًا من غيرها من الدول الأوروبية حتـى إنها لقبت بـ «رجل أوروبـا العجوز»، ومع نشـوب الحرب العالميـة الأولى تطلعت العديد من الشـعوب التـي كانت خاضعة لسـيطرة الدولة العثمانيـة عليها لنيل اسـتقلالها، وكان الأرمن من ضمن هذه الشـعوب الثائرة والمتطلعة لإنشـاء وطن قومي.. وفي عام ١٩١٥م قامت جيـوش الإمبراطورية الروسـية بالزحف نحو الدولـة العثمانية واحتلـت بعض المدن والقرى في جنوب شـرق تركيا، ثـم زحفت القوات الروسـية بقيادة الجنـرال جيورونزبوف نحـو بلدة راونـدوز تصحبها أربعة أفواج مـن المتطوعين الأرمن، وقد ساندت الوحدات الأرمينية، الجيش الروسي في هجومه على الدولة العثمانية.

ونتيجة لذلك، فقد قام السلطان عبد الحميد بتدشين أولى حملاته لمجازر الإبادة بحق الأرمن وغيرهم من المسيحيين الذين كانوا تحت حكم الدولة العثمانية، وفي عهده قُتل مئات الآلاف من الأرمن واليونانيين والآشوريين، وقام بإثارة القبائل الكردية لكي يهاجموا القرى المسيحية في كافة الأنحاء.

كان آرام يحكي بين الحين والآخر هذه المآسي ويتلوها على مسامع حبيبته تحت ظلال الشجرة القديمة في الطرف النائي من النجع، وكيف أن أباه قد قص عليه سقوط أبيه وأخوته ضحايا لمذابح الإبادة الجماعية على يد الأتراك.. غير ما أصاب الأب نفسه من فقدانه لزوجته وبنتيه، وأحيانًا كانت دموعه تفر على وجناته، كلما رسم في مخيلته سيناريو لمشاهد متوحشة من القتل والإبادة والاغتصاب التي تعرضت لها أسرته على يد الأتراك.

وانتحب آرام وهو يتذكر أباه وقد اغرورقت عيناه بالدموع، بينما يعيد على مسامع ولده المراهق في كل وقت تفاصيل الذبح والبطشٍ والإعدام، فقد أمر السلطان العثماني بالإبادة الجماعية قولًا وفعلًا، وبدا أنه قرر بالفعل بتر الأرمن من على وجه الأرض، وكان السلطان يخشى ثورة الأرمن، وانقلابهم على حكمه فقام بجمع المئات من أهم الشخصيَّات الأرمنية في إسطنبول وأعدمهم بالجملة في ساحات المدينة. ووقتها أمرت العوائل الأرمنية في الأناضول بترك ممتلكاتها، وقد حُرموا من المأكل والملبس، لينضموا إلى قوافل التهجير التي تكونت من مئات الآلاف من

النســاء والأطفــال في طــرق جبليــة وعــرة، يقطعــون طريقهم بين الوحوش الضارية في صحراء قاحلة جدباء لا زرع فيها ولا ماء.

وكان مــن نجــوا من أهــوال تلك الكارثــة، كلما مــروا أو عبروا المــدن خــلال رحلة بحثهم عن مــأوى، يروُّون نفــس الرواية، فقد قُتل أغلب الرجال في اليوم الأول من مسيرتهم، بعدها تم الاعتداء علــى النســاء والفتيات، وفي أبســط الأمور كن يُخطفــن، ويتناوب عليهــن الحــراس والجنــود اغتصابًــا بربريًّــا بشــعًا. وبســبب هــذه المذابــح هاجر الأرمن إلى العديد من دول العالم من بينها ســوريا ولبنان ومصر والعراق، بينما أفلت القادة الأتراك الذين أثموا بتلك المذابــح مــن أي عقــاب. وكانــت أرض مصــر هي المــأوى الذي حطــت عليهــا عائلــة آرام، أو على نحو دقيق الفتى نفســه ولــم يكن قــد تجاوز العاشــرة من عمره، وبرفقة أبيه، بينمــا قتلت أمه على يد العثمانيين، وخطفت أختيه، وكل ما تبادر إليه من أخبار عن شقيقته الكبــرى أن جنود هذا الجُرم قد ســلبوا روحها وهم يأكلون لحمها ويهتكون عذريتها، بينما فرت الشــقيقة الصغــرى قبل أن يطالوها، وانقطعت أخبارها للأبد.

■ ■ ■

وعلــى ما يبدو فإن مطلب بولس من الباشــا لم يكن فقط ما ناله مــن وظيفة في الدائرة اليوســفية، بــل كان كل مطمحه أن يترك آرام عملــه في الدائــرة، بل يترك النجع كله، وهو يــرى أن في ذلك حله

الوحيد ليقضي على هذا الداء الذي أصاب ابنته، أن يقطع دابر الفتى، وما بين ليلة وضحاها يختفي من النجع.. فربما يكون هذا هو المنفذ الوحيد من وجهة نظره، فابنته بتول قد فاح حبها وعشقها للفتى لدرجة شعر معها بولس بالفضيحة، وباتت كل الحيل ساقطة وفاشلة مع ابنته، فهي لم تتمكن مع ضغط أبيها وإلحاح أمها أن تنسى فتاها.. وقد تجمعت الخيارات كلها أمامها في خيار واحد، وهو الالتقاء مع حبيبها تحت سقف واحد، لكن الأمر تكشف كحلم يصعب تحقيقه، في أي وقت ومكان.. وأمام هذا المستحيل الذي فرض نفسه كالقدر الصامد في قراره، تدنت صحة الفتاة، وانهارت روحها، وما عاد الطعام يعرف طريقًا إلى جوفها.. إنها تعيش فقط على الماء.. قطرات من الماء تبلل بها الأم المكلومة بصعوبة شفاة ابنتها، وهي تعصر خِرقة نظيفة مُشربة بالماء فوق ثغرها، فالفتاة ترفض سُقيا الماء.. حتى صارت أشبه بحطام إنسان.. مومياء بشرية، كل ما يربطها بالحياة هو هذا الأمل في العيش مع من اختاره قلبها.. وسرى منها مسرى الدم في العروق.

ووهنت الفتاة، وبرزت عظامها من تحت جلد ذاب بلهيب الحب، وبدت كشبح إنسان لا يتحرك، ولا يقوى على توجيه أنامله نحو بوصلة مطالبه، فلبستها روح غريبة، وتدحرجت نفسها نحو الهوية دون رَوِية.. فظهرت كمن يعيش في عالم آخر، لا ترى فيه إلا حالها وحال الفتى الذي دغدغ مشاعرها بهواه المجنون.. فهي

لا تكلـم إلا نفسـها، وبلغة لا يفهمها السـامعون.. تشـكل كلماتها بحروف من التوهان وفتات الضعف، بينما يتسمر بصرها في اتجاه واحد دوما نحو ركن بسـقف حجرتها، وكأن خيال حبيبها يسـكن هذا الركن البعيد.

وجـن جنون أبيهـا، وهو يرى روح ابنته تتسـرب من هذا العالم بسـرعة الفراشـة التـي تحـوم حـول النـار، ثم مـا تلبس أن تسـقط محترقـة في جوفها، ولذلـك عاد من جديد متوخيًا حذره الشـديد وهو يرجو الباشـا أن يفصل آرام من العمل بالدائرة، بل يتوسـله أن يمحو وجوده من النجع برمته..

ولأول مرة يجد الباشا نفسه، كتلميذ ملتصق بخيبته وهو يجلس في قاعة الامتحان ولا يسـتطيع الإجابة عن أسـهل الأسئلة الملقاة أمامـه فـي ورقـة الامتحان. لقـد كان مطلب بولس أشـبه بالسـهل الممتنـع، فهـو يريد إجابة محـددة على مطلبه، ويرى أنه أمر يسـير على الباشا، يستطيع أن ينفذه بإشارة واحدة من أصبعه، لكن الباشا ما اعتاد أن يأخذ الأمر بأوزار أخرى، فلم يرَ من آرام إلا الإخلاص والتفاني في عمله، ولم يكن مقبولًا أن يطرد موظفه من عمله ويقطع حبـل رزقه.. لأمـر لا يتعلق بجنايـة يرتكبها في الدائرة اليوسـفية، ونظر الباشـا بإمعان وشـفقة إلى توسـلات بولس، وهـو يقطع بأن مطلبـه هو الفرصة الوحيدة السـانحة لكي تنجو ابنته بحياتها، وكل ما فعله الباشـا أنه أمر طوسـون بأن ينقل بتول إلى المستشفى فورًا،



وأن يتصل بالدكتور ألفونس سماحة ليتابع حالتها بنفسه، ثم أجاب بولس بأنه سيحاول أن يجد حلاً لهذه المشكلة المعقدة .

ولم تمر ساعة حتى كانت الفتاة ترقد على السرير الأبيض في مستشفى النجع، والدكتور ألفونس يفحص جسدها الضعيف بسماعته الطبية، ويلف حول ذراعها هذا الجهاز الذي يقيس به ضغط الدم، وبينما يترقب حركة الزئبق وهو يمر على مسطرة الجهاز المدرجة، كانت عيناه تعكس قلقًا بالغًا، ولسان حاله يُحدث من حوله بأن الفتاة بين حياة أو موت.

وألفونس سماحة طبيب ورع، ومستقيم.. وهو أيضًا مسيحي متشدد، غيرته على دينه لا تغلبها أي مشاعر أخرى في حياته، لكنه لم يكن على علم بالأسباب التي أحالت الفتاة إلى كوم من حطام، وبدأ على وجه من السرعة في محاولة إنقاذ الفتاة، فغرز في يديها الإبر الطبية، وعلق بخفة زجاجات من المحاليل المغذية التي أخذ ماؤها سبيله نحو عروقها، بينما أمر ممرضة القسم بإحضار بعض العقاقير والأدوية التي يرفع بها من كفاءة قلب الفتاة المشرف على التوقف، في حين أسرعت الممرضة بوضع قناع الأكسجين على وجهها، وجلس ألفونس بجوار بتول على مقعد خشبي صغير، وهو يتمتم بترانيم دينية، وآيات من الإنجيل، متوسلًا الرب في أن ينقذ هذه الفتاة البريئة، ومرت الساعة تلو الأخرى، والطبيب الحاذق يرفض أن يترك مريضته في هذه الحالة، بينما يشق الليل البهيم بظلامه على أرجاء النجع في سكون مخيف .

وفرضت علامات من الحيرة والترقب نفسها على مشاعر الطبيب، ومن حين لآخر كان يعطي تعليماته لمساعديه ليقوموا بتعديل الوصفة العلاجية حسب تطور الحالة، لكن ثمة غضب كان يتداخل مع مشاعر الترقب والحيرة.. وهو يسأل نفسه.. كيف وصلت الفتاة لاحتمال فقدان حياتها، وأين كان الأب والأسرة.. وحال ابنتهم يتدهور على مدى الأسابيع السالفة؟!. وانتفض الدكتور ألفونس من فوق مقعده فجأة، وخطى المسافة من مكانه حتى باب العنبر في رشاقة الفهد المؤْتور، قاصدًا بولس سمعان الذي كان قد خانته ساقيه فلم يقوَ على الصمود واقفًا، فانزوى جالسًا في ركن قريب من باب العنبر، وبمجرد أن لمح الدكتور ألفونس حتى قاوم ضعفه وانتصب واقفًا وهو يتسند على الجدران وقد امتلأت عيناه بذعر فائر، كأنه يتوقع أن يخبره الطبيب بوفاة ابنته .

ولم يتمالك ألفونس نفسه، وحالة من الغليان قد تملكته، فجذب بكلتا يديه بولس من قميصه وهو يحكم قبضته عليه، ويهزه بعنف مروع، ويتهمه بما آلت إليه ابنته، لكن دموع بولس المنحدرة كشلال متدفق، وهي تمتزج بنحيب أشبه بعويل النساء، جعلت الطبيب يتروى قليلًا، ليتفهم حديث بولس المتقطع وقد غرقت كلماته في أنفاسه المتلاحقة.. وانقلب عويله إلى صراخ، فتفَوَّه بكلمات يبرئ فيها نفسه من تلك الحالة التي صارت عليها ابنته .



وأمـر الدكتور ألفونس بمقعد يجلـس عليه بولس، وبدأ ينصت لروايتـه، وقد قص علـى الطبيب الموضوع من بدايتـه، بينما يأخذ الغضـب مسراه فـي نفس ألفونـس سـماحة، وهو المعـروف عنه تشـدده الدينـي، فتزداد انفعالاتـه كزبد البحـر، وهو ينطـق بعبارة واحـدة، ويكررها كلما انتقل بولس به إلـى فصل جديد في حكاية بتول وآرام:

دى مصيبة ... مصيبة يا بولس ..

وكلمـا أنصـت الدكتور ألفونـس إلى فصل جديـد، من فصول القصة، تبادر إلى نفسـه شـعور بأن القضية قضيته، وأن شبحًا للثأر يتنامـى في مخيلته.. فقد أخذ على عاتقـه أن يوقف آرام عند حده، وتبنى فكرة طرده من النجع مع أول ضوء لفجر اليوم الجديد .

والدكتـور ألفونس سـماحة.. رجل في الخمسـين مـن عمره.. وهو طبيب النجع الأشـهر، ووهـب حياته كلها لمرضاه، حتى فاته قطـار الزواج، لكنـه كان من أثرياء النجع، يقطن بيتًـا كبيرًا بحديقة واسـعة أشبه بالفيلا هذه الأيام.. بينما خصص جزءًا من هذا البيت كعيادة خاصة له، يسـتقبل فيها مرضاه بعد مواعيد عمله اليومية في المستشـفى، وقد جعل لها مدخل خاص على الطريق مباشرة، غير أن بيتـه هـذا كان مطمعًا للصـوص بحكم ثرائه الملحـوظ، علاوة علـى أنه يعيش في هـذا البيت الكبير بمفرده . وكانت حياة الطبيب الأعزب مقسـمة بين المستشـفى وعيادته الخاصة، وجزء كبير من اليـوم يقضيه في مطرانيـة النجع، فهو متدين بفطرتـه.. ولم تقتصر

علاقتـه بالكنيسـة على العبادة فقـط، بل كان لـه دور اجتماعي من خلال رعايته لكثير من الحالات الإنسـانية المترددة على الكنيسة، التي ينفق عليها من ماله... ويغدق عليها من عطفه.

غيـر أنه تناسـى كل ذلك أمـام فَوْرة الغضب التـي تملكته، ومع دبيب الخيط الأول من الفجر، دخل مكتبه بخطى ملتهبة، وسحب درج مكتبه وأخرج منه مسدسه الخاص، وعلق على كتفه كالوشاح هذا الحزام الذي يحمل جراب المسـدس، ثم ارتدى جاكت بدلته وانصرف غاضبًا، وقد بدا عليه أنه ينتوى أمرًا مُلحًا.

■ ■ ■

(٤)

اتخـذ آرام من كوخ صغيـر في أطراف النجع مـأوى له، وذلك المـكان الذي افترش فيـه كوخه متاخمًا لزراعـات الهوارة، وتبدو الأجـواء من حولـه متقطعـة الأوصال عـن باقي النجـع، فالمكان مهجـور بالفعـل، لكن الشـاب المكافح أراد أن يعيـش حياته على النحـو الذي أراده لهـا، فكان مبدؤه هو الاعتمـاد على ذاته، لذلك اعتذر بأسـلوب مهذب حين عرض عليه الباشـا أن يمنحه مسـكنًا بالدائرة اليوسفية، وفَضَّل أن يعيش في حدود إمكاناته، لذلك كفي طموحه وفاض هذا الكوخ الصغير المهجور في زمام الهوارة .

وكأى كـوخ كانـت جدرانه مصبوبة من الطوب اللبِن، وسـقفه مُعَـرش بأعواد البوص والحطب، بينما جعل له بابًا خشـبيًّا، أشـبه بأبـواب الزرائـب، وما كاد آرام يستيقظ من نومه في تلك السـاعة المبكـرة من الصبـاح، حتى روعته طرقات عنيفـة مدوية على باب الكـوخ الخشـبي، كأنها تعلن عن يـوم قيامة الشـاب الأعزل، ولم يمنـح الطـارق فرصة له حتى يعرف شـخصيته، بل أسـرع الدكتور

الفونس غاضبًا، وهو يكيل للباب بقبضات كفه الصارمة، بالإعلان عن نفسه صارخًا في صمت الفجر الهادئ:

- افتح الباب يا آرام أنا الدكتور ألفونس ..

واستجمع آرام قوته، وحاول أن يضمد تلك الفاجعة التي أصابته، فحولت قلبه إلى دُف، تقرع عليه النبضات المتلاحقة، فلم تكن له علاقة سابقة بالدكتور ألفونس، غير أن حضوره في هذا الوقت المبكر، وطرقاته المستفيضة في غضبها، قد أصابه بشيء من صدمة التفكير، وكل ما يعرفه عن الدكتور ألفونس أنه مدير المستشفى الكبير بالنجع، وسمع عن صرامة شخصيته وتشدده الديني فقط!.

واقترب آرام من الباب، ومد يده بحذر يرفع بها هذا المزلاج الذي يُغلق به الباب، وبمجرد أن أزاحه حتى دفع الدكتور ألفونس الباب ودخل مسرعًا نحو مركز الكوخ، بينما الشاب المستيقظ على فاجعته يتلعثم في حديثه من هول المفاجأة وهو يردد بقلق وخوف:

- خير.. خ.. خـ.. خير يا دكتور ألفونس؟!.

ينظر إليه ألفونس وهالات الشرر تتطاير من عينيه:

- مش خير أبدًا يا أرام.. (مستطردًا بغضب عارم) إنت مجرم.. وعار على النجع كله.. إنت لازم تسيب النجع حالًا.. وتطلع بره بالذوق بدل ما أستخدم معاك العنف .

أسـقط فـي يـد آرام وهو لا يـدرك ما الـذي يحـدث.. وما هي الجريمـة التي يتحدث عنها الدكتور ألفونس سـماحة.. فهو يعرف تمامًا أن الذي يقف أمامه هو طبيب النجع المشهور، وليس مأمور النجـع.. والأخيـر فقط هـو صاحب الحـق في توجيـه الاتهامات وفرض العقوبات بقوة القانون.. فابتلع ريقه وهو يحاول أن يُهدئ مـن روع محدثـه كي يتفهم ما يدور في ذهنه، بعدما تشـكك أن في الأمر سـوء فهم أو تقدير، فانسـحبت الكلمات بحذر على أطراف لسانه وهو يقول:

- أكيـد.. حضرتك غلطان يا دكتور.. جريمة إيه اللي بتتكلم عليها؟.

التفـت إليه الطبيب الغاضب وهو يقبـض بكلتا يديه على ياقته، جاذبًا إياه بعنف يمزجه تهديد وتوعد:

- البنـت البريئـة الطاهـرة.. اللـي ضحكت عليهـا ونصبت شـباكك حواليها، ووقعتها في غرامك، وإنت عارف إنك محرم عليها.. (مستمرًّا) بتول.. بين الحياة والموت، بعد ما اتخاصمت مع الحياة ورفضتها علشانك..

- أنـا فعـلًا بأحبهـا يا دكتـور.. بأحبهـا بصـدق وإخلاص.. وأتمنى تكون زوجتى .

يشتاط غضب الدكتور ألفونس.. مقاطعًا حديث آرام:



- اخرس يا جبان.. عايزها ترتكب الخطيئة باسم الحب.. عايزها تغضب الرب علشان جربوع زيك.. عايزها تضرب بتعاليم الكنيسة عرض الحائط.. وتخرج من مِلتها.. علشان تتجوز حضرتك وتعيش معاك في الحرام .
- إنت بتقول إيه يا دكتور؟!!.
- (مقاطعًا بحسم) اسمع يا ولد إنت.. هي ساعة زمن تلم فيها حاجتك وترحل عن النجع.. إنت مالاكش مكان بيننا.. (مهددًا) ماذا وإلا ..

يخرج آرام عن هدوئه الحذر.. والدماء تفور في عروقه.. بينما ينزع بقوة شبابه الفائر يد الطبيب الغاضب وقد قبضت على رقبته.. ويبتعد معترضًا على هذا التصرف الذي ارتآه خارجًا ، فلا الدكتور ألفونس هو أبوها، ولا هو من يملك سلطة تجعله يتحكم في مشاعر الناس، وهو ليس بالأب في مطرانية النجع الذي من حقه أن يدافع عن شعب كنيسته.. فمن أين جاء الدكتور ألفونس بهذه السطوة وهذا الحق في التدخل؟ هكذا واجه آرام تدخل طبيب النجع، وبطشه بمشاعره، وبدا متأثرًا لدرجة جعلت الدموع تفر من مقلتيه، لكنه يحاول التماسك وهو يوجه حديثه للدكتور ألفونس قائلًا:

- مش بإيدي يا دكتور.. ولا بإيدها.. ومش أنا اللي رتبت كل ده.. الرب وحده هو السبب في معرفتنا.. هو اللي جمعنا.. ومن يجمعه الرب لا يفرقه العبد ..

- (بغضب ثائر) إنت بتقول على الخطيئة.. من ترتيب الرب؟
- أنا كنت رايح المطرانية، وناوي أغير مِلتي علشان خاطر أتقدم لبتول وأتجوزها.. أنا مش ممكن أسيبها تروح مني ... بتول لو جرى لها حاجة.. أنا هأضيع..
- (بشدة مبالغ فيها) وتفتكر ممكن نثق فيك لما تغير عقيدتك علشان إنسان (مستطردًا بغضب) إنت شيطان.. ولازم تطلع بره النجع.. ودلوقتي حالًا ..
- آسف يا دكتور (وهو يفتح باب الكوخ في إشارة لطرد الدكتور ألفونس) ومن فضلك أنا لازم أروح لشغلي.. مع السلامة!!.

تعاقبت موجات الغضب في عقل وقلب الدكتور ألفونس، حتى فقد سيطرته على نفسه، وبدا من فورة غضبه أنه لا يستطيع أن يكبح جماح نفسه.. فتلاحقت عبارات الغضب من أطراف لسانه، وأوسع الشاب العاشق بألفاظ تدفع بكفره، ثم زادت ثورته، فأخرج مسدسه وهو يهدد آرام بقتله إذا لم يترك النجع في التو واللحظة، وبينما يصمد آرام غير عابئ بتهديدات الدكتور ألفونس، جذب الطبيب أجزاء مسدسه، وأدار مفتاح الأمان، ولم يعد سوى أن يضغط بسبابته على زناد المسدس لتنطلق رصاصة الموت في صدر آرام.. فاندفع الأخير قابضًا على معصم الطبيب وهو يطيح

بذراعـه لأعلـى، بينما انطلقت رصاصة في الهواء، فشـقت صمت هذه السـاعة المبكرة من الصبـاح، وحاول ألفونس أن يتغلب على قوة الشاب في جسد آرام، فهو يريد أن يخلق مسافة بينه وبين الفتى تتيح له بأن يعيد تصويب مسدسـه نحو قلبه. ودار صراع بينهما في جنبـات الكـوخ الصغيـر، حتى تمكـن آرام من نزع المسـدس من يد الطبيب، وتوالت طلقات متسـارعة أشـبه ما تكـون أنها منطلقة مـن بندقية.. بعدها صـرخ الدكتـور ألفونس متألمًـا، وكأنه يخرج آخـر أنفاسـه، كمن تعلن روحـه خروجها من جسـده، وهو يفارق الحياة!!.

■ ■ ■

(٥)

كان كـوخ آرام متاخمًا لزراعات الهوارة وأراضيهم، ولذلك لم تمـر دقائق معدودة حتى أحاط رجال الشـيخ عبد الرحيم الهواري الكوخ فوق خيولهم، بينما ضج المكان بصوت سيقان الخيل التي تزاحمت وتداخلت على نحو من حركتها الرشـيقة، ونزل من فوق فرسه عمار الهواري، وهو ابن الشيخ عبد الرحيم، وكبير حراسه.. وقائد رجاله، وهو بطبيعة الأمر مسئول عن حماية زراعات الهوارة وممتلكاتهـم، وقـد انزعج لأصـوات الرصاص المنطلـق، فاندفع نحـو المكان الآتـي منه الصـوت، ودلف عمار نحـو الكوخ ومعه بعـض مـن رجالـه الأشـداء، وقد توخـى الحـذر وهو يخطـو إلى بـاب الكوخ.. وكان الباب مفتوحًا، وبُقع من الدماء السـائل تلطخ أرض الكـوخ، بينما لا يوجد أثر لآرام صاحب الكوخ، أو الدكتور ألفونس.. في حين تناثرت محتويات الكوخ هنا وهناك.. وبدا كما لو أن صراعًا عنيفًا جرى في المكان في تلك اللحظات القليلة قبل أن يأتي عمار الهواري إلى هذا المكان .



ولـم يمـر الوقت طويـلًا.. حتـى وصل الشـيخ حماد الراسـي عمدة النجع، ومعه شـيخ الخفر وحشد من خفر النجع المدججين ببنادقهم، لكن الدهشـة كانت هي القاسـم المشـترك بين الجميع، فقـد اختفى آرام تمامًا من المكان، علاوة على أن أحدًا لم يشـاهد الدكتور ألفونس، وليس هناك من كشـف عـن نية طبيب النجع في المجـيء إلـى كوخ آرام.. فلم يعرف مخلوق فـي النجع هذه النية، غيـر أن ألفونـس أخذ طريقه إلى هـذا المكان النائـي في الأطراف البعيدة في ساعة مبكرة، فلم يلتقطه أو يراه أي إنسان .

وأبلغ الشـيخ حماد.. مأمور النجع بما شاهده ورآه.. والمأمور هو البكباشـي رفعت الضو، رجـل أربعيني.. يمتـاز بذكائه الحاد، وشخصيته الصلبة الجادة، وتكسو ملامحة هيبة تضفي عليه سطوة القائـد.. وتوجه المأمور ناحية الكوخ.. وسـجل بعينيه تلك الدماء المتناثـرة، وأركان الكوخ المبعثـرة.. وبينما يتفحص المكان بدقته المعتـادة.. لمح في أحد الأركان طلقة خرطوش لبندقية.. تبين من فحصهـا أنها من ذلك العيـار الذي تعبأ به البنـادق ذات الفوهتين، بينمـا التقـط أيضًا من جانب آخـر طلقة رصـاص لا تخرج إلا من مسـدس صغير.. وأعطى المأمور تعليماته بتحريز هذه الطلقات.. ووضع الشـمع الأحمر علـى باب الكوخ، وعين عليه حراسـة من أحد جنود المركز.. وعاد بصحبة الشـيخ حماد الراسـي إلى مكتبه في مركز بوليس نجع حمادي .

وبمجـرد أن وصـل المأمور إلى المركز.. بدأ في الاستماع إلى أقـوال عمـدة النجع، وشـهادته عن مـا رآه، وكان العمـدة قد التقى عمـار الهواري ورجاله بالكـوخ أول ما وصل إلى مـكان الطلقات التي شـقت صمت هذه الساعة المبكرة من الصباح.. وذكر العمدة لمأمـور النجع، أن عمار أخبره بأنه سـمع صوت الطلقات المدوية فأقـدم برجالـه نحو الكوخ الـذي وجده خاليًا، ولـم يلمح أحدًا في تلك المساحة التي تحيط المكان.. حتى آرام نفسه لم يكن موجودًا.

وأخذ البكباشي رفعت الضو رشفة من فنجان القهوة الذي اعتاد احتسـاءه فور وصوله لمكتبه كل صباح، وقد بدا عليه أنه اسـتغرق فـي تفكير عميق وهو ينصت لحديث الشـيخ حماد الراسـي، بينما يعبث بأنامله في وجنتيه متدبرًا الأمر، ثم سـرعان ما اسـتدعى أحد ضبـاط المركـز وأمره بالبحث عـن آرام في كل مـكان في النجع.. فـي حيـن أنـه قـرر أن يستدعي الدكتـور ألفونس ليسـأله عـن أية مصابين ربما يكونوا قد وصلوا للمستشـفى، فقد كانت آثار الدماء المترامية في جنبات الكوخ توحي بأن صراعًا قد نشـب وعلى أثره أصيب شـخص ما أو أكثر.. وهناك احتمـال أن يجد خيطًا يبدأ من المستشـفى المركـزي ... غير أن المأمور بنفسـه قـرر أن يعود إلى مـكان الجريمـة مرة أخـرى، فقد تنبه إلـى ضرورة معاينـة المنطقة المحيطة بالكوخ.. ربما يجد دليلًا يرشده إلى بداية الحقيقة.

■ ■ ■



وبدأت حالة بتول في التحسـن تدريجيًّـا.. وتفتحت عيناها في استقبال عالمهـا مرة أخـرى، تمامًا كما تتفتح الـوردة اليانعة وهي تستقبل ضوء الشـمس.. وبدأت الفتاة العذراء تتمتم بكلمات غير مفهومـة.. وهو تطبق بشـفتيها على بعض ملامـح الحروف لتنطق باسـم حبيبهـا آرام.. بينمـا يجلـس حولهـا أبواهـا وقـد ضاعفـت دموعهمـا من ذبـول روحيهمـا التي باتـت الليل كله معلقـة بحياة ابنتيهما وهي تصارع الموت.

ولـم يظهـر الدكتـور ألفونـس.. فقـد جـاء أحـد الأومباشـية ليسـتدعيه للمركز لمقابلة المأمور، فأخبره معاون المستشـفى بأن الدكتـور ألفونس عاد إلى منزله مـع أول خيط للفجر ولم يأتِ بعد إلى المستشـفى مرة أخرى.. فأسـرع الأومباشي إلى منزل الدكتور ألفونس، وأوسـع بابه طرقًا، لكنه لم يتلـقَّ أي رد.. حتى خرج إليه خفيـر المنـزل وأخبره بـأن الدكتـور لم يعد إلـى البيت منـذ الليلة الماضية، وكل ما يعرفه عنه أنه ذهب للمستشفى كعادته!!.

وعاد البكباشـي رفعت الضو إلى المركز بعد معاينته للمسـاحة المتاخمة لكوخ آرام.. وما عاد به من ملاحظات يفتح أبوابًا جديدة نحو الشـك.. فقد لمح آثار أقدام كثيفة للخيول.. تنحدر من اتجاه آخـر غير هذا الاتجاه الذي جاء منه عمـار الهواري ورجاله.. وهو نفـس المسـار الذي عـاد منـه أيضًا كما أخبـر بذلك الشـيخ حماد الراسـي.. وكانـت آثار أقـدام الخيول المكتشـفة خلـف الكوخ.. وليسـت في مواجهته.. وقد رسم البكباشي رفعت خطًّا يصل بينها

من نقطة لأخرى، حتى اتضح مسارها جليًّا ناحية الجبل المهجور في أطراف النجع.

وهذا الجبل بالفعل مهجور منذ سنوات طويلة، ولا حاجة لأحد لأن يصل إليه، فكل الطرق المؤدية إليه موحشة.. يسكنها قُطاع الطرق واللصوص، لذلك كان الجبل بمثابة المأوى الذي يختفي في مغاراته المجرمون والهاربون من العدالة واللصوص وقطاع الطرق . وفور عودة البكباشي رفعت لمكتبه أخطره الأومباشي بالمعلومات التي جمعها عن الدكتور ألفونس.. فهو لم يجده في المستشفى، وعندما ذهب إلى منزله لم يعثر عليه أيضًا، بل تطوع الأومباشي من قبل نفسه وبحث عنه في كل الأماكن التي يمكن أن يذهب إليها ولا أثر له مطلقًا.. وكأنه فص ملح ذائب..

وفي نفس الوقت كان الضابط المكلف بالبحث عن آرام قد أفاد بأنه أيضًا لم يعثر على آرام.. فقد ذهب إلى الدائرة اليوسفية، ووجده لم يحضر إلى عمله هذا الصباح.. بل إن أحدًا من زملائه لا يعرف عنه أي شيء.. وكانت دهشة الزملاء محل تقصي الضابط.. فقد أخبروه بأن آرام لم يعتد على التغيب عن عمله.. وهي المرة الأولى التي يفعل فيها ذلك.. حتى في الإجازات الأسبوعية والرسمية.. كان يحرص على المجيء إلى مقر الدائرة اليوسفية.. وحين كان البرنس يوسف باشا يسأله عن أسباب ذلك.. كان يبرر موقفه بأنه وحيد.. يعيش بمفرده.. وأن عائلته هي الدائرة اليوسفية.. وأفرادها هم عمالها وفلاحوها، وهو حين يقضي إجازته في الدائرة، فهو يقضيها بين عائلته .



وازداد الأمر تعقيدًا.. فثمة شيء مجهول أمام البكباشي رفعت الضو لم يصل إليه بعد، هو الذي أوصل الأمور إلى هذه العقدة التي إستحال عليه أن يصل لبداية خيط لها في هذا الوقت، ولم يعد أمامه سوى أن ينتظر تقرير البحث الجنائي.. ربما يرشده إلى شيء جديد.. فالمهم الآن أن يوالي البحث عن آرام.. والدكتور ألفونس.. لكن عقل رجل الأمن الماهر، لم يتوقف عن التدبر والاستغراق في التفكير.. وأخذت الأسئلة المتوالية تدور في عقله.. وكل سؤال يخطر بباله يدفعه لسؤال جديد، كتلك الحالة الناشئة ما بين الفعل ورد الفعل.. فما هي طبيعة الجريمة.. إن كانت هناك جريمة أصلًا؟ وما الدافع وراءها؟ وما علاقة آرام بها؟.. ولماذا كان كوخه مسرحًا لحدوثها؟ وما هي علاقة اختفاء الدكتور ألفونس بما حدث؟ وهل هناك خيط خفي يربط طبيب النجع الشهير.. بالموظف الأرمني البسيط في الدائرة اليوسفية؟ والأهم من ذلك هل هناك علاقة بين عمار الهواري.. وتلك الحادثة؟ وهل يجب أن يُسلم المأمور بتبرير عمار لوجوده في مكان الحادثة بأنه جاء مسرعًا ليتقصى مصدر الطلقات الصادرة في الساعات الأولى من الصباح؟ وما وضع تلك الآثار لأقدام الخيل المنحدرة من ناحية الجبل.. في هذا الموضوع برمته؟!!.

عشرات من الأسئلة كانت تدور في عقل البكباشي رفعت الضو... دون إجابات شافية!!.

■ ■ ■

(٦)

مـر يومـان كامـلان.. دون معلومة جديدة يتكشـف بهـا مأمور المركـز أي خيوط جديدة تقوده للحقيقة، فمازال الدكتور ألفونس مختفيًـا.. ولا يوجد أثر أيضًـا لآرام في النجع.. ربما نمى إلى علم المأمور فقط بعض من حكاية بتول وآرام.. وأن الفتاة العاشقة راقدة في المستشـفى الذي يديره الدكتور ألفونس بيـن الحياة والموت، علـى أثر هذا العشـق المعطل بينهما بسـبب اختـلاف عقائدهما.. غير أن بولس سمعان والد الفتاة كان قد ترك المستشفى قبل الفجر بسـاعة تقريبًـا، وأخبـر ممرضة القسـم بأنه عائـد لمنزله ليسـتبدل ملابسـه.. لكنه لم يعد إلا بعد شروق الشمس، وعرف المأمور أنه لم يذهب لبيته.. لذلك وضعه أيضًا في دائرة الشك..

وكان الشـك قـد أخذ موضع الجدية فـي تحليل رفعت الضو.. فبولـس سـمعان هو صاحـب المصلحة في فك هـذا الارتباط بين ابنته وآرام.. وكان يحاول بشتى الطرق أن يقطع هذه الأواصر التي تربط ابنته بفتى أحلامها.. وهو الذي ذهب إلى يوسف باشا ليطلب منه أن يطرد آرام من الدائرة اليوسفية.. بل من النجع كله.. وتخيل



المأمـور أن بولس قد ذهب إلى آرام فـي كوخه ليعاتبه ويطلب منه أن يتـرك ابنتـه في حالها وأن يقطـع علاقته بها فـورًا.. ويحتمل أن ينشب بينهما صراع.. وربما يكون بولس قد قتل آرام وأخفى جثته وعـاد فـي الصباح إلى المستشـفى ليظهـر بجوار ابنتـه ... لكن إذا صحـت الفكرة.. فأيـن جثة آرام.. وأين السـلاح الذي اسـتخدمه بولس ليتخلص من غريمه؟!!.

ولـم يدع مأمـور المركز الأمر يصول ويجول في عقله.. بل قرر أن يلقي القبض على بولس سـمعان، وأن يتحفظ عليه لاستجوابه لعلـه يصـل إلـى الحقيقـة.. لكـن المأمور لـم ينسَ حكايـة مصنع السـكر، وكيف أن يوسـف باشـا انزعج كثيرًا من تصرفه حين ألقى القبض على بعض عمـال المصنع دون مراجعته.. فما هو المتوقع حدوثـه لو أقـدم المأمور على تلـك الخطوة، وبولس سـمعان من عمالـه في الدائرة اليوسـفية نفسـها ..غيـر أن آرام أيضًـا يعمل في نفس الدائرة؟!

لذلك قرر المأمور أن يقابل الباشا.. وأن يعرض عليه الأمر .

وكالعـادة كان لقاء الباشـا بضيوفـه على قدر رفيـع من الرحب والسِّـعة، وأدرك البرنس السـبب الذي جاء من أجله رفعت الضو، فقد ترامت إلى مسـامعه أطراف الحكايـة كلها، لكن ذلك لم يمنع المأمور من أن يعيد الأمر برمته مرة أخرى على الباشا، وهو يستأذنه في أن يلقي القبض على بولس سـمعان، فارتسمت معالم الدهشة على وجه الباشا قائلًا:

- إنت بتستأذني يا جناب المأمور في تنفيذ القانون؟
- سموك.. كبير النجع.. ولازم نرجع لك في كل كبيرة وصغيرة .
- (بتواضع أبوي) لا.. لا يا رفعت.. إنت غلطان.. شوف شغلك زي ما بيمليه عليك القانون وضميرك .
- أنا قلت الواجب استأذن.. (مستطردًا) سعادتك خدت على خاطرك في موضوع مصنع السكر ..
- لا.. لا.. إنت فهمت غلط.. موضوع مصنع السكر مختلف، أنا حققت فيه بنفسي وعرفت إن العمال المقبوض عليهم.. مش جناة ولا حاجة.. لكن الحكاية التانية دي مختلفة.
- ما تنساش سعادتك إن آرام وبولس من عمال الدائرة اليوسفية .

اعتدل الباشا في جلسته، وابتسم ابتسامة صافية ثم تحدث:

- أنا عمري ما وقفت قدام القانون ... نفذ اللي إنت شايفه صح.. وما ترجعليش تاني يا جناب المأمور .

شعر البكباشي رفعت الضو بسعة صدر البرنس، فقد أعطاه الباشا الضوء الأخضر ليتصرف من وجهة نظر القانون، وربما أعطته تلك السماحة فرصة كان قد تحير في خلقها، فهو يريد أن يستجوب الباشا عن معلوماته حول الحادثة باعتبار أن قطبين



أساسيين من أقطابها من المشتغلين بالدائرة اليوسفية.. والتقط المأمور شهيقًا طويلًا، ثم تحدث بهدوء مشوب بالحذر:

- كرمك الزائد يا باشا، يخليني أطمع في إني أسأل حضرتك سؤالين عن الحادثة ..

نظر إليه الباشا بتمعن.. قائلًا:

- إيه يا رفعت.. ده استجواب رسمي؟!!.

- (بتردد وقلق) أبدًا يا باشا.. دول مجرد سؤالين.. وبشكل غير رسمي ..

- اتفضل.. تحت أمرك ..

- العفو يا جناب البرنس.. أنا كنت عايز أستفسر من حضرتك عن أي معلومات يمكن تساعدنا في الكشف عن الحقيقة.. يعني لو تعرف جنابك أي ظروف تعرض لها آرام في الفترة السابقة بحكم عمله في الدائرة اليوسفية...

- (مجيبًا بدقة) بحكم عمله في الدائرة.. لا.. هو كان موظف ملتزم.. وماهر ودقيق في عمله.. (متذكرًا) وما أعتقدش إنه تغيب عن عمله في يوم من الأيام (تمر برهة من الوقت يتدبر فيها أمرًا ما) ... لكن ..

- (مقاطعًا بشغف) لكن إيه يا باشا؟.

- بولـس كان حكى لـي عن حكاية آرام وبتـول بنته، وطلب منـي إني أطرد آرام مـن الدايرة.. وكمان مـن النجع كله.. لكن في الحقيقة رفضت بهدوء (مستطردًا) يا رفعت.. أنا متعـودش أظلم النـاس.. وبعدين ده موضوع شـخصي.. بعيد عن العمل .
- (بلهفـة) تمام يا باشـا.. تفتكر حضرتـك إن بولس ممكن يحاول أنه يعتدي على آرام .
- (بتدبر) بولس شـخص مسالـم ... ما أعتقدش.. لكن ده ما يمنعش إنك تحقق معاه بنفسك ..

اكتفى المأمور بسـؤالين فقـط.. كما وعد الباشـا.. فهو لا يريد أن يثقـل عليـه بكثير من الأسـئلة التي كانت ترد بخاطـره، وما زال في محاولته للبحث عن إجابات لها، واسـتأذن المأمور بلطف في الانصراف.. بينما لحقه الباشا قائلًا:

- لـو وصلـت لأي جديـد ابقـى طمنـي ... ولـو عنـدك أي استفسارات بيتي دايمًا مفتوح لك، لكن خللي في اعتبارك إنـي مسـافر كمـان يومين لرحلـة صيد فـي إفريقيـا، وما اعتقدش إني هارجع قبل شهرين .

وهو ينصرف.. بأدب وهدوء:

- تروح وترجع لنا بالسلامة يا باشا ..

■ ■ ■

لم يختفِ القلق لحظة في وجدان البرنس، رغم أنه لم يُظهر ذلك أمام رفعت الضو، وأمر طبيعي أن يشعر الباشا بهذا القلق، فأطراف القضية كلها تخصه فعلًا، فالدكتور ألفونس سماحة المختفي فجأة وبدون أسباب واضحة حتى الآن هو مدير المستشفى المركزي بالنجع، وهو المستشفى الذي أسرف الباشا في مساندته ودعمه خدمة للأهالي بعد أن حُرِموا وقتًا طويلًا من حقهم في العلاج والتداوي، وألفونس سماحة هو شريك في هذا الحلم مع الباشا، وهو الذي تحمل هذه الأمانة بتفويض من البرنس يوسف نفسه، لذلك فهو يعي تمامًا تلك الرسالة التي تبناها الأمير، وأعطى من وقته وعلمه وخبراته وأمانته حتى ينعم الفقراء بحقهم، علاوة على أنه طبيب النجع الأول ومن أصدقاء الباشا المقربين إليه. أما بولس سمعان.. فهو من عماله بالدائرة اليوسفية، وقد تبنى البرنس قضيته حين شكا إليه بولس من ضيق ذات اليد، وآرام أيضًا من المشتغلين بالدائرة، وقد تحمس له يوسف باشا وأتى به من الإسكندرية ليأتمنه على مال الدائرة وحساباتها، لذا كانت صدمة الباشا ثقيلة.. ووجد نفسه دون أن يشعر في دائرة الأحداث، وبدا أن الأمر برمته يخصه شخصيًّا .

وكان الأمير يعد عدته ليقوم برحلة الصيد السنوية في فصل الشتاء إلى أدغال إفريقيا، فهي عادة هَواها، واعتاد عليها منذ سنوات طويلة، لذلك أعد كل ما يمكن أن يساعده على رحلات الصيد التي يقوم بها، فقد استورد سيارات مخصصة ومجهزة من

فرنسا، تتحرك بمرونة فوق صخور الجبال، وعلى أرض الأدغال الوعرة.. وجمع أفضل الأنواع من شباك وبنادق الصيد والقنص، وأحدث وسائل التوجيه والتصويب، وبوصلات الاستدلال على الاتجاهات، غير هذا الفريق الذي كان يرافقه من أمهر الصيادين والحراس، والمتخصصين في إعداد الخيام وتجهيزها، والخبراء بالطرق وتفسير الخرائط.. وأهم ما أفاد به الباشا بلاده من هذه الرحلات، هذه الخرائط التي رسمها بمعاونة فريقه الجغرافي لتلك المناطق التي كان ينطلق فيها برحلاته، مما جعله يصدر أطلسًا جغرافيًّا يضم العديد من الخرائط الملونة المستجدة، وطبعه على نفقته الخاصة في أفضل المطابع الأوروبية.

وكان الأمير شديد الولع باصطياد الوحوش المفترسة، وقد سافر مرات عديدة في رحلات صيد طويلة إلى إفريقيا الجنوبية وبعض بلاد الهند وغيرها، كما احتفظ بالكثير من جلود فرائسه وبعض رءوسها المحنطة وكان يقتنيها بقصوره العديدة بالقاهرة والإسكندرية ونجع حمادي مع تماثيل من المرمر ومجموعة من اللوحات الفنية النادرة .

كما كان مغرمًا بأحداث التاريخ وجغرافية البلاد ومن هنا أنفق على ترجمة بعض الكتب الفرنسية التي اختارها فنقلت إلى العربية وطبع على حسابه منها موسوعة الوثائق التاريخية والجغرافية والتجارية عن إفريقيا الشرقية، من تأليف مسيو جيان وأيضًا أصدر المجموعة الكمالية في جغرافية مصر والقارة، وهي عبارة عن ثلاثة

عشر مجلدًا بالعربية والفرنسية وكذلك كتاب بالسفينة حول القارة الإفريقية، ورحلة سياحة في بلاد الهند والتبت الغربية وكشمير .

وكانـت وجهة الباشـا هذه المـرة إلى أوغندا حيـث منابع النيل عنـد بحيـرة فكتوريـا، ولأن الرحلة طويلـة وقد تسـتغرق وقتًا من الزمان، فقد فوَّض سـكرتيره الخاص طوسـون في إيجاد من يحل فـي وظيفة آرام حتى يتبين أمر اختفائـه والدواعي وراء ذلك، لكن شيئًا من هواجس الشك كانت تميل من وقت لآخر في عقل الأمير، وهـو يتدبـر أمر آرام ويفكر فـي وجهة اختفائـه، ودائمًا كانت تلك الهواجس ترسـو إلى ما يشبه اليقين بأن الشاب الأرمني ربما يكون قد عاد إلى الإسكندرية، تلك المدينة التي التقاه فيها الباشا، والتي كانـت محلـه الأصلي قبـل أن يرحل إلـى نجع حمـادي، ليفوضه الباشا في الإشـراف على حسابات الدائرة اليوسفية. وفكر يوسـف باشا في أن يلقي بهذه المعلومة الهامة إلى رفعت الضو، ربما تفيده فـي رحلة البحث عن خيـط يبدأ منه، لكنه آثـر أن ينتظر حتى يعود مـن رحلته الخارجية، فلم يمر على تلك الحادثة سـوى يوم واحد فقـط، وربما يظهر آرام فـي أي وقت، وعلى أي حـال، فقط طلب الأمير من طوسـون أن يخبر مأمور المركز باحتمال اختفاء آرام في الإسكندرية.. هذا إذا لم يظهر في خلال أسبوع واحد.

■■■

مرت الأيام.. باردة كالثلج، رغم سـخونة الأحداث واشتعالها، وزاد مـن فورانهـا اختفـاء الدكتـور ألفونس سـماحة، وشـخصية

هامـة في النجـع مثل مدير المستشـفى، يقلب اختفـاؤه دنيا النجع رأسًـا على عقب، وكان المأمور رفعـت الضو قد أمر بتفتيش منزل الدكتـور ألفونـس، ولـم يجد شـيئًا يثير الانتبـاه أو يقـدم دليلًا من بواعـث اختفائـه المريب، ولـم يتجاهل رفعت الضـو التحقيق مع خفيـر المنـزل، لكنه وجده رجـلًا مغلوبًا على أمـره، لا ناقة له ولا جمل، ولـم يقدم جديدًا في الأمر سوى إخطاره عن آخر مرة شاهد فيها الدكتور ألفونس مغادرًا منزله إلى المستشفى..

لكن الشيخ حماده الراسي كان قد أخبر المأمور أن شيخ الخفر ارتـأى عطـوة أبو اليزيد، وهو يحـوم حول منـزل الدكتور ألفونس فـي نفس يـوم اختفائـه، ولـم ينـس المأمـور ذلك الشـد والجذب الذي حدث بين عطوة العامل بمصنع السـكر ورفاقه وبين الدكتور ألفونس في بداية الحفل الذي أقامه يوسـف باشا في قصره وأحياه عبد الوهاب وسـامي الشوا، قبل أن يتدخل الباشا ويلطف الأجواء بينهما، فقـد حاول الدكتور ألفونس بتشـدده وغيرته المعروفة عنه أن يلوم عطوة بقسوة مبالغ فيها.. لموقفه مع إدارة المصنع الظالمة ضـد العمـال الأقبـاط، وكاد زبـد الفتنـة أن يفـور من جديـد لولا حسـم الأمير.. لكن البكباشـي رفعت الضو كان يسـأل نفسه كلما أثاره ذلك الموقف.. هل تسـتدعي تلك المشـادة الكلامية التي لـم تكتمل.. كي تجعل صدر عطوة أبو اليزيد يضيق بالدكتور ألفونس ويفكر في الانتقام منه؟!!.



على كل حال، دَوَّن المأمور اسم عطوة في قائمة المشتبه فيهم، ورسم بقلمه دائرة حول اسمه، فهو لا يريد أن يفقد مسلكًا واحدًا قد يقوده إلى طرف الخيط الذي يبحث عنه.

وفي واحدة من ليالي تلك الأيام المعدودة التي مرت على حادثة الكوخ، شعرت جميانة زوجة بولس بآلام الوضع، وبات أنها على مقربة من أن تضع مولودها ليلتقط أول نسمات الهواء في هذه الدنيا، واصطحبها بولس إلى المستشفى، وبالفعل كان صراخها المتلاحق هو إعلان واضح عن حالة الوضع التي ألمت بها.. رغم أنه يتبقى أكثر من شهر على الموعد الذي حدده لها أطباء المستشفى لتضع جنينها ...

ووضعت جميانة بالفعل مولودها الجديد.. وأطلق عليه بولس اسم دوماديوس، وهو اسم يوناني يعني هبة أو صدقة، وكان الأب متى هو الذي أشار عليه بهذا الاسم لمعناه الجميل، وتيمنًا بمن حملوا هذا الاسم من الرهبان والقساوسة الصالحين.

وكانت صدفة حقيقية أن يولد دوماديوس في عام ١٩٣٥، وهو نفس الرقم الذي دونت به حادثة الكوخ في ملفات النيابة!!.

لكن في نفس الليلة التي جاء فيها دوماديوس إلى الدنيا، كان رفعت الضو قد ألقى القبض على أبيه بولس، وهَول المفاجأة كان كفيلًا بأن يقتل فرحة الرجل بالقادم الجديد، فلفظت فرحته أنفاسها في مهدها ..!.

■■■

(٧)

كانـت إفريقيا في ذلك الوقت قِبلة مجهولة بالنسـبة لهذا العالـم الـذي يحتويهـا، ولـم تكن هناك من معلومات جغرافية يسـتخدمها الأمير يوسـف كمال في رحلاته بأعماقها، سـوى القليل من جهود علمـاء الجغرافيـا البريطانييـن وغيرهـم والتي ترجمها الباشـا على نفقتـه الخاصـة، بالإضافـة إلـى مجموعاتـه التـي أصدرهـا كنتاج لرحلاته السـابقة، والطريق إلى أوغندا شـاق ومحير، فهي لا تطل علـى بحـار، علاوة علـى أن الأمير لـم يلم بخبرة الترحـال في نهر النيل في تلـك الأعماق المتاخمة لمنابعه، لكـن الفريق الجغرافي الـذي أصطحبه، رسـم له خارطة للترحال، مرحلة منها باسـتخدام السيارات المجهزة عبر الصحراء، والتالية عبر النيل والبحر الأحمر إلـى جنـوب السـودان المتاخـم للحـدود مـع أوغنـدا، والمرحلة النهائيـة عبر السـيارات مرة أخرى من شـمال أوغنـدا وحتى منابع النيـل، فقد أخذت الرحلة وقتًا طويلًا في وجهتها نحو منابع النيل، وهـو المكان الـذي لم يطأه حاكم مصري عبـر التاريخ منذ عصور الفراعنـة، لذا كان اهتمام البرنس بتلك الرحلة غير مسـبوق، وكان يتعجـب مـن أن منابـع النيل، سـبب الحيـاة في مصر، لـم تلق هذا

الاهتمـام الواجـب من ملوك مصر وسـلاطينها.. لذلك عقد العزم فـور عودتـه أن يلقـى الملك فـؤاد الأول، وأن يحدثـه في ضرورة الاهتمـام بالعمق الإفريقي لمصر، وخاصـة منابع النيل عند بحيرة فيكتوريا .

وحيـن نـزل الأمير بالقرب مـن البحيرة، مرتديًـا ملابس الصيد الرياضيـة، وقـف منبهرًا على صخـرة تحف شـاطئ البحيرة، وهو يلقي بعنان بصره إلى هذا المشـهد البديع للطبيعة، ونهر النيل يولد من رحـم هذه البقعة، وآلاف الأشـجار والنباتات الخضراء تحيط البحيرة من كل جانب، لتعطي المشـهد تذكـرة انضمام إلى الجنة، سـواء رضينا أم لـم نرتض، فواقع الطبيعة خلاب، وسـحر عجيب يصدر من هذا المكان، باختلاط صوت حركة الماء، بصرير الرياح الرقيقـة، ورقص الأغصـان وتمايل سيقان النبـات الأخضر، هذا غيـر زقزقـة وهديل الطيـور المختلفة فـي ألوانها وأشـكالها وهي تنطلق فوق سـطح البحيرة، وتهبط على صفحة مائها قليلًا ثم تقلع بجناحيها من جديد في لمح البصر.. والشـيء المثير للدهشـة، أن هدوءًا مدويًّا يفرض إحساسه على الزائرين رغم كل هذه الأصوات الخلابة، لكنها كانت أشبه بمسكنات تسترخي معها النفس، وتعود لفطرتها الأولى قبل أن تلوثها ألاعيب البشر .

ووقـف البرنـس علـى الحافـة، واستنشـق عبيـرًا صافيًـا ملأ به صدره، بينما تتلألأ مقلتاه بلمعان الماس وهي تسجل هذه الطبيعة الخلابـة من حولها.. إنه مشـهد لن تنسـاه ذاكرته عبـر حياته، ولن

تذيبه أي أحداث أخرى تسجلها ذاكرة البرنس عبر السنوات القادمة من عمره.

وأمر يوسف باشا، بأن تنصب الخيام على بقعة مستوية من الأرض في مواجهة شاطئ البحيرة، وعلى الفور بدأ فريقه المنتقى بعناية في غرس أعمدة الخيام، ولم تمر سوى ساعات قليلة حتى استوى معسكر الصيد الصغير، في عدة خيام، تتوسطها خيمة كبيرة للباشا، بينما أوقد الرجال المشاعل على أطراف المعسكر وفي طرقاته القصيرة، وأخذ الحراس أماكنهم وهم يحملون بنادقهم، فالمكان لا يخلو من متاخمته لغابات تنطلق فيها الوحوش الكاسرة .

ومتعة الصيد في الغابات، لا يمكن وصفها.. فهي تجمع بين الإثارة والترقب.. والتخطيط الحذر، والتريض الفطري للإنسان حين يعدو تلقائيًّا، وينبطح، ويتخفى بين الأشجار، ويتسلق جذوعها، ويشد الحبال حول الأوتاد، ويفرد الشباك، ويطارد من فوق الخيول، وغير ذلك من متع الصيد وفنونه، وكل ذلك بالطبع كان يجيده الأمير وفريقه المصاحب، ويجد فيه يوسف باشا مصالحة مع الطبيعة، وتجديد لبشرية الإنسان التي تكاد أن تزول كلما انخرط في آتون المدنية الحديثة.

ومع مشارف صُبح جديد كان الباشا يستعد لرحلة صيد جديدة، لكنه لم ينسَ أن يوجه مصطحبيه من المهندسين الجغرافيين لأن يبدءوا عملهم في رسم خرائط جديدة لمنابع النيل، وأن يلتقطوا



الصور الأرشيفية، ويرفعوا قياساتهم واتجاهاتهم، فقد عزم على إصدار أطلس جديد يضم مجموعة مستحدثة من الخرائط عن منابع النيل، وانطلق فريق الصيد نحو الأدغال فوق تلك السيارات المجهزة التي نقلها الأمير خصيصًا لموقع الرحلة، وكانت تشق طريقها للغابات، وقد بدأت معالمها في الظهور بتلك الطيور التي تجوب السماء في أسراب مجتمعة، غير أن الأمير التقط بنظارته المعظمة نسرًا جارحًا يقطع السماء فوقه في مسار دائري يقترب به رويدًا.. رويدًا نحو الأرض، وفهم الأمير المتمرس أن النسر يحوم حول فريسة جديدة ليلتقطها غانمًا، وأنه يتحين الفرصة ليهبط منقضًا فوقها كعادته في الصيد والقنص، ولذلك أمر مرافقيه أن يتوجهوا بقافلتهم نحو مركز تلك الدائرة التي يحوم حولها النسر الجارح .

وكانت قطعان من الأبقار الوحشية والغزلان تعدوا قاطعة أشواط الأرض تحت سيقانها بسرعة عجيبة، وليس من عادة تلك القطعان أن تنطلق في جماعات إلا إذا كان هناك خطر يهددها، ولذلك استشعر الأمير أن القافلة ربما تكون مقدمة على معركة مع وحوش ضارية تطارد تلك القطعان، وتيقظ شعور الصياد الماهر في عقله، ونبه مرافقيه إلى ضرورة الاستعداد والانتباه، وبينما تخرج القافلة من قلب غابة شجرية إلى مساحة شاسعة من العراء، حتى صدق حدث الأمير، فقد التقى فعلًا في مواجهته أسد.. في لحظات توحشه وغضبه العارم، وتعاونه لبؤته في مطاردة غزال

شارد عن القطيع يطير فوق الأرض، وملك الغابة يحاول أن يسد عليه طرق الفرار كي تلحق به اللبؤة، فتنقض عليه وتقتنصه فريسة لسيدها ولها ولصغارها من الأشبال، وخرجت القافلة فجأة من الغابة الشجرية في تلك المساحة الفاصلة بين الأسد المتحفز وفريسته التي تلاحقها أنثاه الغائرة، وكان الموقف صعبًا، فقد تسمر الأسد فجأة ملتصقًا بالأرض التي تحمله من جهة اليسار، بينما توقفت الأنثى عن مطاردة فريستها، والتفتت نحو القافلة من يمينها، وصار الأمير ومرافقيه بين فكي الرحى من الجهتين، فأشار إلى معاونيه بعدم التوقف، فقد كانت معظم السيارات مكشوفة، ولا يضمن رد الفعل المنتظر من تلك الوحوش الكاسرة، وإن كان على يقين بأن ملك الغابة وأنثاه بتوقفهم المريب عن مطاردة الغزال الشارد، قد وجدوا في تلك القافلة ما يعوضهم عن فريستهم، وتوقع الأمير أن تهاجم تلك الوحوش القافلة .

وما توقعه الأمير.. حدث فعلًا، وبدون تردد، قفز الأسد مارقًا نحو القافلة، وانقضت لبؤته عليها من الجهة الأخرى، فأسرع أحد الصيادين بإطلاق دفعات من طلقات بندقيته نحو السماء، لكن الأمر لم يردع الوحشين الكاسرين، فأشار الأمير إلى الصيادين بسرعة الانطلاق، وبالفعل أخذت السيارات تناور هذا الهجوم المباغت، لكن طبيعة الأرض الوعرة حالت دون الهروب السريع، وبدا الوحشان قاب قوسين أو أدنى من القفز فوق السيارات التي تحمل الصيادين، وهم أحدهم بأن يصوب طلقاته نحو الوحشين،



فأشار الأمير بالتروي قليلًا، في نفس الوقت الذي توجه فيه الأسد وزوجته نحو سيارة الأمير، وكانت أشبه بلقمة سائغة لهما، فهي سيارة مكشوفة، لا يستقلها سوى الأمير وسائق مدرب على المناورة والقيادة في الأدغال، وبينما تقطع السيارة المسافات بالسرعة السانحة، اقتربت اللبؤة من مؤخرتها، وباتت على أهبة القفز فوق السيارة، وبالفعل طارت اللبؤة بسيقانها الأمامية لتستقبل بهما مؤخرة السيارة، فما كان من الأمير إلا أن صوب فوهة بندقيته بين عينيها في مركز جبهتها، لكن فورتها لم تتوقف، فعاجلها بوابل من الطلقات على رأسها حتى سقطت.. فاقدة الحياة ... بينما ألقى الصيادون بشباكهم القوية من فوق سطح سيارتهم على الأسد الهائج، فكبحوا جماحه، واشتعل غضبه وهو يحاول أن يتخلص من قيده دون جدوى.

وتنفس الأمير الصعداء، وأشار لسائقه ليتوقف، وهو يربت على كتفه مثنيًا على حسن مناورته، وهبط الباشا نحو الأسد الذي زادت ثورته وغضبه بقيده في قلب الشباك، وعلا زئيره ليملأ الأرجاء بغضبة ملك حقيقي.. بينما ترقد جثة أنثاه على مقربة من سجنه..

وأشار الباشا لطبيب بيطري من أعضاء فريقه، وأمره بأن يضع الأسد الثائر في قفص حديدي كبير، فقد أراد أن يعود به إلى مصر، ويهديه لحديقة الحيوان، وفي نفس الوقت، بدأ الصيادون في حمل جثة اللبؤة، لتحنيطها والاحتفاظ بها.. وعلى التو أخرج الطبيب البيطري بندقية صغيرة تحمل فوهتها سهمًا معبأ بمخدر،

وصوب البندقية في اتجاه عنق الأسد، وبمجرد أن استقر السهم في رقبته حتى بدأ يخور.. وتحول زئيره إلى خِوار، وبدا مقاومًا، فلاحقه الطبيب بسهم آخر، حتى هوى الملك ساقطًا دون حراك.

■ ■ ■

حمل الصيادون الأسد الغارق في ثباته إلى ذلك القفص الحديدي المتين وأغلقوا عليه بالمزالج والأقفال المؤمَّنة، وكانت هذه المغانم كفيلة بأن ينهي الأمير يومه ويقرر العودة إلى معسكر الصيد المتاخم لبحيرة فيكتوريا، فمن اليوم الأول في رحلته.. اعتقل ملك الغابة بشحمه ولحمه، فما أروعها من هدية يعود بها من رحلة الصيد.. والأعجب أن هذا الصيد الثمين حمل أيضًا الرقم ١٩٣٥ .. من مجموع الفرائس التي أوقعها الأمير خلال رحلات صيده المتعددة داخل مصر أو خارجها.. فمنذ عقده الثاني وهو مُتَوق بالصيد ورحلاته، وعلى مدى أكثر من عشرين عامًا أوقع الكثير من الطيور والوحوش والحيوانات البرية والزواحف وغيرها في شباك صيده، وكان قد خصص سجلًا لرحلاته يدون به كل فريسة يصطادها، ويلحق بها معلومات عن تاريخ رحلة الصيد ومكانها ووقتها، ومن شاركوه من فريقه، وعن موطنها ونوعها، وغير ذلك من المعلومات الدقيقة ... وحين جاء دور الأسد المأسور في قفصه.. وجد أن تسلسله في السجل يحمل الرقم ١٩٣٥، وتنبه الباشا إلى هذه المفارقة المدهشة، فهذا الرقم.. هو نفس السنة الحالية، وربما وجد الأمير في هذه المصادفة بشرى..



ألقت بصدره نوعًا من الارتياح، وأخذ يتندر بذلك في جلساته كل يوم بمعسكر الصيد، حين يعد مرافقيه الأمسيات كل ليلة تحوطها المشاعل، ويتوسط جلستهم موقد من الأخشاب يحمل فوقه غالبًا شواءً من الغزلان أو الجديان.. حصيلة صيد اليوم.. بينما يجمع الباشا فريقه كل يوم في تلك الجلسة.. يتسامرون ويأكلون، ويخططون لليوم التالي من رحلة الصيد المثيرة .

وكان الأمير يستعين في رحلات الصيد برجال من البلاد التي يتوجه إليها، ولذلك لم يكن مستغربًا أن يضم فريقه الكثير من أمهر الصيادين من أبناء أوغندا نفسها.. ويوسف باشا بطبيعته كان عاشقًا للأفارقة ... ودودًا معهم.. فهو يعتبر أنهم امتداد لشعب مصر، وأن شعب مصر امتداد لهم، فدماؤهم الجارية في عروقهم.. هي نفس الدماء التي تجري في عروق المصريين، منبعها واحد وأصلها واحد، وهو مياه النهر العظيم.. لذلك كانت تلك الأمسيات تلقى ضيوفًا من أبناء البلد، وكان الباشا من كثرة رحلاته في إفريقيا يجيد التحدث باللغات الإفريقية المحلية، ويتمنى لو أن السلطان في مصر يتنبه لهذه الثروة المكتنزة في العمق من جنوب مصر.. لكن للأسف كان العزوف وقحًا.. وبات مقصودًا في كثير من الأحوال.

وأبونجا.. هو رجل أوغندي عاشق لمصر.. كان من هؤلاء الذين استعان بهم الأمير كدليل يرشدهم إلى الطرق في الأدغال والغابات.. وهو زنجي.. فارع القامة.. أكرت الرأس.. تحمل مقلتاه حباب من الكرز اللامع، دمث الخلق.. كأبعد ما يكون الأمر

فـي مثاليـة الأخلاق، حتـى ليبدو لمـن يحدثه.. أنه يحـدث رجلًا صوفيًّا.. مسـرفًا في الطاعة.. رغم أنه لم يكن مسـلمًا.. ولا علاقة لـه بالصوفية.. بل هو مسـيحي.. وقلبه متعلق بكل ما هو مصري.. رغم أنه في ذلك الزمان لم يكن من اليسير تداول المعلومات.. أو معرفـة الأخبـار عن هذا القطر السـاكن في رأس القارة السـمراء.. لكـن أبونجـا.. يتحيـن الفـرص كلما سـاعدته الأقدار ليسـتقي ما يريـد أن يسـتقيه عن مصر.. ولهـذا طلب من الباشـا أن يحدثه عن الأهرامـات.. وكان يسـأله عن معجزة بنائهـا.. وكيف نقل القدماء المصريـون أحجارهـا مـن جنـوب مصر إلـى حيث المنطقـة التي شـيدت بها في الشـمال.. وكيـف اسـتطاع العمـال المصريون أن يشـيدوا هذه المعجـزة التي تدهش العالم كل يوم؟.. وكان الباشـا يسـعد بأسئلة أبونجا، ويرد عليها باسـتفاضة.. بل أحيانًا يزيد على ما أراد أبونجا أن يعرفه.. فالحديث عن مصر عشق لهما معًا .

وكحـال كل الأفارقـة في ذلـك الوقت.. كان الفقـر هو العلامة المميزة لحياتهم، فقر شـديد، تسـتحيل معه الحيـاة، لكنهم تحدوا هـذا المارد القاتـل وتمكنوا مـن الحياة في ظـروف صعبة، ورغم أنهـم ظلـوا مطمعًـا للقوى الاسـتعمارية على مـر التاريـخ، والتي نظـرت إلى بلادهم على أنها سـلة غذائهم وثرواتهـم، فقد حاولوا التعايش، لينجوا بجنسهم الأسود الذي اضطهدته عنصرية الغرب.

وأحيانًـا.. كان أبونجا يراقب الأمير.. خلسـة دون أن يراه، وهو يؤدي صلواته الخمسة في معسكر الصيد كل يوم.. أو أثناء رحلات



الصيد.. حيث يوقف الأمير الرحلة كلما حان وقت الصلاة.. فيرمقه أبونجا بنظرات إعجاب، وهو لا يدرك بالتفصيل ما الذي يقوم به الأمير.. فهو يصمت واقفًا وقد بسط كفيه على بطنه، ثم يركع، ويقوم، ليهبط ساجدًا على الأرض متمتمًا بكلمات لا تكاد أن تكون مسموعة، ورغم أن الرجل الإفريقي لم يتبين حقيقة ما يقوم به الأمير، إلا أنه أدرك أنه يؤدي صلاة للرب.. وكثيرًا ما كان أبونجا يستفيض في التركيز مع آداء الأمير في صلاته، فيجد نفسه دون أن يدري يرسم بيديه علامة الصليب على صدره، في جهاتها الأربعة، وهو يدرج كلمات من الدعاء والترانيم على لسانه.. وكأنه يصلي وراء الأمير!.

لم يكن هذا بعيدًا عن حقيقة الإنسان، فهو بفطرته يدرك أن للكون خالقًا ..وأن المتعقلين من البشر يلتقون دائمًا في نقطة واحدة.. وهي انتماؤهم لهذا الإله العظيم الذي خلقهم، وإخلاصهم في عبوديته والتسليم له .

وبينما كان أبونجا يجلس متربعًا على الأرض والأمير يستفيض في الإجابة عن أسئلته عن مصر، كان ضوء المشاعل يعكس نفسه على بشرة الرجل السمراء فيكسبها لمعة، تضفي لوجهه بريقًا، يتبين للناظر أنه إطلالة الحديث عن مصر على تقاسيم هذا الوجه.. فيبدو مشرقًا، رغم أن الليل البهيم في ظلمته العميقة.. وفي قلب هذه الثرثرة الجميلة.. كانت خطوات مسرعة تطرق بقوة على أديم الأرض وتقترب شيئًا فشيئًا نحو تلك الجلسة التي

تجمع الباشـا بأبونجا، وشـهقات متلاحقة في صدر مراهق صغير، تتقاطع مع خطاه كأنها أنغام موسيقى تصويرية توثق لحدث مثير.. وإذا بالمراهق فجأة يقف بشـحمه ولحمه أمام الباشا، وقد بدا عليه آثـار الذعر والتوتر، فانتفض أبونجا واقفًا فـي تلهف، وفهم الأمير أن هـذا المراهق هو ابن أبونجا.. وبصعوبة بالغة من كلمات كانت تخرج من ثغره مغلفة بأنفاس متسـارعة.. أدرك يوسـف باشـا، أن الفتى يخطر أبيه بأن أمه في حال يرثى له، وأنها بين حياة أو موت.. ولا يعـرف هـو وأخوتـه كيف يتصرفـون . ولم ينتظـر أبونجا حتى يكمل ابنه حديثه، بل أطلق لسيقانه العنان، بينما يلحقه ابنه الصغير كظله، ولا شيء غير القلق والتوتر يسيطران على المشهد!!.

■ ■ ■

أسـقط في يد الباشـا، فهو لا يعرف كيف يتصـرف.. لكنه أيقن أن أمـرًا خطيـرًا يلـم بزوجـة أبونجا، ولذا طلـب من مديـر القافلة أن يسـتدعي الطبيب المرافـق، وأن يرافقه الاثنـان إلى حيث منزل أبونجا في ضاحية قريبة من البحيرة.. وبالفعل أعد السـائق سـيارة الباشـا على وجه السـرعة، وما هي إلا لحظات حتـى كان الطبيب يسـرع نحو السـيارة حامـلًا حقيبته وبهـا كل ما يحتاجـه من لوازم الإسعاف .

وشـقت السـيارة طريقها في تحد مع الزمـن ووعورة الأرض.. وكلمـا أبطأ السـائق قليلًا ليعبـر منعطفًا أو يتجاوز منحـدرًا.. أمره

الباشـا أن يسـرع، فقد رسـم هذا الذعر على ملامح الفتى الصغير، أمارات توحي بالفعل بأن أمه بين الحياة والموت.. وفي لحظات.. كانـت السـيارة تتوقـف أمام بـاب كوخ متوسـط.. مغطى بسـقف هرمي.. وطرق الباشـا باب الكوخ بطرقات شـديدة وقلِقة، والتقى أبونجا أمامـه فجأة.. وهذا الرجل الصلد يبكـي كالطفل الصغير.. التائه.. وحاول الأمير أن يتفهم الأمر.. لكن نحيب أبونجا لم يترك له الفرصة حتى يتبين الحقيقة، فدلف الباشـا مسـرعًا نحو الداخل وطبيبـه يرافقـه كظلـه.. حتـى لاحـت لهما مـن فتحة بـاب إحدى حجرات الكوخ.. سيدة ثلاثينية.. ملقاة على الفراش وهي تصارع الموت..

وطبيعـي أن ينهار أبونجا بهذا الشـكل.. فهو يدرك أنه لا فرصة للعـلاج والتداوي في بلادهم المحرومـة.. وأن ثمة بعض الأطباء مـن المنتمين للاحتـلال البريطاني يحتكرون مهنـة الطب في تلك البلاد التعيسـة.. وأنهم قد استغلوا ندرتهم، فبالغوا في أتعابهم إلى الحـد الذي كان الناس فيه يفقدون حياتهـم، لأنهم لم يتمكنوا من توفير تلك الأتعاب ... لذلك لاح لأبونجا عندما وجدها على تلك الحالـة من المرض العضال، أنه قد فقد زوجته.. فهي بطبيعة الأمر تحتـاج إلـى الطبيب.. وهو فقير معدم.. لا يملـك هذا المال الذي سـيعطيه للطبيـب، لذلـك فضل أن يسـتقبل مصير النهايـة لزوجته بالبكاء والانهيار .

وبمجرد أن فحص الطبيب زوجة أبونجا.. حتى تبين له من فرط حرارة جسدها المشتعلة، أنها في حالة عدوى.. وأن خفقات قلبها تتلاحق باضطراب مميت.. لذلك أشار للجميع فورًا بإخلاء الحجرة.. وأخرج من حقيبته كمامة ثبتها فوق أنفه وفمه، ووثقها برباط خلف أذنيه.. وكانت كل الأعراض التي تعرف عليها الطبيب.. تشير إلى أن زوجة أبونجا أصيبت بالملاريا، وهو مرض معد.. وغالبًا ما كان يفقد المصابون به حياتهم.. خاصة في تلك البلاد الفقيرة التي لا تتوفر فيها سبل العلاج بيسر .

وكان الطبيب.. قد قام بتطعيم الباشا وفريق القافلة، بالطعم الواقي من الملاريا، وسرعان ما بدأ في إسعاف الأم الشابة، فحقنها بمضادات الملاريا، وغرس في ذراعيها المحاليل المغذية، بالإضافة إلى مخفضات الحرارة.. والأمير يراقب الأمر من خارج الحجرة، بينما ارتكن أبونجا إلى حائط جانبي بالكوخ، وهو يحتضن أربعة من أولاده وبناته الصغار، أكبرهم هو ذلك المراهق الذي ذهب ليستدعيه من معسكر الصيد، والذي لم يتجاوز الرابعة عشر من عمره .

وكان المشهد مهيبًا.. يحطم كل أواصر الصبر والرجاء في نفس الإنسان.. ورمق الأمير أبونجا وهو يظلل على أولاده ويلقفهم في صدره.. كالقطة التي تحمي صغارها.. وتتوعد من يقترب منهم.. لكن لسان حال الأمير.. ينطق.. كما لو أراد أن يقول لأبونجا ..هل ستحميهم من الموت الذي ينتظر أن يحرم هؤلاء الغلابة من أمهم



الشـابة.. فيعتصر قلب الأمير الإنسان.. وتتساقط دموعه بغزاره لم يعتـد عليهـا من قبل.. وهي ترسـم مـن فرط سـخونتها مجرى من الحـزن على وجناته.. فـي نفس اللحظة التي تتقابـل فيها عيناه مع عينـي الطبيب المختبئـة خلف نظارته الطبية، فيلتقط الباشـا منهما إشـارات باليأس، بينما أبونجا يرسـم الصليب علـى صدره مرات متتالية متوسـلًا الرب، رامقًا الباشا الحزين.. فيهم أبونجا بالبحث عن سـجادة صغيرة.. يفرشـها فـي زاوية من الأرض.. وهو يشـير للباشا أن يصلي ... يصلي من أجل زوجته!.

أبونجـا.. يصلـي.. مـن أجـل زوجتـه.. ويرسـم الصليب على صدره..

ويوسف كمال الإنسان.. يسجد لله.. من أجل زوجة أبونجا...

كل يصلـي على ليـلاه!!.. على دينـه.. لكن اللـه واحد.. وكل البشر عباده.

لـم يمر هـذا الموقـف.. مرور الكـرام في نفس وعقـل الأمير.. لقـد تقابـل مـع الموت بشـخصه وحقيقته هـذا الصبـاح حين كان الوحش الكاسـر على مسـافة الثانيـة الواحدة ليقضـي عليه وينهي حياته، لكنه لم يشـعر وقتها بإحسـاس الموت.. ولو شعر به لحظة واحـدة، لما اسـتطاع أن يصمـد مصوبًا طلقاته فـي رأس قاتله قبل أن يفتـك بـه ... لكنـه في هـذه اللحظـة يرى المـوت أمـام عينيه، والحياة تتسـرب بسرعة من جسد تلك الأم الشابة.. فسوف ترحل

زوجتك يا أبونجا.. شريكة حياتك.. وستترك لك الأولاد والبنات الأربعة.. ومعهم الفقر ضيفًا رذيلًا على حياتكم ..هكذا كان يتحدث الأمير مع نفسه.. وصحيح أن الفقر لن يكون ضيفًا جديدًا على أبونجا بعد رحيل زوجته، لكنها على أي حال كانت تضفي لحياته أسبابًا للصبر.. كانت بحبها وحنانها تخفف وطأة الحياة على شريكها.. تتحمل معه أنات الفقر والمرض.. ووطأة الحياة الصعبة بين الأدغال، وأقرب الجيران إلى كوخهم الصغير المتاخم للبحيرة.. هي الوحوش الضارية.. والكواسر المفترسة.. فيكفي سماع صوتها فقط.. في قلب الليل.. ليدب الخوف في القلوب ... ووقتها فقط وفي تلك اللحظات لم يكن هناك حضن يستوعب الزوج والأولاد.. سوى حضن الأم.. كانوا جميعهم يدفنون في لحظات الذعر رءوسهم في حضن هذه الزوجة الشابة.. وكان شعورًا غريبًا بالاطمئنان يسري في أوصالهم بمجرد أن تستكين رءوسهم على وسادة حنانها ..

ارتأى الأمير.. هذا المشهد بتفاصيله.. وهو يسجد سجدته الأخيرة.. في تلك الركعتين الذي اختلى بنفسه لقضائهما طلبًا لحاجة الشفاء لزوجة أبونجا ... فلامست رأسه الأرض، واستقرت حتى وقت طويل، كان يستجلب فيه كل تفاصيل الخضوع لله كي يستجيب لدعواته، حتى شعر أبو نجا بالقلق على الباشا من طول سجدته، فاقترب لامسًا ظهره وهو ساجد، لكن همس الأمير



ونحيب متسرب منه.. جعل أبونجا يشعر فجأة بالتفاؤل.. فهذا الدعاء المخلص.. لابد أن يستجيب له الرب .

ومرت ساعات الليل.. طويلة كأنها دهر بأكمله، والزوجة الشابة تصارع الموت في نِزال غير متكافئ، لكن الطبيب الماهر أخذ من كل وسائل العلاج المتاح فرصة يستطيع من خلالها أن ينفذ بحياتها.. من ثقب الإبرة التي كانت تطل به على الدنيا في تلك اللحظات الحرجة.. ومع إشراقة شمس اليوم الجديد.. تفتحت عيون الزوجة.. تمامًا كما تستقبل زهرة عباد الشمس ضوء اليوم الجديد، فتنفرج وريقات الزهرة في ترحابها بالشمس المشرقة.. وابتسم الطبيب.. وبادل الأمير بنظرات يفوح منها عطر الأمل.. ونطقت الزوجة بأول كلماتها ... أ.. أبـــ.. أبونجا.. نعم كان اسم زوجها أول ما نطقت به فور عودتها من جديد للحياة.. فأحاطت الغبطة الجامحة تقاسيم وجه أبونجا وأطفاله.. فنادى على زوجته باسمها.. ناريم.. فوقع اسمها على مسامعها كما لو كانت تسمعه لأول مرة.. فابتسمت ناريم.. ابتسامة عشق عميق.. لزوجها المحب.. عشق تأصلت جذوره في قلبها.. وربما كان هذا العشق من أسباب تمسكها بالحياة .

■■■

(٨)

مـرت أسـابيع طويلة ولـم يظهر الدكتـور ألفونس سـماحة مرة أخـرى، وتعقدت الأمور كثيرًا، فقد أخـذت القضية ١٩٣٥ منحى لـم يكـن متوقعًا، وشـعر المأمـور رفعـت الضو بأن خيوط شـبكة عنكبوتيـة صلدة تحيط بأطراف القضية كلها.. فرغم مرور كل هذا الوقت لم يصل إلى طرف هذا الخيط الذي يبحث عنه .

كان المشـهد مظلمًـا بالتمام والكمال، فقد اشـتاط عبد الرحيم الهواري شـيخ الهـوارة، حين صـوب المأمور أصابع الشـك نحو نجلـه عمـار الهـواري، واعتبر مجرد الشـك إهانة لا تغتفـر، فأقام النجـع ولم يُقعِده على نيران غضبه، وهو يرى أنه لا يجب أن يُتهم الهـوارة بارتـكاب هذه الجريمة الخسيسـة، فمنذ متـى.. والهوارة يقتحمـون بيـوت النـاس عنـوة.. يروعونهـم.. ويقطعـون حُرمـة ديارهـم.. لذلـك لم يغفر الشـيخ عبد الرحيم لمأمـور المركز هذه الزلة من وجهة نظره، واسـتغل سـلطان القبيلة الشهيرة في محاربة المأمور، حتى إنه شـكاه إلى الملك شخصيًّا.. أما بولس سمعان.. فلـم يحصل المأمور من ورائه على حق أو باطل، وبرر عدم عودته

لمنزله، حين ترك المستشفى معلنًا أنه عائد لتغيير ملابسه، ولم يعد بالفعل.. بأنه أراد أن يلحق سوق النجع في هذه الساعة المبكرة من الصباح، قبل أن يزدحم، ليجلب لابنته زوجًا من الحمام.. يرم به عِظامها.. كما قال للمأمور، وبالفعل تحرى الأخير عن ذهاب بولس للسوق.. وأخبره الباعة بأنهم التقوه فعلًا في ذلك الوقت، وأنه اشترى من أحدهم زوج الحمام.. ومن الآخرين.. بعضًا من الخضار والفاكهة .

أما عطوة أبو اليزيد.. فقد اتهمه الثلاثي القبطي جرجس دميان.. وحلمي الديب، وبطرس فؤاد.. في حادثة اختفاء الدكتور ألفونس، فهو الذي هدده في الحفل الذي أقامه الباشا بحديقه قصره، وتوعده حين استفاض ألفونس في لومه واتهامه بالخيانة والعمالة، وبدا أن النفوس لم تصف بعد.. ووجد نفسه متهمًا بالتعدي على الطبيب الشهير.. وأنه السبب وراء اختفائه المفاجئ .

ولم يعرف رفعت الضو.. أهذا الاتهام من قبيل تلك الفتنة التي أصابت النجع عقب حادثة مصنع السكر.. أم أنه اتهام حقيقي.. فالدكتور ألفونس معروف بارتباطه الشديد بالكنيسة، حتى إن أقباط النجع ينسبونه إلى رجال الدين.. وربما يشارك ذلك النسب في هذه الثقة التي اكتسبها كطبيب حاذق وماهر.. وطبيعي أن يلقى اختفاء الدكتور ألفونس هذا الاهتمام والقلق البالغ من أقباط النجع ... بل إن المطرانية ذاتها شعرت بهذا القلق الذي انعكس بغضبة شعبها على اختفاء رجلهم الورع والتقي.. ولم يكن هناك

أي دافـع لاختفائه سـوى تلك المشـادة الكلامية التـي حدثت بينه والريوبيـن عطوة أبو اليزيد في الحفل الذي أقيم بقصر الباشـا منذ أسـابيع، لذلك التهبت أجواء النجع.. واشـتعلت أواصر الفتنة من جديد، وخرج عمال مصنع السكر من المواليين لعطوة في مظاهرة ضخمة أحاطـت مركز البوليس، اعتراضًا علـى اتهام زميلهم بهذه الجريمـة، وفـي المواجهة خرج الأقباط منهـم يطالبون بالقصاص من مختطف الدكتور ألفونس.. وبالطبع كان مقصدهم.. هو عطوة أبو اليزيد.

وزاد الأمـر تعقيدًا باسـتمرار هـروب آرام وعـدم العثور عليه.. وعندما جاوزت بتول محنـة مرضها وعادت إلى بيت أبيها.. توقع المأمـور أن يفكـر آرام في رؤية حبيبته خلسـة، لذلـك أحاط منزل بولـس برقابة سـرية.. كانت تدقق فـي كل من يدخـل أو يخرج أو يحوم حول البيت. ورغم أن طوسون أخبر المأمور برسالة الباشا.. بعد تمام أسبوع من اختفاء آرام.. واحتمال عودته إلى الإسكندرية، لكن تلك الإشـارة التي أرسلها المأمور إلى مباحث الثغر لم تسفر عن شيء.. وكأن آرام.. فص ملح.. أذيب في ماء البحر.

والحدث الأهم في تلك القضية.. هو اختفاء الدكتور ألفونس.. فاختفائـه المريب يثير قلـق أهالي النجع كلهـم.. وخاصة الأقباط منهـم.. ولذلـك بـدل المأمور خطتـه مقـررًا أن يبدأ البحـث أولًا عن طبيب النجع الشـهير، ففي العثور عليـه تهدئة لتلك الفتنة التي اقتربـت على النيْل من أواصر المحبة بين مسـلمي وأقباط النجع..

هذا من جانب.. ومن الجانب الآخر، فالعثور على الدكتور ألفونس سيكشف الكثير عن الحقائق الغائبة.. لكن هذه الخطة التي رسمها رفعت الضو، جعلته يفكر أيضًا في ضرورة العثور على آرام.. فقد رسخ في عقيدته أن ظهور أيهما سوف يرفع ذلك الغطاء المنكفئ على تفاصيل القصة برمتها.. خاصة وقد أثبت تقرير البحث الجنائي أن الأعيرة المحرزة.. أحدهما من نفس عيار المسدس الخاص بالدكتور ألفونس، والآخر لنوعية من البنادق لم ترخص لأحد من أهالي النجع.

■ ■ ■

عادت بتول إلى بيت أبيها، وقد احتفظت بآخر رمق يربطها بالحياة، وبالطبع نمى إلى علمها تفاصيل حادثة الكوخ برمتها، فتملكها ذبول زحف بقسوته على نضارتها، بعدما أصابها ذهول من هذا الاتهام الموجه لحبيبها... فهي تيقن بشهادة قلبها أن حبيبها بريء لا محالة، وكانت تتمنى لو أنها تعرفت على مكان اختبائه، لذهبت إليه حتى لو كان في آخر بقاع الأرض، لتقنع حبيبها بالعودة ليبرأ نفسه مما لوثها... غير أن بتول كانت تفكر أيضًا من وجهة نظر أخرى، فلماذا يتهمون آرام بالاعتداء على الدكتور ألفونس؟ وأنه السبب وراء اختفائه؟ لماذا لا يكون الطبيب الشهير هو الجاني.. خاصة وأنه هو الذي ذهب لكوخ آرام.. والرصاصة المحرزة والتي دوت في صمت النجع في فجر ذلك اليوم، كانت من مسدس الدكتور ألفونس؟ لقد علمت من أمها جميانة

أن ألفونس توعد بالانتقام من آرام.. والنجع كله يعرف تشدد الطبيب.. وغيرته على مسيحيته الأرثوذكسية ... وكانت الفتاة تطل بعينيها عبر نافذة حجرتها على هذا الفضاء الشاسع المحيط بشرفتها والممتزج بمساحات لا انتهاء لها من خضرة الأرض، وهي تفكر كل لحظة في تلك الأسئلة ... وذلك السؤال الأهم.. لماذا لا يُوَجه الاتهام للدكتور ألفونس نفسه؟ فهذا هو المنطق.. وتسلسل الأحداث يقود بسهولة إلى هذا السؤال؟!.

هل لأن الدكتور ألفونس معروف بتدينه وارتباطه الشديد بالكنيسة؟ أم لأنه شخصية مرموقة باعتباره طبيب النجع الأشهر ومدير المستشفى المركزي؟ أو لأنه من الأثرياء، وعادة الناس أنهم لا يقتربون من الأثرياء وأصحاب السطوة في شكوكهم؟ وربما يكون الدافع أنه من أصدقاء يوسف باشا المقربين.. وبالطبع فأصدقاؤه منزهون عن الاتهام؟ كانت كل هذه الأسئلة تدور في عقل الفتاة اليانعة، وقد أقسم قلبها على الوفاء لحبيبها مهما كان الثمن.. وثمة لمحة من عتاب كانت تشعرها بمرارة في حلقها.. فكيف يختفي حبيبها فجأة دون أن يفكر في طمأنتها على حاله .... أليست هي التي كادت أن تفقد حياتها تمسكًا به؟ لكن قلبها الذائب في العشق كان يحاول من حين لآخر أن يلتمس لآرام العذر، فهي لا تعرف ظروفه، وما الدوافع وراء اختفائه المريب ... فقد كانت مساحة الحب بينهما كفيلة بأن تقنعها بأن آرام عائد لا



محالة.. وكان قلبها يحدثها دائمًا.. بأنها على مقربة من لقائه.. وأن هذا اللقاء.. قريب.. قريب جدًّا .

■■■

قضت بتول وقتها في رعاية المولود الجديد دوماديوس.. فقد وجدت في الوافد الجديد ضالتها، يشغل وقتها، ويقطع بعض الوقت حبال التفكير المميت عن عقلها، الذي أخذ يجوب ليلًا ونهارًا، وشمالًا وجنوبًا، وشرقًا وغربًا، بحثًا عن إجابة واحدة فقط لأي من هذه الأسئلة التي تراودها.. وكان دوماديوس طفلًا خلابًا.. رائعًا في جماله.. وطلة واحدة على وجهه الصبوح كانت كفيلة بأن تزيح كل همومها.. وفي كل حين كانت تنظر إلى وجهه وتحدثه، فيباغتها بضحكة عذراء صافية، وكأنه يحمل إليها البشرى كلما ألم بها خاطر السوء عن حبيبها.

وقررت بتول أن تقطع أواصر الشك باليقين، واختارت وقتا تَهيأ لها فيه أنه مناسب لتخرج من بيتها . كانت تقصد مركز البوليس.. وبالتحديد المأمور.. رفعت الضو، وبالفعل كست وجهها بغطاء يخفي معالمها، وقطعت أشواط المسافات من بيتها إلى المركز بخطى سريعة، وهي تدلف من أزقة لا يمر بها كثير من الناس.. حتى وجدت نفسها في مواجهة بوابة المركز.. ولوهلة بسيطة ارتجفت على دقات قلبها المتسارعة، لكنها رنمت بآيات من أسفار الإنجيل كانت تبدل في الحين قلقها باطمئنان جميل،

وتكسبها شجاعة النطق والمواجهة، فتجد سيقانها تعدو منطلقة وهي تُغالب ترددها، حتى التقاها أحد الأومباشية سائلًا عن وجهتها، ولما أخبرته عن رغبتها في مقابلة المأمور، حاول بصلف أن يستفسر عن أسباب رغبتها، فرفضت أن تدلي بشيء يكشف منه مقصدها، وحين حاول أن يمنعها.. واجهته بصلابة الحب المسيطر على قلبها، وبدت كمن يستعد لينشب أظفاره في لحم المغير على فرصتها في الدفاع عن فتاها.. ولم يجد الأومباشي بُدًّا سوى أن يدلف نحو مكتب المأمور، ليخبره بأن فتاة مختفية تحت ساتر الوجه تطلب مقابلته، وأنها لن ترحل حتى تنال مُبتغاها ..

وأمر رفعت الضو بسرعة دخولها.. فقد أيقن بحسه الأمني، أن هذه الفتاة تحمل سرًّا دفينًّا، فليس من عادة النساء في الصعيد أن يقدمن على مثل هذه الخطوة الجريئة بعيدًا عن رجالهن، فالمرأة غالبًا في الصعيد لا تخرج من بيتها إلا لأمر هام.. وقد يكون عملها في موسم الحصاد هو ذلك السبب، وبالطبع لن يكون مركز البوليس هو قبلتها.. فلا عمل للنساء بالبوليس.. لذلك لعب الفأر في عِب المأمور، وأسرع على الفور بمقابلتها .

وبمجرد أن وطأت بقدميها حجرة مكتب المأمور، حتى رفعت غطاء وجهها.. ووقع الأمر في نفس رفعت الضو موقع المفاجأة، فلم يكن يتوقع بأي حال من الأحوال أن تكون صاحبة هذا الغطاء الساتر هي بتول.. فهو يعرفها عن ظهر قلب.. ارتآها كثيرًا وهي تعمل في أوقات الحصاد، وذهب لزيارتها بالمستشفى حين كانت

بيـن الحياة والموت، وتلـك عادة حرص عليها مأمـور المركز في عيـادة المرضـى بالمستشـفى، فكلما نمـى إلى علمـه أن أحدًا من الأهالـي قـد أصابتـه وعكة صحيـة، وأنه صـار نزيلًا بالمستشـفى المركزي، كان في التو والحال يقوم بزيارته.. على سبيل المجاملة من ناحية، ومن الناحية الأخرى لتوطيد علاقاته بالأهالي، وهو أمر يراه هامًّا بالنسبة لرجل الأمن الأول في النجع .

ولـم يسـتطع رفعـت الضو أن يخفي ذهوله، فهـو يدرك أن حالة صحية حرجة قـد ألمت بالفتاة منذ وقت قريب، علاوة على أنه لم يتوقع جرأتها، فبالتأكيد سوف تخاطبه في أمر آرام، وليس من عادة بنات النجع أن يكشفن عن حكايا عشقهن بهذه الصورة الصريحة.. فنظر إليها مندهشًا وهو يتفوه بكلمات أشبه بهذيان المفاجئة قائلًا:

- بتول ...... مش ممكن!

- (بحلم هادئ) أيوة بتول يا جناب المأمور ..

عاجلها بسؤال خطر بتلقائية على باله:

- أبوك بولس.. عارف إنك جاية هنا؟

- (بثبـات وثقـة) لا يا جنـاب المأمـور.. إني جايـة.. وبدى أسألك سؤال ..

- يا ترى بخصوص إيه ... اسألي؟

ولاحقته الفتاة بكل الأسـئلة التـي تدور بخاطرها، وحين كانت تنتهي من طرح سـؤال، كانـت عينا المأمور تلمـع إعجابًا بذكائها،

فلـم يخطـر بباله تلـك الاستفسـارات التـي طرحتها الفتـاة بجرأة وشجاعة غير مسبوقة.. وكانت لهجتها تحمل لومًا للمأمور، لأنها تصـورت أن هيبة الدكتور ألفونس ووقاره قد حال بينه وبين التدبر بحكمـة وروية، خاصـة وأنها أخبرتـه أن رجل البوليـس ينبغي أن يفكر في كل الأطراف بشـكل متوازن، ولا يجب عليه أن يحيد عن عدالته بسبب الجاه والسلطان . ولا يخفى أن رفعت الضو أعجب ببتول.. وأكثر ما أجج هذا الإعجاب في وجدانه، هو شجاعتها في الدفـاع عن حبيبها، حتى لو كان ذلـك يتنافى مع العادات والتقاليد ... وابتسم محدقًا في وجهها الملائكي قائلًا:

- معـاكِ حق يا بتـول ... أنا فعلًا ما فكرتش في كل الأسـئلة دي .
- (بشـيء من اللوم الرقيق) بأشكر الرب إني لحقت جنابك في الوقت المناسب .

ضحك رفعـت الضو ضحكة عالية من قلبه، متقبلًا هذا العتاب الرقيـق، ثم اسـتجمع عصـارة فكره بجديـة من اقتنـع بالحديث.. وسأل الفتاة وهو يركز بصره على مقلتيها ليتبين رد فعلها:

- إنت ما تعرفيش آرام مختفي فين؟
- (بتلقائية ودون تردد) والمسـيح.. ما أعرف عنه حاجة ... (مسـتطردة) أنا لـو كنت أعرف ما كنتـش جيت لجنابك..

كنت هأعرف الحقيقة من آرام.. لكن أنا جيت هنا علشان أعرف الحقيقة منك شخصيًّا يا جناب المأمور.

اعتدل المأمور في جلسته وبدا مكترثًا بصدق وتلقائية الفتاة.. وحدثها قائلًا:

- أنا مصدقك يا بتول.. (برجاء) لكن توعديني لو عرفتي حاجة عن آرام تبلغيني فورًا.

نظرت إليه بتول بجدية صاحبة الحق، وقالت:

- بشرط يا جناب المأمور.. إنك توعدني تفكر في القضية بعدالة، وما تاخدش الناس بالشبهات.. وما تستبعدش أصحاب النفوذ والجاه من الشك ... ساعتها بس.. هأقولك على أي حاجة بأعرفها.

شعر رفعت الضو بأنه أمام فتاة ناضجة.. ورغم حداثة عمرها، فقد تلقى منها صلابة في الموقف لم يعتدها حتى من الرجال، فهي تجيد انتقاء كلماتها، ويعكس حديثها ثقافة لا تتناسب مع عقدها الثاني، كما أن منطقها قلب تفكيره رأسًا على عقب، وجعله أكثر اقتناعًا بالبحث في دائرة الدكتور ألفونس.. أما المأمور.. فقد أخذ وعدًا من بتول بأنها ستساعده بأي معلومات قد تعرفها عن فتاها.. لذلك ابتسم في وجهها.. ابتسامة عهد.. وقال لها:

- أوعدك يا بتول.. أوعدك بشرفي.. إني أفكر بحيادية وعدالة تامة.

غطـت الفتـاة وجههـا بغتـة، وهمـت أن تتصـرف بجديـة تثيـر الإعجاب حقًّا وهي ترد قائلة:

- وأنا عند وعدى!!.

■ ■ ■

لم يمر هذا اللقاء مرور السحاب على رفعت الضو.. فقد خَلَّفت تلك الدقائق المعدودة التي التقى فيها الفتاة.. معاني كثيرة.. أقل ما يمكن وصفها به.. أنها معان نبيلة.. لا تصدر إلا من إنسان تكشف فيه الصدق حتى بلغ عظامه.. ولذلك فكر المأمور في قصة الحب التـي جمعـت هذه الفتاة بالشـاب آرام.. وبات مقتنعًا أنه يسـتحيل أن تقـع فتـاة بعقل بتـول ورزانتهـا في حـب فتى ضائـع، فلابد أن هذا الشـاب.. يحمل نبـلًا على قدر ما تحمله هـذه الفتاة، فالطيور على أشـكالها تقع، فما سمعه المأمور منها عن آرام.. وحجتها في الدفاع عنه.. جعله يُكَون رأيًا بأن فتاها بريء بالفعل، حتى إنه شعر في بعض الوقت أثناء حديثها.. بشـيء مـن الغيرة.. فإذا كانت فتاة بأخـلاق بتول وعذرية قلبها تعشـق رجلًا.. كل هذا العشـق.. فأي مواصفات تلك.. التي يتصف بها هذا الرجل؟!.

ورغم قناعة رفعت الضو تقريبًا بوجهة نظر بتول، إلا أن سـؤالًا محيـرًا راوده وهو يعـاود تذكر لقائـه بالفتاة.. فـإذا كان آرام بريء حقًّا.. فلماذا اختفى؟ وأين ذهب؟!.

ولا شك.. أن شيئًا من الدهشة قيد فكر رجل الأمن الأول في النجع.. فمازال وقع الصدمة والمفاجأة يسيطر على خلجاته ويتحكم في وجدانه منذ أن انسحبت الفتاة من أمامه وهمت منصرفة وإلى تلك اللحظة التي يحدث فيها نفسه. فهي المرة الأولى التي يؤمن فيها بالحب كدليل قاطع على البراءة.. في قضية يفور النجع كله غليانًا بآثارها.. هو بنفسه لم يكن بحاجة إلى دليل على براءة آرام.. فهذا الصدق الإنساني وهذا الصفاء الرائع الذي أضفته بتول على منطقه، جعله يكتفي بتلك الحالة من الحب كدليل أكيد في قضية هامة.. مثل التي يجمع أوراقها في هذا الملف الذي يحمل الرقم ١٩٣٥ .. لكن الأزمة الحقيقية في أن القانون لا يعرف هذا الدليل.. ولا يؤمن به.. فالقانون شيء جامد.. محدد.. محاط بأضلاع معروفة.. الجاني والجناية والمجني عليه.. والأدلة التي يعترف بها.. هي أدلة مادية.. ولم تكن في يوم من الأيام أدلة كالأشباح.. نعم فالحب.. لا يُرى، إنه شيء أشبه بالشبح.. يتحرك بيننا.. ونشعر بتأثيره علينا.. لكننا لا نراه واقعًا ماديًا أمامنا . لا نراه كيانًا من لحم ودم وأعصاب.. ولا نراه حتى في صورة صلبة أو سائلة أو غازية.. إنه شيء بلا طعم أو لون أو رائحة.. ومع ذلك فهو إكسير الحياة وسرها ... وهو مثل الهواء لا نراه مطلقًا لكننا نشعر بالتأكيد بآثاره علينا.. ونيقن تمامًا أننا بدونه لا نسوى أي شيء.. بل لا نبقى كأي شيء على وجه الأرض .

■ ■ ■

(٩)

مرت أسـابيع أخـرى تالية قطعها البرنس يوسـف فـي بقعة من أجمـل بقاع الأرض حول بحيـرة فكتوريا، وقد قضـى أيامًا طويلة في رحلات الصيد، مرت بالنسبة له كما لو كانت ساعات معدودة، فحيـن يقضي المرء وقتـه فيما يعشـقه يبخل عليه الزمان بمشـاعر الاسـتدامة مـع أحاسيسـه الجميلـة. وكان أبونجا لا يفارق الباشـا تقريبًا، فقد لمس فيه صدقًا نادرًا، وتشـبع معه بإحساس الأبوة التي فقدها منذ نعومة أظافره، وفي أحيان كثيرة اصطحب أبونجا زوجته ناريم وأولاده في جلسات السمر كل ليلة في معسكر الصيد، ورغم بشـرتها السـمراء إلا أنها كانت رائعة الجمال.. وحاولت ناريـم أن تبـذل قصـارى جهدها لتعبر للباشـا عن مـدى امتنانهـا بموقفه في محنتهـا، فقد جعـل الله وجوده في بلادهم حيـن كانت بين الحياة والموت سـببًا في إنقاذها.. وأمر الباشـا طبيبه الخاص بأن يحصن أطفال أبونجا بالطعم الواقي من الملاريا، فحتمًا أن أطفالًا في عمر الزهور لن يكون أمل نجاتهم سهلًا إذا أصابهم ما أصاب أمهم .



والطبيعة الخلابة جعلت الأمير يمد في أيام رحلته لأكثر من تلك الفترة التي خطط للبقاء بها حول بحيرة فيكتوريا، ومنحه هذا الوقت فرصة ممتازة لاقتناص أروع مغانم الصيد، وهو يستعد للعودة إلى مصر بما لم يعد به من قبل في رحلات الصيد السابقة. وكثيرًا ما فاجأ الأمير أبونجا وعائلته في تلك الأمسيات اليومية بعزفه الموسيقي، فقد كان من أكثر الأمراء ميلًا إلى الموسيقى، ويُعتبر من أمهر العازفين على كثير من الآلات الموسيقية ولكنه كان يفضل العود عليها جميعًا... وفي قصره بنجع حمادي حجرة خاصة.. جمع بها كل معدات العزف والموسيقى، وعلق في مدخلها لافتة كتب عليها.. حجرة ابن الفارض..، ومن الجائز أنه أطلق هذا الاسم تخليدًا لذكرى الشاعر العظيم، وكان يتردد على هذه القاعة أهل الطرب في مصر.

وبينما يعزف الأمير أنغامه على العود الخاص به، انتابته حالة من الشجن الجميل، لمح آثاره على وجوه الملتفين حوله، فهو يعزف مقطوعة عزيزة على قلبه.. ويجيدها كأمهر أهل الموسيقى والطرب، وتلك المعزوفة عشقتها زوجته النبيلة.. وكم كان لهذه المرأة الرائعة من مكانة في قلب الأمير.. فقد تزوج الأمير يوسف كمال من الأميرة كريمة حليم ابنة الأمير محمد عباس حليم ابن الأمير محمد عبد الحليم باشا ابن محمد علي باشا. والأميرة كريمة كانت تُجيد اللغات الفرنسية والألمانية والإنجليزية بخلاف التركية، كما كانت موسيقية بارعة... وأغلب الظن أن الموسيقى

كانـت لغـة التواصل بينهما.. ولذلك سـجل أجمـل اللحظات في قصتهما معًا على أنغام عزفه الراقي.

وتلـك اللحظة التـي كان يعزف فيها أحلى ما تحب أن تسـمعه منـه زوجته، ألمت بشـجن في نفس الأميـر، وتذكرها في لحظات غربتـه، وتمنى لو أنها كانت تصحبه فـي تلك الرحلة، لكنه حرص أن يلتقـط صـورًا فوتوغرافية ترصد كل تفاصيـل الرحلة، وقرر أن تكـون زوجتـه أول من يراها، ليشـعر معهـا من جديد وهـي تتفقد تلـك اللقطات.. كما لو كانت معه لحظة بلحظة في رحلته الرائعة. وهـذا الإحسـاس المثير على قسـمات وجـه الأمير، جعـل ناريم تسـأله عن ذكريات تلـك المقطوعة التـي يعزفها معه، فاسـتفاض الباشـا في حكايـا الذكريات.. وكأنه كان ينتظـر من ينبش صندوق ذكرياته، وخاصة فيما يتعلق بالأميرة كريمة.. فأوسـع في الحديث عنها بمشـاعر العاشـقين، وانتقى في وصفها أبلغ كلمات الشعراء، فالأميـرة كريمـة هي كل حياتـه.. وحين عَلِمت ناريـم أن القدر لم يمهـل الأمير فرصة ليكون أبًا.. قدرت مشـاعره نحـو زوجته التي تشغل هذه المساحة في حياته.. وتقلبها رسومًا وألوانًا.. وتمنت لو أنهـا رأت هذه الأميرة رؤيـا العين التي حَوَّل حديث زوجها عنها.. جنسـها.. من الحالة البشرية إلى حالة الملائكة.. لذلك دعا الأمير أبونجـا وعائلته لزيـارة مصر.. فاغتبط الرجـل وزوجته ناريم بهذه الدعوة الكريمة.. لكنهمـا وبحديث الأمنيات تمنيا لو أن الظروف سنحت لتلبية هذه الدعوة .

ودار الحديث مع العائلة السمراء طويلًا.. حول الأمير يوسف كمال نفسه.. وكانت الأسئلة تتوالى في شغف والأمير يجيب على قدر هذا الشغف.. وعرف أبونجا وزوجته من الطبيب الخاص أن البرنس ينتمي إلى العائلة المالكة في مصر، وأنه ابن الأمير أحمد رفعت باشا ابن إبراهيم باشا. وأنه من أغنى أغنياء الأسرة المالكة المصرية. فهو يمتلك معظم مديرية قنا، وبلغ عطفه الإنساني أفراد الأسرة المالكة نفسها، وكان يساعد من يحتاجون إلى العون المادي منهم بإهدائهم قطعة أرض والإنفاق عليهم من دخلها السنوي. لذلك تعجب أبونجا وناريم من تواضع الباشا المدهش، وزاد إعجابهما به حين عرفا أنه كان قاب قوسين أو أدنى ليجلس على عرش مصر، وأنه تنازل عن لقبه الملكي ليعيش بين الناس.. كواحد منهم.. يشعر بنفس أحاسيسهم.. ويشاركهم هموم الحياة.. ويحاول قدر استطاعته أن يساهم في تخفيفها.

وعرف أبونجا أيضًا من الطبيب المرافق لقافلة الصيد أن الباشا كان في مقدمة أمراء الأسرة المالكة الذين اشتهروا بالرحلات النائية والصيد، فقلما يمر عام لم يقم فيه برحلة أو سياحة إلى بعض الجهات الأوروبية، أو الأمريكية، أو الآسيوية، أو الإفريقية. فهو رحالة جغرافي شديد الولع باصطياد الوحوش المفترسة، واحتفظ بكثير من رءوسها المحَنطة. علاوة على أنه شديد الولع بالسياحات البحرية، فقد زار مدينة قولة بيخته الخاص، ليشاهد ذلك البيت الذي وُلِد فيه جد الأسرة الكبير محمد علي باشا. ولم

ينسَ الطبيب في جلسة السمر أن يحكي لأبونجا وزوجته ناريم عن رحلات الباشا الشيقة التي قام بها مع الأمير كمال الدين حسين نجل السلطان حسين كامل في صحراء ليبيا. وقد استحضر من فرنسا السيارات التي تتسلق الجبال والتلال، كما استحضر المهندسين الفرنسيين الأكفاء الذين رافقوا البعثة الفرنسية التي اخترقت الصحراء الكبرى من طنجة إلى تمبوكو. وكان الغرض منها التوصل إلى اكتشاف جهات لم يصل إليها المكتشفون بعد ... والاهتداء إلى رسالة الرحالة لورانس التي وضعها داخل زجاجة وأودعها مكانًا وصفه في إحدى رسائله.

وعَلِم أبونجا أيضًا أن الأمير يتريض بمطاردة الحيوانات البرية، وصيد الغزلان والفيلة، وأن الأمر يأخذ منه مأخذ الاحتراف وليس الهواية فقط، فهو مولع بالصيد للوحوش الكاسرة كالأسد والدب والتي أهدى كثيرًا منها لحديقة الحيونات بالجيزة.

كما كان الأمير من أرشق الضاربين بالسلاح، حيث يُعد الأمير يوسف كمال من أمهر الضاربين بالسلاح في العالم، وهو يضرب بيسراه مثلما يضرب بيمناه. وفي أقل من لمح البصر يستطيع أن يُسدد عشر رصاصات بالمسدس إلى أي هدف يبعد عنه مائة ياردة، ويصنع بها تجمع لا يزيد قطره عن بوصتين.

ولم يتردد أبونجا بعد كل هذا الوصف عن ولع الأمير بالصيد، أن يطلب من يوسف باشا أن يكون عضوًا أساسيًّا في قافلة الصيد، وبدا أن أبونجا لا يبتغي مفارقة يوسف كمال.. وكان في مطلبه هذا



يقدم الكلمة ويؤخر الأخرى.. حرجًا من الباشا.. ولصعوبة تحقيق هـذه الرغبة على أرض الواقع بالفعل، لكن كرم الأمير كان أوسـع ممـا تخيلـه أبونجـا، فقرر تعيينـه عضوًا أساسـيًّا في قوافـل الصيد الكمالية، وجعله مسـئولًا عن كافة رحلات الصيد المستقبلية التي تنطلـق فـي أدغال إفريقيـا كلها.. وزاد كـرم الأمير فخصـص راتبًا شـهريًّا محترمًا يكفي أبونجـا حاجته كلها، ويحميه من بطش الفقر الذي أوجعه كثيرًا .

ووقـت أن قـرر الأمير العـودة.. كان العـام ١٩٣٥ يمر بمرحلة الأفول، ورغم مرور كل هذه الفترة في إفريقيا.. فقد أخبر طوسون فـي اتصـال بالأمير بـأن آرام لم يظهـر بعد.. وأن حادثـة الكوخ لم تـرسُ على شـاطئ، وأن ثمـة أحداثًـا للفتنة قـد أصابـت النجع.. فحـزن الأمير كثيرًا.. وقـرر أن تكون عودته سـريعة.. لذلك طلب مـن طوسـون أن ينتظره يخته الخاص على شـواطئ البحر الأحمر فـي السـودان.. بينمـا ترك قافلتـه تعود إلـى أدراجها كمـا جاءت، ويبـدو أن البرنس أراد أن يعود بيخته مـن البحر الأحمر إلى البحر المتوسط عبر قناة السـويس.. حيث عزم الذهاب إلى الإسكندرية ليبحث عن آرام بنفسه.

وكان البرنـس يملـك قصـرًا كبيـرًا أيضًـا بجهـة سـتانلي برمل الإسـكندرية يُطل على الكورنيش، وعمارة شـاهقة بحي المنشية، فتواصل مع الأميـرة كريمة ليخبرها بوجهة عودته، فوعدته بانتظار مجيئه بقصر ستانلي .

ومشـهد وداع الأمير لم يدع مكانًا للشـك في منزلة الأمير لدى الذين أحاطوه خلال رحلته حول منابع النيل من الأهالي، وخاصة أبونجـا وزوجته وعِياله، فقد أنهى فريق القافلة استعداده للرحيل، واصطف أسـطول السـيارات المجهزة والمرافقـة لتعود من حيث أتت، وسوف يرافقهم البرنس حتى ذلك الميناء على البحر الأحمر في شـمال السودان والذي سيسـتقل منه يخته الخاص.. واستبقت دمـوع أبونجـا وزوجتـه كلمـات الـوداع، بينمـا احتضـن الباشـا أطفـال أبونجـا وغيرهم من أبنـاء الأهالـي، ووزع عليهم الحلوى والشـيكولاته كعادته، ولم ينسَ أن يكرر على أبونجا أنه ينتظره في مصر حين تسـمح الظروف.. وأكد أنه سيكون في انتظاره وزوجته ناريـم وأولادهمـا.. وأن الأميرة كريمة ستسـعد كثيـرًا بضيافتهم، فمهما بعدت المسـافات بين مصر ومنابع النيل.. فلن تنسـى مصر جذورهـا أبـدًا.. وكانـت هذه آخر كلمات الباشـا لأبونجـا قبل أن يغادر .

■■■

(١٠)

كانت مصر في هذه الفترة تمر بأحداث سياسية ساخنة، وفي عام ١٩٣٥ انتفضت مصر في ردة فعل طبيعية لما جرى من احتقان سياسي وشعبي لسنوات خمسة، فمصر ما بين بداية عام ١٩٣٠ تقلد زمام الأمور بها وزارات غير شعبية، تحت راية دستور ١٩٣٠ الذي جاء لإلغاء دستور ١٩٢٣ الليبرالي، وفقًا لمخطط نفذه رئيس الوزراء إسماعيل صدقي بمباركة القصر والإنجليز، وجمع خيوط السلطة والعمل السياسي كلها بيد الملك فؤاد، بعد أن نجح دستور ١٩٢٣ في تحويل مصر إلى ملكية دستورية، لها برلمان ووزارة يتمتعان بصلاحيات كبيرة.

وكانت انتفاضة الشعب في ذلك العام، ثورة شعبية حقيقية، لكنها من الثورات المنسية في التاريخ المصري، تمامًا كما حاول البعض إسقاط ثورة ١٩١٩ من الذاكرة.. لكن محاولاتهم فشلت فشلًا ذريعًا، وشعب مصر.. شعب جسور، تتشعب جذوره في أرض الحضارات التي كانت على مر التاريخ مطمعًا للقوى الاستعمارية الكبرى، لكن بسالة الشعب لم تصمت أمام ظلام



هذه القوى، غير أن تلك القوى المحتلة الباطشة حاولت كثيرًا أن تمحو تاريخ المقاومة الشعبية المصرية من أذهان الأجيال القادمة، فزيفت التاريخ، ودنست حقائقه بالزور والبهتان.. وقد فشلت كثيرًا في ذلك.. ونجحت في القليل من المحاولات، ومنها ثورة يوليو ١٧٩٥ التي قامت ضد الحكم العثماني في مصر، ونجح بلاط الحكم العثماني في محوها من التاريخ، لذلك لم تذكرها الأجيال أو عرفت عنها شيئًا.

وثورة ١٩٣٥ اندلعت بغضبة الشباب الذي تربى على ذكرى ثورة ١٩١٩، فنزل إلى الميادين مطالبًا بعودة دستور ١٩٢٣، وأمام غضبتهم اضطر الملك فؤاد إلى تلبية مطالب الشباب، فأعاد الدستور القديم، وأقال وزارة محمد توفيق نسيم برمتها، وأسند الوزارة إلى الزعيم مصطفى النحاس .

وشباب مصر كان هو مفجر هذه الثورة، التي اختلفت عن ثورات الوطن السابقة حيال الظلم والاحتلال عبر تاريخه، لأنها أتت بردة فعل قوية، ولكون قلبها ونبضها شابًّا فتيًّا، فقد تأثر الشباب كثيرًا بثورة سعد باشا زغلول ومقاومته للاحتلال البريطاني، ولما التحقوا بالجامعة المصرية تشكل وجدانهم الوطني، وعملوا بالسياسة، وأشعلوا المشهد السياسي بوعيهم العاشق لتراب الوطن، فسادت حالة من الغليان أوساط الشباب في الثلاثينيات، إلى الدرجة التي دفعت شيوخ الأحزاب بعد ذلك في عام ١٩٣٦

إلـى قبول المعاهدة بين مصر وبريطانيـا تخوفًا من أن يجرفهم تيار الشباب الجديد.

وكانت حالة النضج السياســي لشباب مصر في فترة الثلاثينيات هي التي أهلت لاندلاع هذه الثورة، فقبل انطلاقها بعامين، أزعجت حركة الشـباب القصر لمدى بعيد، لذلك لم تتوان الحكومة للمرة الأولى في اعتقال سياسـي لثلاثة من الشـبان الذيـن لا ينتمون إلى أي من الأحزاب، بل كانوا مسئولين عن جريدة الصرخة التي تندد بالوضع السياسي بشكل عام، ومهادنة القصر للاحتلال، وخضوع الوزارة لسيطرته البعيدة عن آمال وطموحات الشعب، وأول هؤلاء الشباب كان فتحي رضوان الذي جدّد شباب الحزب الوطني الذي أسسه مصطفى كامل، عقب خروجه من المعتقل.

أمـا الثاني فكان أحمد حسـين مؤسـس حزب مصـر الفتاة، في حين كان الثالث هو الصحفي الشـاب حافظ محمود رئيس تحرير الجريـدة. ووقتهـا توافد الأهالـي والمواطنون على السـجن الذي اعتقل فيه الشـباب، وتسـابقوا في تقديم الطعام الطـازج يوميًّا إلى المعتقليـن، بينمـا تسـابق المسـاجين في إعـداد الفـراش النظيف وتقديم الأغطية للشباب الثائر.

وقتهـا كان فتحـي رضوان قد تعدى بداية عقـده الثالث بعامين فقط، ورغم أنه ولِد في مدينة المنيا، إلا أنه ليس من أصل صعيدي، فوالده كان مهندسًـا للري في هذه المدينة، ثم انتقلت الأسـرة بعد ذلـك بعاميـن أو ثلاثـة إلـى القاهرة، واسـتقر بهـا المقـام في حي



السيدة زينب، شارع سلامة. وفي هذا الحي تشرَّب الوطنية، حيث التيارات الوطنية والفكرية التي كان يزخم بها الحي العتيق، كما كانت نشأته الوطنية لها أثر عظيم في تكوين شخصيته فكانت أمه من أنصار مصطفى كامل وكانت تبغي لابنها أن يسير على نهج مصطفى كامل، كما أن أخته كانت زعيمة الطالبات في المدرسة السنية.

والتحق فتحي رضوان بالمدرسة الأهلية ثم مدرسة محمد علي وحصل على الابتدائية، ثم الثانوية من إحدى مدارس أسيوط حيث كان والده يعمل وقتها هناك. ونبغ سياسيًّا وفكريًّا في المرحلة الثانوية، وبعد اجتيازها التحق بكلية الحقوق وتخرج فيها عام ١٩٣٣م ليعمل في مجال المحاماة.

وحين سُجن فتحي رضوان بزنزانة المعتقل، لم يكن يدرك وقتها أنه يخطو الخطوة الأولى نحو هذه الحياة الفائرة ضد الظلم والطغيان، والتي ولدت ثورات وجمعيات وأفكار جديدة وخطيرة وشبانًا سيحملون تاريخ مصر الحديث على أكتافهم وسيواجهون السجن والبطش والاعتقال، ويصبحون على مقربة من أعواد المشانق، وتطاردهم السلطات الأصلية والدخيلة. وزجت السلطة به ورفاقه إلى سجن الاستئناف، وكان لاعتقالهم صدى بعيد فقد نشرت الصحف صور ثلاثة شبان، لا يؤيدهم حزب كبير ولا يسندهم زعيم خطير ولا تحمي ظهورهم سلطة ولا يملأ جيوبهم المال السياسي.

وانزوى الصحفي الشاب حافظ محمود، في ركن بزنزانته وهو يتلو بصوته الرخيم من المصحف آيات تنسيه ورفاقه أنهم في قبضة الحاكم، وهم لا يدرون متى سيطلق سراحهم ليستأنفوا حياتهم من جديد، وتناسوا قبل كل هذا أنهم شباب يافع فقير، لا حول لهم ولا قوة وهم يتحدون السلطة الغاشمة.

ويوم محاكمة الشبان الثلاثة أصر القدر على أن يسطر في كتاب التاريخ واقعة تفجر همم الجيل وتشعل نار الثورة من تحت الرماد، ففي ذلك اليوم حضر العديد من المحامين للدفاع عن الشبان الثلاثة الذين قُدّر لهم تجسيد الوطن في تلك اللحظة التاريخية، ولكن الصفوف انشقت أمام شيخ جليل، هو محمد علي باشا علوبة وزير الحقانية الأسبق، ولمكانته الاجتماعية والوزارية السابقة طلب إلقاء كلمة، فأجابه القاضي بالإيجاب، وطلب علوبة باشا تدوين كل كلمة سينطق بها في مضبطة الجلسة، وهنا أمسك علوبة باشا بمقال لحافظ محمود، كان من أسباب اعتقال الشبان الثلاثة، وتلاه كاملًا بصوته الجهوري، وبعربية فصحى متمكنة، كأنه يلقي خطابًا وطنيًّا، وبمجرد أن انتهى من خَطابه بادر بالقول:

- والآن يا سيدي القاضي، إنني قلت وأؤيد في محضر الجلسة نفس الكلام الذي سجن هؤلاء الشباب بسببه، وأنت الآن ليس أمامك إلا أمر من اثنين، إما أن تطلق سراحهم مثلي، أو أن تحكم بسجني معهم.



واشتعلت القاعة تصفيقًا، وصاح القاضي كاظمًا غيظه من هول مفاجأة لم يتوقعها، رُفِعت الجلسة، ثم سارع بالتنحي عن رئاسة الجلسة، وتولى المحاكمة قاضٍ آخر أمر بالإفراج عن الشبان الثلاثة.

كانت تلك المحاكمة هي تصاريف القدر التي لمح فيها شباب الثلاثينيات إشارات قدّمها لهم الشعب بموقفه المناصر لهم، ولم يمر ثلاثون شهرًا على هذه الواقعة إلا وكان شباب مصر ينزلون إلى الشارع ليسجلوا ملحمة رائعة يفتخر بها تاريخ مصر.

■ ■ ■

كان فتحي رضوان ورفاقه قد تشربوا بتاريخ الحركة الوطنية في مصر، وحفظوا عن ظهر قلب تلك المناسبة التاريخية التي حدثت بعد يومين من إعلان الهدنة وانتهاء الحرب العالمية الثانية. فقد أبدى ثلاثة رجال رغبتهم في مقابلة المعتمد البريطاني السير وينجت، عبر وساطة من حسين رشدي باشا، رئيس الوزراء في ذلك الوقت، للتحدث عن مستقبل مصر، فالتقاهم المعتمد البريطاني في يوم ١٣ نوفمبر ١٩١٨.

وظل تاريخ هذه المقابلة المهمة عيدًا قوميًّا يحتفل به الشعب وهو عيد الجهاد، ذلك أن هذا اليوم كان الشرارة الأولى لثورة ١٩١٩، فقد تلاحقت الأحداث حتى بلغت ذروتها، وكان المعتمد البريطاني قد سأل رئيس الحكومة آنذاك رشدي باشا بغضبة شرسة،

كيف سوغ هؤلاء الرجال الثلاثة، سعد زغلول وعلي شعراوي وعبد العزيز فهمي، لأنفسهم أن يتحدثوا باسم الشعب المصري؟.

وقد أوحى هذا الاعتراض البريطاني بفكرة للرجال الثلاثة وسائر قيادات الوفد، وهي الحصول على توكيل شعبي ليتحدثوا بموجبه نيابة عن الشعب، فكانت عرائض جمع توقيعات الشعب رغم مصادرة السلطة لها، وكان يتعين على الإنجليز أن يستوعبوا هذه الإرادة الشعبية الجماعية لكنهم تحدوها وقمعوها، ومن هذا الرفض والقمع اندلعت أول شرارة للثورة.

وأثناء الاحتفال بعيد الجهاد، في مثل هذا اليوم ١٣ نوفمبر ولكن هذه المرة في عام ١٩٣٥، وعلى أثر خطاب ألقاه السير صمويل هور، وزير الخارجية البريطاني، في قاعة جولد هول في لندن، تناول فيه الحديث عن الدستور المصري، وقال إن بريطانيا نصحت بألا يُعاد دستور ١٩٢٣ إلى الحياة، ولا حتى دستور ١٩٣٠، فالأول غير صالح للعمل والثاني لا يعبر عن رغبات الأمة. وبمجرد أن أدلى صمويل هور بهذا التصريح إلا وكان له وقع الصدمة في نفوس المصريين، وخاصة شباب الجامعة منهم، فاندلعت المظاهرات في القاهرة وقابل البوليس هذه المظاهرات بإطلاق الرصاص على المتظاهرين، وكان أول الذين استشهدوا إسماعيل الخالع، الذي كان عاملًا في سرادق الاحتفال.

وتجددت المظاهرات في الأيام التالية، وتدفقت جحافل طلاب جامعة الملك فؤاد من الجامعة وعبرت كوبري عباس



في مشهد أسطوري، وأطلق البوليس النار عليها، فسقط كل من محمد عبد المجيد، الطالب بكلية الزراعة، ومحمد عبد الحكم الجراحي، الطالب بكلية الآداب، وعلي طه عفيفي، الطالب بكلية دار العلوم. وكان إبراهيم شكري، الطالب بكلية الزراعة وقتها، وعضو حزب مصر الفتاة من بين المتظاهرين، وسقط إلى جوار عبد الحكم الجراحي، وظن الطلاب أنه قد استشهد، فحملوه مع الشهداء إلى المستشفى، وهناك اكتشفوا أنه مازال على قيد الحياة، ليكتسب بعدها اللقب الذي لازمه طوال حياته..الشهيد الحي..

وامتدت الثورة إلى مدن ومحافظات مصر، وكانت على أوجها في طنطا.. وسقط عبد الحليم عبد المقصود الطالب بالمعهد الديني بطنطا شهيدًا .

■ ■ ■

ولم يكن يوسف باشا كمال بعيدًا عن الحركة الوطنية في أرجاء مصر، فلما تزعم سعد زغلول ثورته الوطنية عام ١٩١٩ أيدها الأمير وساندها، وظل مناصرًا لحركة الطلاب في الجامعة، وحقنت تبرعاته لجامعة فؤاد الأول عروق الملك وأعوانه بالغليان، حتى إنه أيضًا وبجرأة لا توافق هوى القصر رأس أول احتفال في ذكرى ثورة ١٩٣٥ ، وذلك في فندق الكونتننتال، وأبدع فيه بخطبة ثورية، كانت أول خطبة في نوعها يخطبها أمير للشعب.. مما أشعل غضب الملك على ابن عمه .

غير أن الأمير يوسف كمال تولي رئاسة النقابة الزراعية العامة في عهد الملك فؤاد، وأخذ صف الفلاحين والمزارعين ضد القصر الملكي، والحكومة.. فباتت العلاقة بينه وبين الملك محفوفة بأواصر الضيق والنفور.

■■■

عاد الباشا في هذا الوقت العصيب إلى قصره في ستانلي بالإسكندرية، ولم يكن من عادته أن يزوره في شهور الشتاء، لكن قلقه الزاحف، جعل روح المغامر داخلة تتولد من جديد، فقد مرت شهور طويلة.. وحادثة الكوخ يستشيط بها أهالي النجع، ولابد أن يبحث بنفسه عن آرام.. وأول ما ارتأته عيناه على عتبات قصره زوجته المحبة الأميرة كريمة، وقد أسرفت في عناقه الحار، لتستقبل بحنانها الرائع.. رفيق رحلة الحياة بعد غيبة طويلة، وهمست الأميرة في أذن البرنس بدعابة رقيقة.. مش هتسافر لوحدك تاني.. رجلي على رجلك بعد كده.. فضحك الأمير واغتبط مسرورًا وهو يوافق على اقتراح الأميرة، فهو أيضًا اكتشف أنه لا يقوى على مفارقتها لحظة واحدة.

واستقبل طوسون الباشا أيضًا على عتبات القصر، ولم يبتغِ الأمير أن يضيع مزيدًا من الوقت، فقبض بكفه على معصمَ طوسون، وجذبه نحو غرفة مكتبه بالقصر. كان الباشا يريد أن يستفسر منه على آخر التطورات في حادثة الكوخ.. لكن طوسون

أفرغ معلوماته على مسامع الباشا بما كان كفيلًا أن يلقي في قلبه التوتر والذعر، وأكثر ما كان مقلقًا.. هي تلك الحالة التي تمكنت من النجع، فخرجت مشاعل الفتنة بين المسلمين والأقباط لتفرض سخونتها ولهيبها على المشهد من جديد.. علاوة على تلك الغضبة التي تملكت الشيخ عبد الرحيم الهواري لاتهام نجله عمار، فأوقع بسلطان قبيلته القوية قلب النجع بين رحى غضبه من ناحية، وبين ممارسات لا يعترف من خلالها بالقانون أو من ينفذه.. خرج الشيخ عن هدوئه.. وما عاد يستجيب لاستدعاءات مأمور المركز.. وعزل نفسه عن المشاركة في مناسبات النجع، وبدا أنه قرر أن يقتصر بمملكته عن الناس والأرض .

لكن الشيخ عبد الرحيم لم يكن ليترك الحقيقة تذوب بهذه الطريقة، وإن كانت لم تظهر، فهذا شيء يقلقه كثيرًا، فسوف يبقى الهوارية في دائرة الاتهام وهو ما كان لا يقبله، لذلك أصر الشيخ بعناده المعروف على أن يقوم هو بدور الحكومة.. فلم يكن أمامه لرد كرامته سوى أن يبحث بنفسه عن الدكتور ألفونس.. وأن يواري هذا الغطاء الذي يخفي الحقيقة من ورائه .

■ ■ ■

(١١)

ضاق النجع بحادثة الكوخ، وباتت حالة التشكك هي التي تسيطر على الأجواء مع طيلة الغيبة التي نالت من الدكتور ألفونس سماحة، فقد تذمرت المطرانية لعجز مأمور المركز أن يصل لمكان اختفاء الطبيب المشهور، أو على أقل تقدير جثته إذا كان قد ألم به مكروه . وفي نفس الوقت دارت طواحين الفتنة في النجع، فقامت مظاهرات عمال مصنع السكر ولم تقعد، لتوجيه أصابع الاتهام لواحد من عماله، ورغم أنه لم يكن هناك أي دليل وراء هذا الاتهام سوى تلك المشادة المؤسفة التي جرت في حفل عبد الوهاب وسامي الشوا، إلا أن العمال الأقباط بالمصنع لم يتوقفوا عن اتهام عطوة أبو اليزيد، وهم يعلمون حقيقة تواطؤه مع رجال الاحتلال البريطاني، وشاطت غضبتهم وطالبوا بمحاكمته، واعتبروا أن يوم توجيه الاتهام له، هو ذلك اليوم الذي لم يعد في وسعهم احتمال وجوده في المصنع، وبالطبع كان هناك من أعوان الاحتلال البريطاني من يسكب الزيت على النار المشتعلة ليزيدها اشتعالاً، فقد ضاق صدر الاحتلال بتلك الروح المتينة التي تملكت أجساد المسلمين والأقباط في ثورة ١٩١٩، ومن بعدها ثورة ١٩٣٥،

وباتت هذه اللُّحمة بين عنصري الأمة، شيئًا غير مرغوب فيه، وبدأ الاحتلال من خلال أعوانه يزرع الفتنة بين المسلمين والأقباط في كافة أرجاء مصر، ولم يُفوِّت بالطبع تلك الفرصة السانحة المتمثلة في حادثة الكوخ ليبث نيران حقده، ويمعن في التفرقة بين من تحابوا زمانًا طويلًا، وعاشوا تحت مظلة الوطن في أخوة، حتى طالهم ما طالهم من تدخل تلك اليد الأجنبية في شئون المصريين .

وكانت الأحوال في نجع حمادي تنذر بالخراب، فقد امتلأت الأجواء بسحاب الفتنة الملبد بالغيوم، وتقريبًا انقطعت المعاملات التجارية بين المسلمين والأقباط، واستغل قطاع الطرق والنهابون تلك الفتنة، ليوسعوا نشاطهم في القتل والسرقة والخطف، بينما يبث شياطين الفتنة أسبابهم المختلقة لينسبوا هذا الحادث إلى واحد من الفريقين، فإذا كان الضحية قبطيًّا، هَيئوا للجميع أن الجاني مسلم، وإذا كان الضحية مسلمًا، أسرفوا في توجيه الاتهام لأحد الأقباط.. ولم يمر يوم حتى يتصدع النجع بالصراعات القبلية والدينية، فتهدم البيوت، وتشتعل الحرائق في الأخضر واليابس انتقامًا لفتنة مزروعة دخيلة لا حقيقة لها ولا دور.. وكل ساعة يسمع أهالي النجع أن فلانًا القبطي خطفه المسلمون، أو أن فلانًا المسلم.. حرق الأقباط أرضه وزرعه.. وبات الزمان والمكان أشبه ببروفة مبكرة ليوم قيامة المصريين .

في هذا الوقت قرر الشيخ عبد الرحيم الهواري أن يلتقي غريمه التقليدي الشيخ سليمان النديم، شيخ قبائل العرب، وارتأى الشيخ

الهـواري أن الأمر جلل بأكثر مما يحتمـل هذه الفرقة التي جمعت بيـن الندين، ولذلك بادر بزيارة النديـم، وكانت مفاجأة لم يتوقعها الأخيـر.. وكان وقعها كفيل بأن يذيـب ولو مؤقتًا هذا الخلاف بين الغريمين، على الأقل حتى يثبت كل منهما حسن نواياه، لكن الشيخ الهواري تحدث بجدية معتادة منه وهو يعنف سـليمان النديم حين تشكك في نواياه.. قائلًا بغضب:

- جرى إيه يا شـيخ سـليمان.. أنا جيت لحـد دارك.. النجع بيتحرق.. ونار الفتنة هتقضى علينا كلنا ..

وبـد أن الشـيخ سـليمان تلمس الصدق فـي حديـث الهوارية، فأجاب بحذر:

- يدي في يدك يا شيخ عبد الرحيم..

ابتسـم الشيخ عبد الرحيم، وهو يربت على كتف غريمه، ويلقي بكفه في كف النديم، وهو يحتضنه بحرارة الموقف، قائلًا:

- ما خيبتش أملي فيك يا كبير.. أنا عارف إن الرجال بيظهروا في وقت الشدة .

وترأس الشـيخان اجتماعا مشـتركًا بين القبيلتيـن، وكان لعمار الهـواري قسـطًا كبيرًا فـي الحديث، فهـو تقريبًا الـذي كانت لديه معلومـات حيـة عـن القصـة برُمتها، فقـد حضـر جانبًا مـن حادثة الكوخ، ولفت نظره أيضًا تلك العلامات التي تركتها أقدام الخيول الزاحفـة مـن ناحيـة الجبل، وهـي نفس الملاحظة التي اكتشـفها



المأمور رفعت الضو، ولذلك تنبهوا إلى هذا الطرف الثالث الذي لـم يفكروا فيه على الإطـلاق، فربما يكون وراء الجريمة دافع آخر لـم يخطر ببال أحد من قبل، ومكمن سـر هـذا الطرف الثالث تأتي رياحه من ناحية الجبل .

واتفق كبار الهوارة والعرب على شن حملة كبيرة على الجبل!!.

ولـم يغب عن الجميع أن هذا الجبل هو مأوى لعصابات النجع والخارجيـن عـن القانون، والهاربيـن من الثأر، وتلـك العصابات اعتـادت أن تُروع الأهالي، فأسـرفت في حوادث السـطو والبطش والقتل، ومن حين لآخر كانت تشن هجماتها في قلب الليل البهيم لتسـطو على المتاجر والمحلات، أو تسـرق المواشـي من زرائب الفلاحيـن الفقـراء تحـت تحديـد السـلاح مسـتغلين عتمـة الليل وسـكونه المرعـب، أو تشـعل الحرائـق فـي الحقـول والزراعات الخضراء الشاسعة حين يرفض الفلاحون من أصحابها أن يسددوا الجبايـة التي فرضها عليهم مطاريـد الجبل. وفاض الكيل بالناس، وبالطبـع كان الأهالـي ينظـرون إلى الشـيخ عبد الرحيـم الهواري والشـيخ سـليمان النديـم علـى أن أمنهم وسـلامتهم من مسـئولية الرجليـن، حتـى وإن لـم ينطـق الناس بذلـك صراحـة، لكن حال الشـيخين ووضعهـم، وحـال زعامتهـم التـي تفرض نفسـها على الأحداث والظروف.. وعلى أرض الواقع، كان يدفع بمسـئوليتهم عن سـلامة الضعفـاء، وحمايتهم.. وحين فكر الشـيخ عبد الرحيم أن يشـن حربه على مطاريد الجبل، لـم يتردد في تحالفه مع الشـيخ

سـليمان. وواتفـق الرجـلان علـى أن ثمة بـوادر من فك شـفرة ما يحدث.. سـيكون من ناحية جبـل المطاريد.. لهذا لـم يشـهد قرار شن الحرب أي تردد أو تروى .

كانت حربًا حقيقية، واتفقت القبيلتان على تكوين جيش بمعنى الكلمـة من ألف رجل مـن رجال القبائل الصغيـرة التي تقع تحت إمرتهم، علاوة على أن الغلبة فيهم ستكون لرجال الهوارة والعرب أنفسـهم، وقَبل الشـيخ سـليمان أن يتولى عمار الهواري قيادة هذه الحـرب، وهيأت لهذه المعركـة كل عتادها، فتم إمداد هذا الجيش بالخيـول والنياق التي تمكن الرجل من اقتحام الجبل، عِلاوة على مئـات من البنادق وخزائن البارود والخرطوش، وكان من المتوقع أن تسـتمر تلك الحملة أيامًا طويلـة، لذلك خصصت بعض النوق لحمل الغذاء والماء الذي يكفي هذا الجيش المهيب لمدة أسـبوع على الأقل .

وقـرر عمار الهـواري أن ينطلق نحو جبـل المطاريد في جوف الليـل، سـيرًا بخطى هادئة لا يتكشـف معها صـوت أو أثر، وحين يقتـرب مـن منطقة الهجـوم، يضيـيء مشـاعل النار لتكشـف لهم الأغـوار والكهـوف، لذلـك لـم ينسَ عمـار أن يسـتعين برجاله من العـرب الذين كانـت لهم خبرتهم فـي الدروب وطرق السـير غير المألوفـة نحـو الجبـل.. ولما حان وقـت الانطـلاق كان في وداع هـذا الجيش القبائلي الشـيخ عبد الرحيم والشـيخ سـليمان، وهما

يحشـذان الهمـم ولا يقبـلان بشـيء سـوى القضـاء علـى مطاريد الجبل، وكشف هذا الطرف الثالث الذي جرى حدثهم وراءه .

■■■

كان الأرمـن في الإسـكندرية فقـط قد زاد عددهم عن العشـرة آلاف في ذلك الوقت، لهذا لـم تكن مهمة يوسـف باشـا سـهلة في البحـث عـن آرام. فقد شـهد عصر محمد علي فتـرة ذهبية للأرمن فـي مصـر عمومًا والإسـكندرية خصوصًـا، وتكاثروا بشـدة هناك نظرا لاشتغالهم بالتجارة واسـتقرار بوغوص بك يوسفيان- الأب الروحـي للأرمـن- هنـاك بعـد أن قلـده محمد علي منصبَ ناظر ديوان التجارة، وبالطبع أدت هذه الكثافة إلى بناء كنيسـة ومدرسـة لهم في شارع أبو الدرداء، وتمركزوا في المناطق المحيطة به. وفي النصف الثاني من القرن التاسـع عشـر فإن عروس البحر المتوسط فتحت ذراعيها لهم حين فروا إليها من الاضطهادات العثمانية ضد المد الثوري القومي الأرمني.

وترك بعضهـم الثغر إلى القاهرة بعد ذلـك، وبقي الآخرون في رحاب وضيافة سيدة الموانئ والمدن المصرية. ثم تلاحقت أمواج الهجرة الأرمنية الموجة تلو الأخرى مستقرة على شواطئ الثغر إثر تعـرض الأرمن في الدولة العثمانية للإبادة على أيدي الاتحاديين، بغرض تنفيذ مشروعهم في تكوين دولة تركية نقية الدماء.

وفي ذلك الوقت الذي بدأ فيه البرنس في البحث عن آرام، كان يعـرف جيدًا أن الأرمن في الإسـكندرية قد توزعـوا على أحيائها، فاسـتقروا فـي كرمـوز، والمنشـية، واللبـان، والعطاريـن، ومحرم بـك، والجمـرك، والرمـل، وميـنا البصـل ... وكان يـدرك أن آرام يعشـق الإسـكندرية، ويرتـاح إليها، فعائلته فـي الأصل نزحت من منطقـة أزمير وضواحيها. ويرجع ذلك إلـى التماثل التام بين أزمير والإسـكندرية، فكلاهمـا ذو طابع عالمي وتركيبة سـكانية متعددة الأعـراق وثقـل سياسـي وحضـاري واقتصـادي وبنـاء اجتماعي متقارب ومتشابه، بالإضافة إلى تأثير البحر على الناس.. وهو تأثير لا يمكن أن يسـلاه من عاش في عبقه.. لذلك اقتنع يوسـف باشـا بـأن آرام لن يتـرك الثغر إلى القاهرة مثل كثير من الأرمن، ولابد أنه مختـفٍ في أحـد أحيائها، وأن عليـه أن يبدأ بالبحـث عنه في تلك الأحياء.

وفوض الباشا سـكرتيره الخاص طوسون بهذه المهمة، ورسم له خطة البحث عن آرام، بدأها بالكنيسـة الكاثوليكية، والاسـتعانة بشـيوخ الحارات في أحياء الإسـكندرية المختلفـة، بالإضافة إلى البحـث عنه فـي المصانـع والشـركات والمتاجـر التـي يعمل بها الأرمن وخاصة في الشـئون المالية، وبدا أن المهمة شـاقة بالنسـبة لطوسون فهو كمن يبحث عن إبرة في كوم من القش!!.

■ ■ ■

وصـل عمار الهواري بجيشـه إلـى منطقة الهجـوم في منتصف جبل المطاريد، وأعطى أوامره لتضاء المشـاعل بالنار، وفجأة وفي لمح البصر انقلب الليل الصارم إلى صُبح كاشـف، وكأن الشـمس قد أخطأت وقت شروقها المعتاد كل يوم، لتقرر أن تسطع بضوئها فـي هـذه اللحظـة، واكتشـف ناضورجيـة المطاريد هـذا الهجوم المباغـت، فانطلقـت أصـوات النفيـر لتصـدح في السـماء، وهي وظيفة اعتاد القيام بها الناضورجية والكشافون الذين أخذوا مواقع مختلفـة فوق الجبـل لمراقبة أي هجوم محتمـل على الجبل، وفي لحظـة خـرج المطاريد مـن مغاراتهم فـي حضن الجبـل وصوبوا بنادقهـم نحـو هذا الهجـوم المباغت، لكـن عمار الهـواري البارع فـي فنون القتال والمناورة، كان قد قسـم جيشـه إلى ثلاثة أقسـام، فجعـل أحدهـم يواجه من ناحية السـفح، والثاني مـن الخلف، أما الأخير فقد سلك به دربًا خفيًا، كان قد أشار عليه به أحد الكشافين، ومـن خلاله تمكن من الاقتراب مـن مغارة زعيم المطاريد دون أن يكـون متوقعًا أن يأتي الهجوم من ناحيته، وجعل عمار نفسـه على القسـم الأول الذي يواجه من اتجاه السـفح، وفي لحظات سـريعة أمـر رجاله بالهجوم الكاسـح، حتى تمكن من أن يسـقط عشـرات المطاريـد قتلى، واسـتطاع أن يحسـن موقفه، فاقترب إلى مسـاحة أقرب من القمة ومتاخمة لمغارة زعيم المطاريد، وفي نفس الوقت يسهل فيها التقاءه بالجزء الأخير من جيشه .

واستمرت المعركة يومين كاملين، أحسن فيها عمار في قياده جيشه، وأسقط مائتي رجل من المطاريد، وأرداهم قتلى، وبدا أن قوة المطاريد قد خارت، وفقد زعيمهم السيطرة على رجاله، فبدأ الكثير منهم في الفرار بحركات فردية، وكلما حاول بعضهم الهروب، اقتنصته بنادق الهوارة والعرب.. حتى حاصر عمار زعيم المطاريد في مغارته في تلك المساحة الوعرة القريبة من قمة الجبل، وتحصن رجل المطاريد الأول بآخر رجاله، بينما التقى عمار بقسمه، بهذا القسم الأخير من الجيش على مقربة من المغارة، في حين ترك الجزء الثاني من الجيش لتأمينهم من الخلف .

ولم يكن اقتحام مغارة زعيم المطاريد أمرًا يسيرًا، لذلك استمر الحصار ثلاثة أيام كاملة، وخارت قوى المطاريد تمامًا، وانقطع عنهم الزاد والماء، وبات من الوشيك أن يخرج زعيمهم بحركة انتحارية يحاول من خلالها أن ينقذ ما يمكن إنقاذه..

■ ■ ■

كانت المفاجأة مدوية، فقد نمى إلى علم طوسون أن آرام يتردد على الكنيسة الأرثوذكسية بالإسكندرية، وشك أحد شيوخ الحارات في شاب لم يعتد أن يراه مترددًا على تلك الكنيسة، وكانت مواصفاته تتطابق مع تلك المواصفات التي أبلغه بها طوسون، فأبلغ شكه إلى سكرتير الأمير الخاص، فأسرع طوسون متخفيًا وراء شجرة ضخمة يطل الناظر من ورائها على مدخل



الكنيسة وجزء من بهوها الخارجي، وانتظر خروج آرام.. وبالفعل لم تمر ساعة، حتى كان آرام بشحمه ولحمه أمام طوسون، وحين أكد لشيخ الحارة أن هذا هو الشخص المطلوب، هم الرجل بسرعة ليقبض عليه، لكن طوسون منعه، وقرر أن يراقبه ليعرف وجهته، وكان يقصد بالطبع مسكنه ومكان عمله .

وقبل غروب الشمس، جمع طوسون كل المعلومات التي يريدها، فقد تتبع بدقه خطى آرام، وراقبه رقابة شديدة، حتى وصل إلى مقر سكنه، في حارة ضيقة غير مشهورة، من حارات وأزقة حي كرموز الشهير.. لكنه لم يتمكن من أن يجمع أي معلومة أخرى عن مكان عمله، فقد أحاط آرام نفسه بشيء من الغموض.. فهو لم يخطر أحدًا من جيرانه بهويته أو أي معلومات عن حياته، وانزوى وكان شبه منعزل عن العالم من حوله .

وحمل طوسون كل هذه المعلومات إلى الباشا، فانتابته أواصر السرور والسعادة، وكأنه وقع على صيد ثمين.. لكنه تعجب من تردد آرام على الكنيسة الأرثوذكسية، فهو يعرف أنه كاثوليكي.. لكن دقائق من التفكير جعلته يتوقع أن يكون الشاب قد غيَّر ملته لتتوافق مع ملة معشوقته بتول، فلم يتوقع الأمير يومًا أن ينتهي الحب بينهما هذه النهاية الغريبة، بل كان توقعه أن للحكاية فصول أخرى.. لكن الأيام ستكشفها .

■ ■ ■

كان شـك الشـيخ عبد الرحيم الهواري في محله، حين فكر في طـرف ثالث وراء حادثة الكـوخ، وحين وصل نجله عمار إلى هذه المرحلـة من النصر والسـيطرة على ميدان المعركة، أوفد مرسـالًا لأبيـه، فقـرر الشـيخ عبـد الرحيـم أن يصعـد الجبل ليحسـم نهاية المعركة بنفسـه.. وبينما يقبع الشـيخ الهواري في خيمة على مقربة من باب المغارة المحاصرة، دلف رجلان من المطاريد وقد اتسما بالقوة والعنف، وفي مفاجأة مذهلة، ظهر الدكتور ألفونس أمامهما، وقـد أوثقوا ذراعيه خلف ظهره، وهـم يجرونه جرًّا، ويدفعونه دفعًا فـي مقدمتهـم، وهَم عمـار برد فعـل غير محسـوب ليطلـق بارود بندقيته نحوهما، فأشـار إليه الشـيخ عبد الرحيم ليتوقف، بينما بدا الدكتور ألفونس منهكًا.. ومتعبًا.

وكان الطبيـب الأشـهر في النجـع قد فقد جزءًا كبيـرًا من وزنه، وارتسـم عليه الإعياء، وظهر في حالة أشـبه بحطام إنسان، أشعث الشعر، وقد طالت لحيته بشكل عشوائي، بينما لـم يكن يقوى على حمل جسده فوق سيقانه.

وصـاح أحـد الرجلين مـن المطاريد قائلًا بغضـب متفجر وهو يصوب فوهة مسدس في رأس الدكتور ألفونس:

- خطوة واحدة قدام.. وهافرغ البارود في دماغ الدكتور..

صاح الشيخ عبد الرحيم غاضبًا، من أمام خيمته:



- لـو دبانة مسـت الحكيم ألفونـس.. هندمر المغـارة باللي فيها (اسـتطرد بحسـم القائد) عال واللـه.. مطاريد الجبل بيتطاولـوا على أسـيادهـم.. (صارخًـا) سـلموا الدكتور.. وإلا هنجيب عاليها واطيها ..

يـرد رجل المطاريد بلا مبالاة وهو يدقق في المشـهد من حوله ويمر ببصره على عشرات الجثث الراقدة في مرمى بصره:

- الدكتـور مش هيتدلى من هنا قبل مـا تدفعوا ديته، وفوقيها ديـة كل الرجالـة اللي ماتوا يا كبير.. عايزين عشـرين ألف جنيه.. من غير كلام ولا حديت..

صاح الشـيخ عبد الرحيم غاضبًا.. صيحة ملأت أرجاء المكان بالذعر.. فشعر رجال المطاريد بالرعب يلقى في قلوبهم:

- كلا... اااا... اااا.. ب...

وبينمـا يـدور الحديث بيـن كبير الهـوارة والمطاريد.. في شـد وجـذب ..أشـار عمـار إلى خمسـة من رجالـه الأقويـاء بنظرة من عينيه الثاقبتين، ثـم أومأ إليهم برأسـه ناحية مدخل المغارة.. فتسلل الرجال الخمسـة بخفة الثعالب، وتسـلقوا صخـور الجبل دون أن يلحظهـم أحد، حتى اسـتقروا على صخرة أعلى مدخـل المغارة، بحيث كان رجـلا المطاريد وبينهم الدكتـور ألفونس في منخفض منهم، ولما شعر عمار بتمكن رجاله من فوق هذه الصخرة العالية، وبينما يسـتمر الشـيخ عبد الرحيم في إلهائهم، أشـار عمار لرجاله

فأخرجـوا بنادقهـم، وصرخوا صرختهم المدوية من أعلى، فأشـاح رجـلا المطاريد بوجوهِهم لأعلى بحثًا عـن مصدر الصوت، لكن عيونهم كانت على موعد لترى الموت محلقًا من فوقهم، وبسرعة مباغته أطلق الرجال الخمسة خرطوش بنادقهم على رأس الرجلين فأردوهمـا قتيلين في الحال، في حين أسـرع عمار ورجاله باقتحام المغـارة.. وحمل رجلان مـن الهوارة الدكتـور ألفونس إلى موقع خيمة الشيخ عبد الرحيم، فاندفع الشيخ نحو الطبيب وهو يمد يديه نحـوه بتوتـر وقلق على حياتـه، بينما طلقات البـارود تدوي داخل المغارة، فقد كُتبت نهاية المطاريد للأبد في هذه اللحظة .

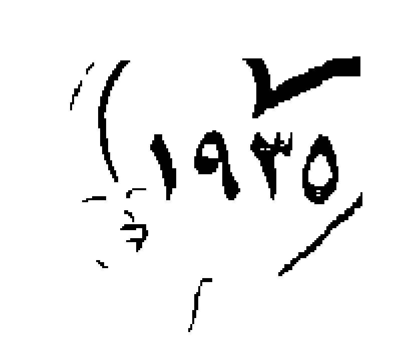
■ ■ ■

(١٢)

شعر الشيخ عبد الرحيم الهواري بأنه حقق انتصارًا عظيمًا، رد به كرامة الهوارة التي تأثرت كثيرًا، بعد أن وضع المأمور رفعت الضو ولده عمار في دائرة الاتهام، فنظر إلى الدكتور ألفونس بابتسامة الواثق قائلًا:

- حمد الله على سلامتك يا دكتوور ...

رد الفونس بشيء من حفظ الجميل، وأثنى على فعل الشيخ همام ورجاله، وكان الشيخ قد استقبل ألفونس في خيمته، ثم أوسع عليه من وليمة طلب إعدادها في الحال لضيافة طبيب النجع الأشهر، وكان ألفونس يرتدي ملابس رثة، ويبدو عليه الإعياء الشديد، غير أن نفسيته قد شابها شيء من التأثر، لشدة ما عانى من إهانة على أيادي المطاريد، لذلك قرر كبير الهوارة ألا يهبط بألفونس إلى النجع قبل أن يتعافى قليلًا، فأمر له بملابس جديدة ليغير ملابسه الرثة.. ثم التف معه حول الوليمة، ليتناولا سويًّا طعام الغذاء، وبدأ الشيخ عبد الرحيم في توجيه أسئلته عن حادثة الكوخ لألفونس، والأخير يجيب بدقة واستفاضة. وكانت التفاصيل التي



أعلنها ألفونس قد كشفت عن حقيقة ما حدث، فهو قد ذهب لكوخ آرام ليعاتبه على ارتباطه ببتول، طالبًا منه أن يبتعد عنها وأن ينهي هذه العلاقة فورًا، وصحيح أن آرام قاوم هذه الفكرة، لكنه على حد قول ألفونس لم يفكر نهائيًا في الاعتداء عليه، بل على العكس.. أكد ألفونس أنه هو الذي ألمت به حالة غضب، أفقدته السيطرة على نفسه.. حتى إنه أخرج مسدسه، وصوب فوهته تجاه الفونس، وبالفعل أطلق رصاصة نحوه، لكنها لم تصبه .

وفي الوقت الذي يدور فيه الحديث بين الشد والجذب، هاجم الكوخ مطاريد الجبل، ويبدوا أنهم كانوا يتتبعون خطى الدكتور ألفونس، فقد عزموا منذ فترة أن يخطفوه مطالبين بفدية لإطلاق سراحه، وبالفعل اقتحموا الكوخ، ووقتها حاول آرام أن يدافع عن ألفونس، وأن ينقذ كوخه من هذا الهجوم المباغت، لكن أحد المطاريد نصح بقتله حتى لا يكون شاهدًا عليهم، ولما هَمّوا لتنفيذ تلك الفكرة، تمكن آرام بمباغتتهم وبحركاتة البهلوانية السريعة أفقدهم السيطرة على الموقف، وفر منطلقًا تاركًا الكوخ بمن فيه، وعلى أثر ذلك أطلق المطاريد أعيرتهم النارية في السماء لإرهاب آرام، ودوى صوتها في سماء النجع في تلك اللحظات من الليل المعتم، وهو ما أيقظ الهوارة، وأقلق مضاجعهم، وخرج عمار مع بعض رجاله نحو الكوخ ليتفقد الأمر ...

لكن سؤالًا كان يراود عقل الشيخ عبد الرحيم طيلة هذا الوقت الذي استمع فيه لتفاصيل الأحداث من الدكتور ألفونس، وهو..

لماذا اختفى آرام.. ولماذا لم يفكر أن يذهب لمأمور النجع ليخبره بما حدث؟ وجاءت الإجابة على لسان ألفونس، الذي قال لكبير الهوارة إنه طيلة هذه المدة التي وقع فيها أسيرًا في جبل المطاريد، كان يسمعهم يتحدثون عن آرام، ويتوعدونه بالموت.. وكثيرًا ما أوفد زعيمهم أسرابًا منهم نحو الكوخ وفي كل مكان.. يبحثون عنه.. ويتتبعون آثاره وأخباره.. وكانت الأوامر واضحة.. وهي تصفيته جسديًّا وبأسرع وقت ممكن..

صمت قليلًا الدكتور ألفونس.. وأخذ يتدبر الأمر وهو يراجع شريط الأحداث، ثم قال بتروٍّ وهدوء:

- أكيد.. آرام هرب.. من النجع كله.. (مستطردًا) شيء طبيعي يخاف على حياته!.

وطلب الشيخ عبد الرحيم من ولده عمار أن يعد زفة شعبية كبرى يستقبل بها النجع جيش الهمايمة والعرب المنتصر، على أن يتصدر موكب الاحتفال الدكتور ألفونس . وكان كبير الهوارة سعيدًا بانتصاره، والأهم سعادته بإنقاذ ألفونس حيًّا.. والأسباب واضحة ومعروفة.. أولها أن تحريك جيش بهذا القدر لإنقاذ مدير المستشفى، هو أبلغ رد على من يوقدون مشاعل الفتنة بين المسلمين والأقباط من نافخي الكير.. فقبائل الهوارة والعرب من المسلمين قد جيشوا ألف رجل لإنقاذ طبيب النجع القبطي، والسبب الآخر.. أن الدكتور ألفونس.. حي.. يرزق ... وهو الوحيد الذي يمكنه أن يقص تفاصيل حادثة الكوخ لمأمور

النجع.. تمامًا كما قصها للشيخ الهواري.. وبهذا يتبرأ ولده عمار تمامًا من هذه الحكاية برمتها ..

والشيء الأهم أن الشيخ عبد الرحيم قد أنقذ النجع كله من شر المطاريد.. ونجح فيما عجزت عنه الحكومة بكل قدراتها.. لذلك كان من الطبيعي أن يوَثِّق كبير الهوارة نفسه في التاريخ بهذا النصر الكبير... الذي يزيد من شعبيته ويجعل منه رجل الصعيد الأقوى والأهم.

■ ■ ■

التقى الأمير يوسف كمال بآرام.. بعدما فاجأه ذات يوم.. وهو يدلف خارجًا من الكنيسة الأرثوذكسية بالإسكندرية.. ورغم أن اللقاء كان حارًا.. وأن وقع المفاجأة جعل آرام يلقي برأسه على صدر الباشا باكيًا ومنتحبًا بشدة، وكأنه وجد فجأة المنقذ الذي سيخرجه من هذا اليم الذي ألقى فيه نفسه.. إلا أن الأمير كان منزعجًا.. وكسَّت غضبته معالم وجهه.. وأوسع آرام لومًا وعتابًا.. فكيف يترك أموال الدائرة ودفاترها ويفر هاربًا دون أن يفكر فيما يمكن أن تتعرض لها أحوال الدائرة اليوسفية! وكيف لم يفكر في أنه يضع الباشا في موقف محرج للغاية، باعتباره من مستوظفيه.. ألم يتنبه إلى احتمال أن يعتقد الناس أن يوسف باشا وراء هروب موظفه؟ وإذا كان آرام بريء حقًّا.. وأنه كما أخبر الباشا.. قد فر من النجع خوفًا من انتقام المطاريد، فلماذا لم يتوجه إلى قصر الباشا،

ويطلب منه الحماية، وبالتأكيد، كان البرنس كفيلًا بحمايته والدفاع عنه؟!!.

كلها أسئلة كانت تزعج يوسف باشا كثيرًا، وتتردد على مخيلته، وكانت تبعث في قلبه الشك تجاه آرام الذي أساء التصرف ... ولم يكـن أمام الشـاب أي تبرير مُقنع يسـتطيع أن يحفظ بـه ماء وجهه، لذلك لم يتقبل البرنس اعتذاره.. وطلب منه نسيان علاقته بالدائرة اليوسـفية نهائيًّا.. حتى لو انتهت حادثـة الكوخ بقطع تلك الأيادي التي أشـارت إليـه بأصابع الاتهام.. فقـد بدا واضحًـا أن المياه لن تعـود لمجاريهـا بين آرام وسـيده، وبـدا أيضًا أن صدمة الباشـا في موظفـه عميقة.. وأن جذورها قد تشـعبت.. لدرجة لا يمكن معها تجاوز الموقف ..

وانتفض الباشـا.. واقفًا، وكأنـه بوقفته الصارمـة يخطط لإنهاء المقابلة فورًا، وتحدث بجديته المعروفة قائلًا:

- بكـره يا آرام.. الحقيقة هتظهر.. واللي بتخفيه النهارده ... هتفـوح ريحته قريبًا.. أو بعيـدًا ... المهم إن الحقيقة لازم تبان ..

وحسـم الباشـا اللقاء.. وخطا المسـافة حتى سـيارته بخطوات قاطعـة لا تقبل التردد، بينما يتابعه آرام بنظـرات عينيه وقد أحاطها ذبول الصدمة..

■ ■ ■



نزل الشيخ عبد الرحيم الهواري من جبل المطاريد في موكب مهيب بالفعل، فقد حرص على أن يشارك فيه كل رجال معركته مع المطاريد.. ألف رجل.. بخلاف الخيل والنوق.. وبينما استقل كبير الهوارة بصحبة الشيخ سليمان النديم كبير العرب عربة تجرها الخيول، تسير في مقدمة الركب، كان يتبعهما الدكتور ألفونس سماحة مستقرًّا في هودج منيف فوق ناقة، وفي تهدلها وميلها يمينًا ويسارًا.. كأنها تعلن فرحتها بتراقصها على نجاة طبيب النجع وحكيمه. بينما جاء تاليًا لناقة الهودج رجال الجيش، وفي الخلف ما تبقى من المطاريد وقد أسرهم جيش عمار الهواري وأوثقهم بقيود محكمة، وجاء بهم جرًّا من قمة الجبل حتى أرض النجع .

وبينما يصطف الأهالي وهم يهللون مرحبين بنصرة جيش الهوارة على مطاريد الجبل، كان من بينهم كبار النجع.. وتوسطهم المأمور رفعت الضو، وعمدة النجع، ومطران الكنيسة، وشيخ الجامع الكبير.. وغيرهم من الأعيان.. ولم ينتظر الأهالي أن يسلم عمار الهواري الأسرى إلى المأمور.. بل أوسعوهم ضربًا، وألقوا عليهم الحجارة، وعلت أصوات النساء بزغاريد الفرحة.. لتملأ السماء بصداها المعطر بالأمان، بعدما طغى صوت البارود سنوات طويلة ماضية .

وتوقف الموكب أمام المأمور والأعيان.. وهبط الدكتور ألفونس من فوق هودجه، وارتمى في أحضان المطران متى باكيًا ... ثم عانقه الشيخ إبراهيم سلامة.. عناقًا حارًّا.. وحين جاء دور الشيخ عبد الرحيم الهواري.. ووصل لمصافحة رفعت الضو..

مأمـور المركـز.. شـعر بالغليان يتفجر فـي عروقـه.. وأمعن النظر لائمًا للمأمور.. ثم أشار لرجاله قائلاً بشيء من الاستخفاف:

- سـلموا المطاريد.. لجناب المأمور.. يا ريت يفهم.. كيف الكبار ممكن يعملوا!!

ثم أشـار للدكتـور ألفونس، واسـتطرد قائلًا وهـو يوجه حديثه لكبار البلد ومأمور المركز:

- اتفضـل يـا دكتـور ألفونس.. بلـدك وبيتك فـي انتظارك يا غالـي (صائحًـا وهو ينظر للمأمور نظـرة ثاقبة غاضبة) من اليـوم إنـت في حمايتنا يا غالي ... طـول ما الحكومة مش عارفـة تحمي اللـي زيك ...(مسـتطردًا) مـش فاضية غير لرمي بلاويها على الناس ... يا خسارة ... يا خسارة يا بلد.

يشـعر المأمور بأن حديث الشـيخ عبد الرحيم موجهًا إليه، وأنه يجب أن يكون له أي رد فعل حتى يحافظ على ماء وجهه، فاشتاط غضبًا.. وقال:

- تقصد مين يا شيخ عبد الرحيم؟!! إياك ....

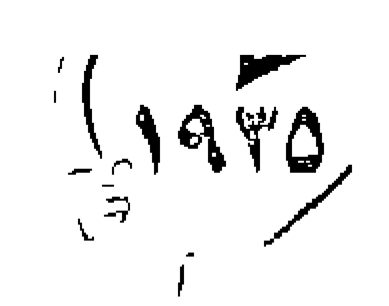
قاطعه الشيخ عبد الرحيم غاضبًا.. والشرر يتطاير من عينيه:

- مـش عبد الرحيـم الهواري اللـي يتهدد يا جنـاب المأمور ..(سـاخطًا) الكلام ده تقوله لشوية المطاريد دول (مشيرًا لهـم) اللـي جبناهم هدية ليكوا.. بدل ما تتعبوا نفسـكوا يا حكومة وتشـوفوا شـغلكوا ... (بحسـم وغضب) فاهم يا جناب المأمور.. ولا أقول تاني ..

(١٣)

مرت سنوات طويلة بعد حادثة الكوخ. لكن حال النجع لم يهدأ.. وزاد الطين بلة.. حين هربت بتول من النجع لتتزوج من آرام بالإسكندرية.. وصدق توقع يوسف باشا، وأن هناك سر يخفيه آرام.. وحين تكشف الوضع.. بهروب بتول.. اتضحت أمور كثيرة.

وأصلًا كان آرام يعد عدته ليهرب مع بتول قبل حادثة الكوخ، وربما جاءت الحادثة لتجعل أمر الهروب شيئًا واقعيًّا تحتمه ظروف الحادثة، وكان كل ما يهم الفتى أن يبعد الشبهة عن نفسه وعن حبيبته.. كما كان تخمين الباشا في محله أيضًا.. حين تأكد من أن آرام غير ملته لتتوافق مع ملة بتول.. وبالتالي يمكن للكنيسة أن توافق على زواجهما دون أي اعتراض أو مانع.. وكشفت الأيام.. أن آرام راسل بتول عبر خطابات كانت تصل إليها عن طريق أحد السائقين الأرمن.. والذي كان ينقل المحاصيل عبر ناقلته من نجع حمادي إلى الإسكندرية.. وكان يلتقيها كل شهر في الحقل الذي



تعمل به.. فيقابلها خلسة أو متنكرًا، أو يبتكر أي حيلة.. والمهم في النهاية.. أن يصل الخطاب ليد بتول.

وكان الملك فؤاد الأول قد لاقى ربه بقصر القبة، وخلفه نجله فاروق.. الذي ولد ونُشئ في القاهرة كابن وحيد بين خمسة شقيقات أنجبهم الملك فؤاد الأول، ثم أكمل تعليمه بإنجلترا وأصبح وليًا للعهد وهو صغير السن، واختير له لقب أمير الصعيد.

وتولى فاروق العرش في سن صغيرة، حيث كان بالسادسة عشرة من عمره عند وفاة والده الملك فؤاد، وخلف أباه على عرش مصر بتاريخ ٢٨ أبريل عام ١٩٣٦، ولأنه كان قاصرًا، فقد تم تشكيل مجلس وصاية رأسه ابن عمه الأمير محمد علي باشا توفيق وذلك كونه أكبر أمراء الأسرة العلوية سنًّا، واستمرت مدة الوصاية ما يقارب السنة وثلاثة شهور، إلا أن الملكة نازلي والدة فاروق، خافت بأن يطمع الأمير محمد علي في الحكم، وأن يحتكره لنفسه، فحصلت على فتوى وقتها من شيخ الأزهر محمد مصطفى المراغي بأن يحسب عمره بالتاريخ الهجري، وأدّى ذلك إلى أن يتوج فاروق ملكًا رسميًّا بتاريخ ٢٩ يوليو عام ١٩٣٧، وقام بعدها بتعيين الأمير محمد علي باشا توفيق وليًا للعهد، وهو المنصب الذي ظل به حتى أنجب فاروق ابنه أحمد فؤاد.

وبعد أن صدر بيان الحكومة بوفاة الملك فؤاد وارتقاء ابنه الملك فاروق العرش وتعيين مجلس الوصاية عليه، قام حزب الوفد بتشكيل الوزارة عقب فوزه في الانتخابات البرلمانية

وطالـب بإجـراء مفاوضـات مـع بريطانيـا بشـأن جـلاء الاحتلال البريطانـي عن مصر، ولكن الحكومـة البريطانية تهربت، فاندلعت المظاهـرات، وتألفت جبهة وطنية لإعادة دسـتور ١٩٢٣، ولذلك اضطـرت بريطانيا للتراجـع والدخول في مفاوضات بقيادة السـير مايلـز لامبسـون المندوب السـامي البريطاني في مصـر ومعاونيه، وهيئـة المفاوضـات المصريـة، ولقد اشـترطت إنجلتـرا أن تكون المفاوضات مع كل الأحزاب حتى تضمن موافقة جميع الأحزاب وبالفعـل شـاركت كل الأحـزاب عدا الحـزب الوطنـي الذي رفع شـعار ..لا مفاوضـة إلا بعـد الجـلاء. وبـدأت المفاوضـات فـي القاهـرة بقصـر الزعفرانة في ٢ مارس وانتهـت بوضع معاهدة ٢٦ أغسطس ١٩٣٦ في لندن.

وكانـت أهـم بنـود المعاهـدة أن تنتقل القـوات العسـكرية من المدن المصرية إلى منطقة قناة السويس مع بقاء الجنود البريطانيين في السـودان بلا قيد أو شـرط.. مع تحديد عدد القوات البريطانية في مصر بحيث لا يزيد عن عشـرة آلاف جندي وأربعمائة طيار مع الموظفيـن اللازمين لأعمالهم الإدارية والفنية وذلك وقت السـلم فقـط، أما في حالة الحرب فلإنجلترا الحق في الزيادة وبهذا يصبح هـذا التحديد غير معترف به. ونصـت المعاهدة أيضًا على أن تبقى القـوات البريطانية في الإسـكندرية لمدة ثماني سـنوات من تاريخ بـدء المعاهـدة، ومـن حقها التحليق فـي السـماء المصرية وبنفس الحق للطائرات المصرية.



وفـي حالـة الحـرب تلتـزم الحكومـة المصريـة بتقديـم كل التسـهيلات والمسـاعدات للقوات البريطانية ومنها حق استخدام موانئ مصر ومطاراتها وطرق المواصلات بها، وبعد مرور عشرين عامًـا مـن التنفيذ، يمكـن أن يبحث الطرفـان فيمـا إذا كان الجيش المصري أصبح قادرًا على حماية حرية الملاحة في قناة السـويس وسلامتها، ومن ثم يمكن للقوات البريطانية أن تنسحب من مصر، وتبقى عصبـة الأمم هي الفيصل بين مصر وبريطانيا في أي خلاف قد ينشأ بينهما فيما بعد .

وكان من الواضح أن الاتفاقية لم تحقق الاسـتقلال المطلوب، فقد حوت في طياتها فرض أنواع من السيادة البريطانية على مصر، فألزمـت مصـر بتقديـم المسـاعدات لإنجلتـرا فـي حالـة الحرب وإنشـاء الثكنات العسـكرية التي فرضت أعباء مالية جسـيمة على ميزانيـة الدولة، ممـا يؤخر الجيش المصري، وإعـداده ليكون أداة صالحـة للدفـاع عنها، كمـا أنه بموجب هـذه المعاهـدة أصبحت السودان مستعمرة بريطانية يحرسها جنود مصريون.

ومرت الشهور والسـنين والموقف العالمي يتأزم، بينما فاروق يخـرج من شـرنقة الطفولة والمراهقة.. إلى قـدره المحتوم، وكان محمد علي باشا توفيق، ولي عهد الملك فاروق، يعد المؤمرات.. ويتحيـن الفرصـة مـن حيـن لآخر ليقفـز فيهـا على عـرش مصر، ووقتها كانت الحرب العالمية الثانية على أشـدها، وكانت القوات الألمانيـة بقيادة إرفين روميل موجودة في العلمين، وظهر الموقف

العسكري مشحونًا بالاحتمالات الخطيرة والكارثية التي يمكن أن تتأثر بها مصر، ولاتباع التقليد الدستوري الخاص بتشكيل وزارة تُرضي غالبية الشعب وتستطيع إحكام قبضة الموقف الداخلي، طلب المندوب البريطاني من الملك فاروق تأليف وزارة تحرص على الولاء لمعاهدة ١٩٣٦ نصًّا وروحًا، وأن تكون قادرة على تنفيذها وتحظى بتأييد غالبية الرأي العام، وأن يتم ذلك في موعد أقصاه ٣ فبراير ١٩٤٢.

ولذلك قام الملك باستدعاء قادة الأحزاب السياسية في محاولة لتشكيل وزارة قومية أو ائتلافية، وكانوا جميعًا عدا مصطفى النحاس مؤيدين لفكرة الوزارة الائتلافية برئاسة الملك، تحول دون انفراد حزب الوفد بالحكم خصوصًا أنه يتمتع بأغلبية في البرلمان، فطلبت المملكة المتحدة من سفيرها السير مايلز لامبسون أن يلوح باستخدام القوة أمام الملك، وفي صباح يوم ٤ فبراير ١٩٤٢، طلب السفير مقابلة رئيس الديوان الملكي أحمد حسنين باشا وسلمه إنذارًا موجهًا للملك، يحمل تهديدًا صريحًا بأنه إذا لم يعلن قبل الساعة السادسة من مساء اليوم.. أنه قد تم تكليف مصطفى النحاس بتشكيل الحكومة فإنه يجب عليه أن يتحمل تبعات ما يحدث.

وكان السفير جادًّا في هذا الإنذار، والتقى محمد علي باشا توفيق، وسأله وهو يغريه بكرسي العرش:

- محمد علي باشا.. إنت مستعد لتولي عرش مصر؟..



رد محمد علي باشا توفيق بغبطة تحمل في طياتها المكر والدهاء:

- أنا ولائي كله للتاج البريطاني.. إنت عارف كده كويس يا جناب السير لامبسون.

وابتسم لامبسون، فقد اطمأن إلى نوايا ولي العهد، وتيقن أن خطته في إعداد من يحتل العرش خلفًا لفاروق تسير وفق المطلوب، وأن ولي العهد الأمير محمد علي توفيق الذي ظل حلم اعتلائه للعرش يراوده لسنوات طويلة، على استعداد لأن يقدم كل التضحيات، ليحقق هذا الحلم.. فهو أكبر أفراد أسرة محمد علي سنًّا، وكان يرى أنه الأحق في هذه الفترة بتولي حكم البلاد .

لكن الملك الشاب.. رفض الإنذار!!.

وعند مساء هذا اليوم، توجه السفير بصحبة قائد القوات البريطانية في مصر.. الجنرال ستون.. ومعهما عدد من الضباط البريطانيين المسلحين، وقاموا بمحاصرة ساحة قصر عابدين بالدبابات، والكردونات التي يصطف لحمايتها الجنود البريطانيون، ودخل لامبسون وستون إلى مكتب الملك، وكان معه رئيس الديوان أحمد حسنين باشا، ووضع أمامه وثيقة تنازله عن العرش، فنظر إليه فاروق نظرة دهشة واستنفار وهو يعبر عن غضبه من هذا التصرف بلغة إنجليزية بليغة، بينما يقرأ الوثيقة التي أعدها مايلز لامبسون بصوت مسموع:

- نحـن فـاروق الأول ملك مصر، تقديرًا منـا لمصالح بلدنا فإننـا هنـا نتنـازل عـن العـرش ونتخلـى عـن أي حـق فيه لأنفسـنا ولذريتنـا، ونتنازل عن كل الحقـوق والامتيازات والصلاحيـات التـي كانـت عندنـا بحكم الجلـوس على العـرش، ونحـن هنا أيضًـا نحـل رعايانا من يميـن الولاء لشخصنا.

صدر في قصر عابدين في هذا اليوم الرابع من فبراير ١٩٤٢ .

كان السـير لامبسـون لا يرغب فـي تخلي فاروق عـن العرش، رغـم أنه أعد البديـل، فهو يرى إن تنازل فـاروق ربما تدخل البلاد في حالة من عدم الاسـتقرار وخاصة إذا حدث صراع على العرش مـن داخـل العائلـة المالكة نفسـها.. لذلـك كان ينتابـه القلق، فهو يعـرف أن الملك فاروق رغم حداثة عمره إلا أنه ينظر لنفسـه على أنـه ملـك، ولا يجـب أن يُعامـل الملـوك بمثل هذا الأسـلوب من الاحتقار والإذلال، لذلك شـعر السير لامبسون أن ترددًا قد سيطر علـى مشـاعره عندما وضع وثيقـة التنازل أمام الملـك، وأنه أحس للحظة أن الملك سـوف يمسك بالقلم ويوقع على التنازل دون أن ينطق بكلمة، لكن رئيس الديوان الملكي أحمد حسنين باشا.. تفهم الموقف.. في نفس الوقت الذي لمح عدم رضاء الملك وشعر بما سيتخذه من قرار، فتدخل باللغة العربية وقال للملك بهدوء:

- نطلب فرصة أخيرة نستدعي فيها مصطفى النحاس ..



رد الملك بترقب:

- ما إنت عارف يا باشا.. النحاس رافض الحكومة الائتلافية..
- ننحني قليلًا للعاصفة يا جلالة الملك.. وبعدين نشوف مشكلتنا مع النحاس.
- إنت شايف كده يا أحمد؟

هز أحمد باشا حسنين رأسه بالموافقة، فأشار له الملك بيديه للتنفيذ، فالتفت رئيس الديوان الملكي للسفير البريطاني متحدثًا بالإنجليزية قائلًا:

- الملك هيستدعي النحاس باشا حالًا.. وهيكلفه على مسمع منك بتشكيل الوزارة.

رد لامبسون بصلف قائلًا:

- هل الملك فاروق متفهم وبوضوح أنه يجب أن تكون الوزارة من اختيار النحاس وحده؟

تدخل الملك فاروق وهو ينفث عن غضبه صائحًا:

- أيوه فاهم.. فاهم ..

رد السير لامبسون محاولًا التهدئة من رَوع الملك:

- أنا على استعداد لأن أعطي جلالتك فرصة أخيرة.. أنا أريد أن أجنب مصر تعقيدات قد لا يكون من السهل حلها

في هذه الظروف.. (مستطردًا) لكن يجب يا جلالة الملك أن تدرك أن تصرفك لا بد أن يكون فوريًا.

نظر إليه الملك فاروق.. وقد استاء من هذا التدخل البريطاني البغيض، ورد قائلًا:

- أنا أستوعب جيدًا إن ضرورات الحفاظ على شرفي وعلى مصلحة بلادي تقتضي أن أستدعي النحاس فورًا... وأكلفه بتشكيل الوزارة.. حتى لو ده كان على غير رغبتي.

نطقها.. وكأنه يلفظها، وهَم الملك واقفًا في صرامة.. وترك مكتبه إلى قاعة ملحقة دون أن يعير المعتمد البريطاني اهتمامًا.. بل تركه غارقًا في دهشته، وبدا أن فاروقًا لن يغفر الأمر للسير لامبسون.. وأنه سيتحين الفرصة لرد الضربة .

■ ■ ■

كانت نجع حمادي غير بعيدة عن هذه الأحداث، وكان الأهالي يجلسون في أماكن السمر أو حقولهم أوقات الحصاد.. يقضون أوقاتهم في تقصي أحوال بلادهم، خاصة بعد أن احتدم الخلاف بين الملك فاروق والسير لامبسون في أعقاب تجرؤ الأخير على محاصرة قصر الملك. وبالطبع كان ليوسف باشا رأي في الأحداث من حوله، وفي تلك الجلسات التي كان يعقدها في قصره، كان يجيب عن كل ما يوجه إليه من تساؤلات، عن علاقة

القصـر الملكي بالإنـجليز.. وعلاقة الملك فاروق نفسـه بالشـعب المصري.

وكانـت الأحـداث التـي جرت فـي النجع.. قد سـارت بين مد وجزر.. مع انـدلاع الحرب العالمية الثانيـة، وتأثر مصر بالأضرار التـي يمكـن أن تقع عليهـا، باعتبارها تقـع تحت احتـلال بريطانيا العظمـى، وهي الدولة المشـاركة في هذه الحـرب بقوتها.. وربما كان الحديـث عـن الحـرب يقضـي علـى أي حديث آخـر.. تمامًا كمـا تقضـي النار علـى الأخضر واليابـس.. علاوة علـى أن بعض المتغيرات قد ألمت بأحوال النجع، فقد انتقل المأمور رفعت الضو مـن النجـع، وكان ذلك في صالـح إنهاء تلك الحـرب الباردة التي دارت بينه وبين الشيخ عبد الرحيم منذ سنوات، والأمر الثاني.. أن هروب بتول إلى الإسـكندرية.. لـم يشـغل بال الأهالي كثيرًا.. بعد أن شـغلتهم أخبار الحرب، وخوفهم من دخول الألمان إلى مصر، واحتمال أن يقوم هتلر بتدمير مصر.. عقابًا لبريطانيا العظمى.

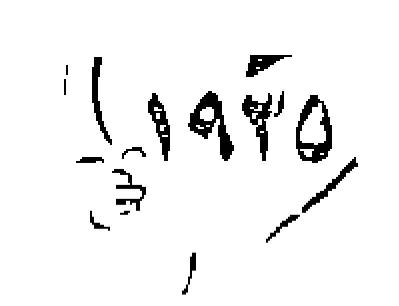
لكن الأهـم أن أحداث الفتنة لم تهدأ.. ولـم تصفو.. بل إن الناس لـم ينسوا ما اشتعل بينهـم من صراعات على أثر حادثة الكوخ.. فقد حرق المسـلمون والأقباط ديار بعضهم البعض، ودمر المتطرفون منهـم حقول الآخرين ونهبوا مواشـيهم.. وجرت فيما بينهم بحور الـدم.. غير أنهم من الصعايـدة.. ومن عاداتهم ألا يتنازلوا عن حق الثـأر.. ولذلـك كان جانـب من تلـك الصراعات بدافع مـا خلفته حادثة الكوخ من آثار على مر السنين، واختطاف الدكتور ألفونس،

واتهام مسلمين باختطافه ومن بينهم عطوة أبو اليزيد.. أما الجانب الآخر فكان بدافع الرغبة في الثأر.. وبالطبع كان كل ذلك بدافع تلك الفتنة التي نشأت بينهم ونفخ في كيرها أعوان الاحتلال البريطاني، والذي انزعج كثيرًا من ذلك الارتباط الوثيق الذي كان موجودًا بين المسلمين والأقباط في النجع.

وحاول يوسف باشا كمال.. أن يفعل المستحيل ليوقف زحف الفتنة إلى ربوع النجع لكن يبدو أنه قد قُضي الأمر، وصارت تلك الفتنة في حاجة إلى مرور دهورًا من الوقت حتى يمكن أن تذوب وتختفي.

■■■

وتزوج الملك فاروق من ناريمان، ومنحها لقب ملكة مصر.. وأنجبا فيما بعد الأمير أحمد فؤاد. والمعروف أن الزعيم النازي أدولف هتلر كان قد أهدى الملك فاروق سيارة بمناسبة زواجه، وفي عصر أحد أيام شهر نوفمبر عام ١٩٤٣ كان فاروق يقود السيارة بسرعة كبيرة بجوار ترعة الإسماعيلية عائدًا من رحلة صيد، وفوجئ بمقطورة عسكرية إنجليزية وقد انحرفت يسارًا فجأة وسدت الطريق أمامه لكي تدخل المعسكر، فقام بالانحراف لتفادي السقوط في الترعة، واصطدمت مقدمة المقطورة بسيارته وطارت عجلاتها الأمامية، وحطمت الباب الأمامي، فوقع فاروق في قارعة الطريق. وكاد الحادث أن يودي بحياته، وتم نقله



داخل المعسكر الإنجليزي لإسعافه، ثم حملته السيارة الملكية إلى المستشفى العسكري القريب في القصاصين، وقامت طبيبة إنجليزية بفحص الملك بعدما رقد على سرير الكشف، وحدثته بلطف جميل:

- كينج فاروق.. سلامتك ..

ابتسم الملك وهو يرد عليها متألمًا:

- Thank you doctor.. أنا متألم جدًّا.. جدًّا ..

وهي تفحصه، وتضع سماعتها الطبية على صدره:

- What is your complaint ما شكوتك يا جلالة الملك؟

أشار الملك فاروق إلى موضع الألم في عظمة الحوض أسفل البطن... وأخذت الطبيبة تعطي تعليماتها لمساعديها حتى تبدأ في إسعاف الملك، بينما في الوقت نفسه أحاط جنود مصريون من نقطة عسكرية قريبة بعد الحادث بالمستشفى من تلقاء أنفسهم، وتم إبلاغ القصر الملكي، وعلى الفور اتصل أحمد باشا حسنين بالدكتور علي باشا إبراهيم، ووقتها كان أشهر جراح في مصر، وخصص رئيس الديوان الملكي طائرة خاصة لتنقل الدكتور علي باشا إبراهيم من القاهرة لإجراء عملية جراحية طارئة لإنقاذ الملك.

ومع انتشار الخبر في أرجاء مصر زحفت الجماهير بالألوف وأحاطت بمستشفى القصاصين، بعد أن سرت شائعات بأن الحادث

كان مُدبرًا للتخلص من الملك بسبب تفاقم الخلاف الحاد بينه وبين السفير البريطاني السير مايلز لامبسون بعد حادث ٤ فبراير .

وكان الدكتور علي باشا إبراهيم قد وصل للمستشفى، فاصطحبه مديرها إلى ذلك الجناح الذي نزل فيه الملك. وكان علي باشا طبيبًا نابهًا، يحمل شخصية جذابة بين طيات روحه، وله هيبة.. من النادر أن توجد في الكثير من الناس، فيشعر الداني منه أنه أمام العلم وقد تجسد في إنسان يسير على قدمين، وكانت له طقوس في عمله، فهو شديد الدقة، وشديد الصراحة مع مرضاه، وهو من أوائل الجراحين المصريين، وأول عميد مصري لكلية طب **قصر العيني**، كما عين **وزيرًا** للصحة حتى عام ١٩٤١ في وزارة **حسن صبري باشا**، وبعد خروجه من الوزارة مباشرة عين مديرًا **لجامعة فؤاد الأول**.

وولد علي إبراهيم في **الإسكندرية**، وكان والده إبراهيم عطا فلاحًا من إحدى قرى مدينة **مطوبس** بمحافظة **كفر الشيخ**، وأمه كانت أيضًا فلاحة من **مطوبس**، وكانت نشأته البسيطة سببًا في تكوين شخصيته والتحامه بأوجاع الناس وخاصة الفقراء منهم، وانتقل إلى القاهرة حيث تولته أسرة السمالوطي وهي من الأسر الكبيرة بالرعاية، فالتحق بالقسم الداخلي في **المدرسة الخديوية** بدرب الجماميز ليستكمل دراسته، ثم التحق بمدرسة طب **قصر العيني** وتخرج فيها عام ١٩٠١.

وكانت الخطوة الكبرى في مسيرة علي إبراهيم الطبية هي نجاحه في علاج **السلطان حسين كامل** من مرض عضال بإجراء

عملية جراحية ناجحة له، وبعدها أنعم السلطان عليه بلقب جراح استشاري الحضرة العلية السلطانية.

وانتخب الدكتور علي إبراهيم لعضوية مجلس النواب، واختير عميدًا لكلية الطب عام ١٩٢٩ ليكون أول عميد مصري لكلية طب قصر العيني، وقد فتح علي باشا إبراهيم الباب أمام الفتيات المصريات لدراسة الطب... علاوة على أنه أسس **نقابة أطباء مصر** وكان أول نقيب لأطباء مصر. ولهذا وَثق فيه الملك فاروق، وطلب شخصيًّا استدعاءه للإشراف على علاجه، ورافقته الطبيبة الإنجليزية إلى جناح الملك، وبمجرد أن ارتآه فاروق حتى فاض صدره بالارتياح والبُشرى.. وتوجه الطبيب النابه إلى الملك الراقد على فراشه، وهو يصافحه بحرارة قائلًا:

- الحمد لله إنك بخير يا جلالة الملك.. إن شاء الله شدة وتزول ..

فرد فاروق بغبطة الذي تعلق بقشة النجاة:

- الحمد لله إنك وصلت يا باشا.. إنت عارف ثقتي فيك بلا حدود ..

وأخذ علي باشا وقته في فحص الملك، وحين أشار إلى مواطن الألم في جسده، أمعن في فحصها، وطلب من الأشعة والفحوص الطبية ما يزيح الستار عن حالة الملك على وجه الدقة.. وبعد أن اطلع عليها.. حدث الملك قائلًا:

- الأمر بسيط يا جلالة الملك..
- طمني يا علي باشا .
- كسور بسيطة في عظام الحوض.. وتهتك في الأنسجة المحيطة.. هنحتاج لجراحة عاجلة..
- فيه خطورة يا دكتور؟ (سأل فاروق بقلق وتوتر).
- لا.. لا يا جلالة الملك.. لكن ما أخبيش على جلالتك.. احتمال العملية تترك أثر بسيط ..
- (بقلق) عجز يعني؟!.
- لا طبعًا.. أنا قصدي إن عظام الحوض مهمة لحركة الإنسان، هنحتاج بعدها لعلاج طبيعي ومحافظة على الوزن.. وهو ده اللي هيحدد نجاح العملية .

نظر الملك فاروق إلى طبيبه الذي يثق فيه نظرة عميقة، وكأنه يسلمه نفسه كأمانة بين يديه قائلًا:

- توكل على الله يا علي باشا.. وشوف شغلك .

ابتسم علي باشا ..ابتسامة الأمل التي كانت تضفي على وجهه سحرًا ملائكيًّا، يجعل مرضاه يشعرون بالتعافي وهم في عز آلامهم ومحنتهم، ورد على الملك قائلًا:

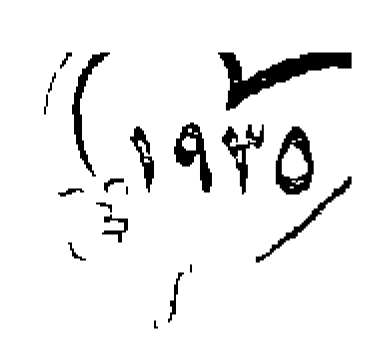
- اطمن يا جلالة الملك.. كل شيء هيكون على ما يرام .

■ ■ ■

(١٤)

في هذه الفترة مرت مصر بشقاق سياسي، وكان انعكاسًا للتدخل البريطاني السافر في شئون مصر، واستغلال ثرواتها، والتعامل مع أرض مصر على أنها قطعة من بريطانيا العظمى، وكان يوسف باشا يقضي أيامه كما اعتاد دائمًا، فهو يذهب إلى نجع حمادي ليقضي الشتاء في قصره، بينما يقضي فترة من الصيف في قصره بستانلي على شواطئ الإسكندرية، وما تبقى من شهور بينهما كان البرنس يقضيها في قصره بالمطرية في القاهرة، ولأن الأحوال في مصر لم تكن على الوجه المستقر، فقد كان للباشا حسابات شخصية ببنوك أوروبا، وكانت معظم ثروته في هذه البنوك.. بالإضافة إلى امتلاكه للعديد من العقارات في أوروبا.

ولفت نظر الباشا الطفل دوماديوس.. ابن بولس سمعان.. فقد كان موهوبًا منذ نعومة أظفاره في فنون النجارة وصناعة الأثاث، لذلك ألحقه بمدرسة فنية على نفقته الخاصة ليثقل موهبته ويحترفها.. بينما انقطعت تقريبًا أخبار بتول.. واعتبرها بولس



أنها في عداد الأموات.. ومنع أشقاءها من السؤال عنها.. بل زرع داخلهم نفس موقفه منها.

وكل ما عرفه الباشا عنها أنها نزحت إلى الإسكندرية وتزوجت من آرام بعد أن أصبح مسيحيًّا ينتمي إلى الأرثوذكس، وكان مستحيلاً أن يعود آرام للنجع مرة أخرى، فقد اختزن من الآمال ما جعله يقرر أن يشق طريقه بنفسه، وكان قد قرر بعد فترة قضاها في العمل في ميناء الإسكندرية أن يعمل في التجارة واستيراد وتصدير المنتجات المختلفة، وما هي إلا سنوات بسيطة حتى امتلك آرام متجرين كبيرين، أحدهما بالمنشية، والآخر في سيدي بشر، وذاع صيته كتاجر كبير، ولم يكن هذا بمستغرب على الأرمن الذين شُهِد لهم بحسن إدارة الأموال .

ووقتها تدخلت الخلافات العائلية في القصر الملكي لتعبث بصورة الملك ومقامه وشعبيته، وخاصة ذلك الذي أحاط بوالدته الملكة نازلي، فقد تألم فاروق لذلك كثيرًا، ومر بحقبة من الاكتئاب الذي جعله يفكر كثيرًا في التنازل عن العرش، وخاصة بعد أن انهارت صورته أمام الشعب، فقد دخلت الملكة نازلي في علاقة عاطفية مع أحمد حسنين باشا رئيس الديوان الملكي.

ولهذه العلاقة حكاية طويلة، بدأت خيوطها بعد وفاة الملك فؤاد الأول، وكان يكبر الملكة نازلي بعشرين عامًا، لهذا كان شديد الغيرة عليها، يخفيها داخل جدران القصر ويعين الجواسيس لمراقبتها دائمًا، وعندما توفي الملك فؤاد شعرت نازلي بالحرية

للمرة الأولى بعد أن عاشت طويلًا داخل جدران سجنها الملكي.
وكانت ترى دائمًا أنها صاحبة الفضل على ابنها فاروق في تولي عرش البلاد، فقد لعبت دورًا كبيرًا لتثبت أقدامه في بلاط الحكم، خاصة بعد أن فاحت مطامع محمد علي باشا توفيق في العرش.

وكان قد تم اختيار أحمد حسنين رائدًا لولي العهد الملك فاروق في بعثته الدراسية إلى لندن، وكان عمر فاروق وقتها خمسة عشر عامًا، وخلال الرحلة توطدت العلاقة بين فاروق وأحمد حسنين إلى درجة كبيرة، ولم تمض سبعة أشهر حتى مات الملك فؤاد وعادت البعثة إلى مصر دون أن يكمل فاروق تعليمه.

وتردد أن أحمد حسنين عندما عاد مع الملك الصغير نجح في أن ينسج خيوط فتنته حول الملكة نازلي وأن يجعلها تقع في غرامه، فقد انطلقت الملكة بعد رحيل زوجها في الاستمتاع بمتع الحياة ومباهجها بشكل كبير، مما أدى إلى التصادم بين الملك فاروق وأمه أكثر من مرة ووقتها ظهر أمامها أحمد حسنين بمظهر الجنتلمان الرقيق الذي يجيد مخاطبة النساء والفارس والمغامر أيضًا في نفس الوقت.

وارتبطت الملكة نازلي بعلاقة عاطفية مع أحمد حسنين استمرت لما يقارب السنوات التسعة، لكن أحمد حسنين تعرف على المطربة أسمهان وأعجب بها، ووصل إلى مسامع الملكة نازلي أخبار لقاءات حسنين مع أسمهان في فندق مينا هاوس بجوار أهرامات الجيزة، فاشتاطت غضبًا وقررت وبدافع الغيرة

أن تنتقم من أسـمهان، بطردها من مصر، وبالفعل اتصلت بحسـين سـري باشا رئيس الوزراء ووزير الداخلية والذي تولي عملية تنفيذ القرار، فقد أبلغ أسـمهان بأن إقامتها في مصر انتهت وأن عليها أن تغادر خلال أسبوع، وبعد ذلك بوقت قليل تزوجت الملكة نازلي من أحمد حسنين عرفيًّا بموافقة الملك فاروق ... ومات أحمد في حادثـة تصادم سـيارته بلوري تابع للقـوات البريطانية على كوبري قصر النيل .

وكانـت قصص هذه العلاقة قد تسـببت في اهتـزاز هيبة الملك فاروق كثيرًا بين أفراد الشـعب، وأصبحت مادة ثرية يتجاذبها رواد المقاهـي والحانـات، وكان الناس يرددون أنه حـدث ذات يوم أن الخلاف تعمق بين الملكة الأم وبين الملك فاروق بسـبب علاقتها بأحمد حسـنين، فسـافرت إلـى القـدس ونزلت في فنـدق الملك داود، فاستدعى فاروق النحاس باشا وقال له:

- إن والدتـي تحبك وتحب زوجتك.. زينب هانم.. وأرجو أن تسافر لإحضارها.

وسـافر النحاس وقرينته إلى القدس وأقاما في الفندق أسـبوعًا كامـلًا، يحاولان إقنـاع نازلي بالعودة، فاشـترطت أن تسـتقبل في محطة مصر اسـتقبالًا رسميًّا، وأن يكون الملك نفسه في استقبالها علـى رصيـف المحطـة، ووعدها النحـاس بذلك، وعـاد النحاس وقرينتـه إلـى القاهـرة وأبلـغ الملك.. فأصـر علـى ألا يذهب إلى المحطة والاكتفاء باستقبال رسمي وتشريفة الحرس الملكي لها.

لكنه عاد ووافق على مطالبها وذهب لاستقبالها على رصيف المحطة.

ولم تكن صراعات الملك فاروق مع أمه وانتشار نزواتها التي لم تكف الصحف الأجنبية عن فضحها، سوى معول كبير أدى بعد ذلك إلى تصدع النظام الملكي وانهياره، وكانت تلك الفضائح تصل إلى السياسيين والصحفيين في القاهرة، وعلى أثرها وجد فاروق نفسه محاصرًا بين خلافاته مع أمه من جهة، وبين معارضة شديدة أخذت من هذه الخلافات سلاحًا فتاكًا للهجوم على الملك. وبعد ذلك أصيبت الملكة نازلي باضطراب في الكلى، فأذن لها فاروق بالسفر إلى فرنسا للعلاج، لكنها وبعد فترة من العلاج بلا جدوى، غادرت فرنسا إلى الولايات المتحدة برفقة ابنتيها فايقة وفتحية وحاشيتها، بمن فيهم موظف العلاقات العامة، وكان يدعى رياض غالي الذي تزوج لاحقًا من الأميرة فتحية.

وهذا الزواج أثار ضجة كبيرة في مصر، وأحكم الخناق على الملك فاروق، فقد كان رياض غالي مسيحيًّا، وشحن هذا الزواج أجواء المحروسة بأسباب اشتعلت معها الفتنة بين المسلمين والأقباط من جديد، فقد استشاط علماء الدين غضبًا، وتناول كل الكتاب هذا الزواج بشيء من اللوم والهجوم على الملك، مما دفع به إلى إصدار قرار بحرمان نازلي من لقب الملكة الأم في عام ١٩٥٠، وإلغاء وصايتها على ابنتها فتحية.

وقتها كان تنظيم الضباط الأحرار قد برز على الساحة، كرد فعل طبيعي للنتائج التي تمخضت عنها الحرب العربية الصهيونية عام ١٩٤٨، ولم تكن مصر بعيدة عن هذه التطورات، فجاء تأسيس تنظيم الضباط الأحرار كنتيجة عكسية للآثار التي تركتها هذه الحرب على الجيش المصري.

وكانت جماعة الإخوان المسلمين قد مر على نشأتها ما يقرب من عشرين عامًا، وانتشرت بين الناس كجمعية دينية تهدف إلى التمسك بالدين وأخلاقياته.. بعيدًا عن السياسة ودهاليزها.. حتى إن حسن البنا كان يرفض الحزبية رفضًا باتًّا، وأعلن عداءه للأحزاب السياسية، واعتبرها نتاج أنظمة مستوردة وأنها لا تتلاءم مع البيئة المصرية، ووصفت جريدة (النذير) الإخوانية.. الأحزاب المصرية بأنها أحزاب الشيطان مؤكدة على أنه لا حزبية في الإسلام.. في حين أعلنت الجماعة ولاءها وأملها في «ملك مصر المسلم» ونجح على ماهر باشا والشيخ المراغي في توطيد العلاقة بين القصر والجماعة، والتي استمرت حتى نهاية الحرب العالمية الثانية.. وبعدها بدأ الملك يخشى من سطوة هذه الجماعة نتيجة قوة الأعداد الكبيرة التي انضمت إليها، فأصبحت تنافس شعبية الوفد، كما أثار الملك قوة الأسلحة التي استخدمتها الجماعة أثناء حرب فلسطين، فوافق على حل الجماعة بعد أن اتهم النقراشي باشا شبان من المنتمين إلى الإخوان بارتكاب حوادث القتل

والتفجير في البلاد، لكن الجماعة عادت إلى مزاولة نشاطها مرة أخرى بعد سنوات قليلة .

وبدأ النظام الملكي في الانهيار، وأبرزت الهزيمة في حرب فلسطين مواطن الفساد في مصر وطبيعة الحياة السياسية والاقتصادية التي يسيطر عليها الملك والأحزاب المدعومة من قبل قوات الاحتلال البريطاني، مما دفع الضباط بالجيش المصري إلى تشكل هذا التنظيم، وضم في بدايته خمسة أشخاص فقط هم جمال عبد الناصر وعبد المنعم رءوف وكمال الدين حسين وحسن إبراهيم وخالد محيي الدين، وبدأ توزيع منشورات هذا التنظيم بعد الاجتماع الأول، وكانت الخطة الأساسية في بداية تشكيل التنظيم هي التغلغل في جميع صفوف الجيش وإحكام السيطرة عليه، من خلال إقامة التشكيلات السرية .

وتضمنت المبادئ الأساسية للتنظيم القضاء على الاستعمار وإخراج البريطانيين من مصر، وتصفية الإقطاع، وإعادة توزيع الأراضي على الفلاحين من الشعب المصري، والقضاء على الاحتكارات وسيطرة رأس المال على الحكم، وإصلاح الجيش من خلال إعادة تسليحه وتدريبه وإبعاده عن دائرة النفوذ الاستعماري، بالإضافة إلى تحقيق العدالة الاجتماعية من خلال إعادة توزيع الثروات وتقليل الفوارق، وإقامة نظام ديمقراطي سليم.

■ ■ ■

في منتصف عام ١٩٥٢، كان بولس سمعان يقدم نجله دوماديوس إلى البرنس يوسف كمال، وهو لم يتعد بعد سنوات عمره الستة عشر، ورغم حداثة عمره فقد أصبح نجارًا محترفًا، يجيد فنون النجارة، وأخذ بولس يعرض على الباشا نماذج من تحف فنية صنعها دوماديوس بيديه، فحول فيها الخشب الصامت إلى قطع فنية ناطقة بإبداعها، ولما لمح بولس عيون الباشا وهي تلمع بالإعجاب بما صنعته يدا المراهق الصغير، تجرأ بولس وقال بين مد وجزر من الكلمات المترددة على شفتيه:

- يا باشا.. أنا طمعان في كرمك ..
- خير يا بولس.. إنت عارف معزتك عندي من سنين طويلة.
- يا باشا.. أنا كبرت.. وما عدتش قادر على الشغل، والمرض ما سابنيش في حالي (وهو يكاد أن يبكي) ده غير حكاية بتول بنتي اللي قسمت ضهري (مستطردًا) شفت يا باشا عملت فيَّ إيه؟.
- (بحزن وعطف ملحوظ) ربنا يقرب البعيد يا بولس..
- (بانكسار) يا باشا.. المرض ما خلانيش قادر على الشغل، ومش عايز أبقى عالة عليك، علشان كده يا ريت تنفذ لي آخر طلب ممكن أطلبه منك يا باشا .
- (بشيء من الشغف) اطلب أي حاجة يا بولس ..

- أنــا طالـب مـن جنابـك تعين دومـاديـوس في الدايـرة بدل منـي.. هو صحيح سـنه صغير، لكن بمقام عشـر رجاله.. وأوعدك إنه هيكون عند حسـن ظنك (وهو يطأطئ رأسه) وأنا هاستريح بقى.. خلاص ما عدش لي لازمة.

ابتسم الباشا بعطفه المعهود وهو يربت بلطف على كتف بولس قائلًا:

- أنــا فهمتك يا بولس.. وعمومًا اعتبر دوماديوس من عمال الدايرة من دلوقتي، وإنت لو عايز تستريح ما عنديش مانع.. والدايرة هتصرف لك معاش محترم.. (بسـعة صدر) إنت غالي علينا يا بولس.. وإحنا بنقدر رجالتنا كويس.

انفرجت أسـارير بولس وهو يسـتمع لكلمات الباشـا، وأمطره بوابل من الدعاء، وحاول أن يلتقط كف الباشـا ليقبله لكن البرنس التقطه بسرعة قبل أن يطوله بولس، وهو يردد أستغفر الله.. أستغفر الله.. بينما ينسحب بولس بخطوات بطيئة كشفت عن تردي حالته الصحيـة، وهو يتمتم بكلمـات يدعو فيها للباشـا ويثني على كرمه المتناهي.

■ ■ ■

(١٥)

أنـذرت الأجواء في مصر بقرب وقوع انفجار شـعبي كبير، فقد سـقطت شـعبية الملك فاروق إلى حد تخلخلـت معه أواصر نظام الحكم الملكي في مصر، وتدهورت أوضاع البلاد، وكانت هزيمة فلسـطين هي الصخـرة التي تحطـم عليها الكيـان الملكي في نظر الجيش، وعندما عاد الضباط من الحرب يجرون أذيال الخيبة على أثر الهزيمة، تحولوا إلى خلايا نشطة ذات طابع تنظيمي، وقرروا أن الملك فاروق هو السبب وراء الهزيمة العسكرية للجيش المصري، فقـد وثق في القيادات الفاشـلة التي جهلت أسـاليب الحرب، غير أنهـم رأوا أن الملـك كان وراء إمداد الجيش بالأسـلحة والذخيرة الفاسـدة. وحـاول البوليـس كثيـرًا أن يتعرف على ضبـاط التنظيم الذين يقفون وراء فكرة الإطاحة بالملك، ولكنهم لم يفلحوا .

وتمثلـت المعركة الكبرى بين الملك وقيادة الجيش الموالية له مـن ناحية والضباط الأحـرار من ناحية أخرى فـي انتخابات نادي الضباط في أواخر عام ١٩٥١ . فكان مرشح الملك لرئاسة مجلس إدارة النادي حسـين سري عامر صاحب السـمعة السيئة وصاحب



الاتهامات الخطيرة التي شملت تهريب المخدرات وبيع الأراضي بطرق غير مشروعة وسرقة ونهب البدو والرشوة والتزوير وشراء الأسلحة الفاسدة وتهريب معدات البترول والأسلحة لإسرائيل. أما مرشح الضباط الأحرار فكان محمد نجيب وهو صاحب السمعة الطيبة والبطولات في حرب فلسطين والمواقف الرافضة لتسلط الملك على الجيش.

ولم يمتثل الضباط لرغبة الملك فاروق، واستبعدوا مرشح الملك حسين سري عامر على اعتبار أن سلاح الحدود الذي كان يرأسه لا يعد من فروع الجيش. وأقيمت الانتخابات وفاز محمد نجيب برئاسة مجلس إدارة نادي الضباط، كما فاز خمسة من الضباط الأحرار بعضوية المجلس.

ونتيجة لموقف الضباط واصل فاروق عناده ورفض تعيين محمد نجيب وزيرًا للحربية لتهدئة الأوضاع في الجيش ومهادنة الضباط الأحرار، بل إنه قام بحل مجلس إدارة نادي الضباط ومنع دخول الضباط النادي بالقوة، كما ظل يتحين الفرصة لتعيين حسين سري عامر وزيرًا للحربية.

في ذلك الوقت توصل البوليس السياسي لبعض أسماء أعضاء الهيئة التأسيسية للضباط الأحرار وأصبح فاروق على وشك التخلص منهم وسحق تمردهم، وفكر وقتها قادة الضباط الأحرار في التبكير بموعد القيام بالتحرك العسكري ليكون يوم ٢٣ يوليه عام ١٩٥٢.

وفي مساء ٢٢ يوليه عام ١٩٥٢ أقام الملك فاروق حفلًا ساهرًا في قصر المنتزه بالإسكندرية احتفالًا بإسماعيل شرين زوج أخته الذي ولاه وزارة الحربية. وكان فاروق مطمئنًا أن إسماعيل شرين سيسحق تمرد الضباط في الجيش.

وفي أثناء الحفلة دخل أحد المساعدين ليبلغ الملك أن الضباط الأحرار استولوا على مقر قيادة الجيش في القاهرة، وأنهم نجحوا في دخول مقر القيادة وأقاموا كردونات للجيش موالية للضباط الأحرار لمحاصرة قصر المنتزه حيث يتواجد الملك ولكنها لم تحاول دخوله.

بعد الاستيلاء على مقر قيادة الجيش، كانت الخطة تقضي بإذاعة بيان الضباط في الإذاعة المصرية صباح يوم ٢٣ يوليه. وعندما علم فاروق بأمر البيان أمر رئيس الإذاعة بمنع إذاعة البيان. لكن الضباط الأحرار كانوا أسرع فهددوا القائمين على المحطة بالسلاح، وبالفعل ألقى أنور السادات بيان الضباط في الإذاعة في السابعة والنصف صباحًا باسم محمد نجيب الذي أعلن نفسه قائدًا عامًّا للقوات المسلحة.

ووقف أنور السادات خلف الميكروفون في لحظة مهيبة، يتلو بيان الثورة بلهجته الخطابية المؤثرة قائلًا:

اجتازت مصر فترة عصيبة في تاريخها الأخير من الرشوة والفساد وعدم استقرار الحكم، وقد كان لكل هذه العوامل تأثير

كبير على الجيش، وتسبب المرتشون المغرضون في هزيمتنا في حرب فلسطين. وأما فترة ما بعد هذه الحرب فقد تضافرت فيها عوامل الفساد وتآمر الخونة على الجيش وتولى أمره إما جاهل أو خائن أو فاسد حتى تصبح مصر بلا جيش يحميها، وعلى ذلك فقد قمنا بتطهير أنفسنا، وتولى أمرنا في داخل الجيش رجال نثق في قدرتهم وفي خلقهم وفي وطنيتهم، ولابد أن مصر كلها ستتلقى هذا الخبر بالابتهاج والترحيب. أما من رأينا اعتقالهم من رجال الجيش السابقين، فهؤلاء لن ينالهم ضرر، وسيطلق سراحهم في الوقت المناسب.

وإني أؤكد للشعب المصري أن الجيش اليوم كله أصبح يعمل لصالح المواطن في ظل الدستور مجردًا من أي غاية، وأنتهز هذه الفرصة فأطلب من الشعب ألا يسمح لأحد من الخونة بأن يلجأ لأعمال التخريب أو العنف؛ لأن هذا ليس في صالح مصر وأن أي عمل من هذا القبيل سيقابل بشدة لم يسبق لها مثيل، وسيلقى فاعله جزاء الخائن في الحال، وسيقوم الجيش بواجبه هذا متعاونًا مع البوليس.

وإني أطمئن إخواننا الأجانب على مصالحهم وأرواحهم وأموالهم ويعتبر الجيش نفسه مسؤلًا عنهم.

والله ولي التوفيق.

القائد العام للقوات المسلحة لواء أ.ح. محمد نجيب

كان بيان الثورة سببًا كافيًا ليشعل حماسة المصريين، ويوقظ من جديد مصريتهم التي كادت أن تغتال تحت وطأة احتلال غاشم، لذلك خرج المصريون في الأيام التالية لبيان الثورة ليعلنوا عن مساندتهم لجيش مصر، ويعبروا عن إرادتهم في استنشاق عبير الحرية، وكان الضباط الأحرار يخشون من تدخل القوات البريطانية لصالح الملك كما حدث إبان الثورة العرابية عندما تدخلت بريطانيا لحماية الخديوي توفيق ضد الجيش المصري بقيادة عرابي، لذلك قررت قيادة الثورة توصيل الرسائل إلى القائم بالأعمال البريطاني والسفير الأمريكي تفيد بأن هذه حركة داخلية في الجيش تهدف إلى تطهيره من الفساد، وأن الضباط يتعهدون بضمان أمن وسلامة الرعايا الأجانب.

وانعقد مجلس الوزراء البريطاني لمناقشة الأمر، مقررًا أنه ليس من مصلحة بريطانيا التدخل لصالح الملك فاروق ضد الجيش المصري بعد أن فقد الملك كل أهلية لقيادة البلاد، وأن بريطانيا لن تتحرك إلا في حالة انتماء حركة الضباط الأحرار للشيوعية وللاتحاد السوفيتي، وكلف الضباط الأحرار علي باشا ماهر ليكون رئيس الوزارء الجديد وذلك ليعطي الأمان للملك وفي نفس الوقت لعلاقته الطيبة بمحمد نجيب، وتولى علي ماهر توصيل مطالب الضباط للملك.

وبدأ الضباط الأحرار بعد ذلك في تنفيذ المرحلة الأخيرة من خطتهم وهي عزل فاروق وتولي نجله أحمد فؤاد العرش تحت



مجلس وصاية. وكان فاروق قد انتقل بأسرته وحاشيته إلى قصر رأس التين حيث وسائل الدفاع والتحصينات أفضل وحيث يرسو يخت المحروسة لمغادرة البلاد إذا ما تطلب الأمر ذلك .

وبمجرد أن أشرقت شمس يوم ٢٦ يوليه، حتى كانت البلاد قد تحولت إلى ثكنة عسكرية، فحاصر الجيش القصور الملكية في رأس التين والمنتزه وعابدين والقبة، وحلقت الطائرات العسكرية، وصوبت المدافع تجاه قصر رأس التين. وتوجه محمد نجيب وأنور السادات وجمال سالم لعلي ماهر بإنذار الجيش للملك والذي يقضي بتنازله عن العرش لابنه ومغادرة مصر قبل السادسة من مساء اليوم، وقد حمل الإنذار كلمات مؤثرة تعكس إرادة المصريين فجاء به:

من اللواء أركان حرب محمد نجيب باسم ضباط الجيش ورجاله..

إلى الملك فاروق الأول..

إنه نظرًا لما لاقته البلاد في العهد الأخير من فوضى شاملة عمت جميع المرافق نتيجة سوء تصرفكم وعبثكم بالدستور وامتهانكم لإرادة الشعب حتى أصبح كل فرد من أفراده لا يطمئن على حياته أو ماله أو كرامته. ولقد ساءت سمعة مصر بين شعوب العالم من تماديكم في هذا المسلك حتى أصبح الخونة

والمرتشون يجـدون في ظلكم الحمايـة والأمن والثراء الفاحش والإسراف الماجن على حساب الشعب الجائع الفقـير، ولقد تجلـت آية ذلك في حـرب فلسطين وما تبعها من فضائح الأسلحـة الفاسدة، وما ترتب عليها من محاكمـات تعرضت لتدخلكـم السافر مما أفسد الحقائق وزعـزع الثقة في العدالة وساعد الخونة على ترسـم هـذا الخطأ فأثـرى من أثرى وفجـر من فجر، وكيف لا والناس على دين ملوكهم.

لذلك قـد فوضني الجيش الممثل لقـوة الشعب أن أطلـب مـن جلالتكم التنـازل عن العرش لسمو ولي عهدكم الأمـير أحمد فؤاد على أن يتم ذلك في موعد غايتـه الساعة الثانيـة عشرة من ظهر اليـوم السبت الموافـق 26 يوليـه 1952 والرابع مـن ذي القعدة سنة 1371هـ، ومغادرة البلاد قبل الساعة السادسة من مساء اليـوم نفسه، والجيش يحمـل جلالتكم كل ما يترتب على عدم النزول على رغبة الشعب من نتائج.

فريق أركان حرب محمد نجيب..

الإسكندريـة في يوم السبت 4 مـن ذي القعدة 1371هـ، 26 يوليو سنة 1952 ميلادية.

كان على رئيس الوزراء علي باشـا ماهر أن يحمل الإنذار، وأن يتوجه به إلى الملك فاروق في قصر رأس التين، ووجد الملك في حالـة يرثى لها، فقد تملكـه الإحباط وبدا نادمًـا على فوات فرص



كثيـرة كان يمكن أن يعالج بهـا الأمر، فحدثه على ماهر قائلًا، وهو يحاول تخفيف الصدمة على الملك:

- الجيش محملني إنذار لجلالتك .

ومد علي ماهر يـده بالإنذار إلى الملك فاروق، فالتقطه الملك بيد مترددة وهو يمر بشعاع عينيه على سطوره، قائلًا:

- والجيش يا علي باشا بيمثل مين؟

- بيمثل الشعب يا جلالة الملك .

- (بغضب) الشـعب بيحب ملكه، ومـش ممكن يوافق على عزلي بالأسلوب المهين ده.

- (بشـيء من الهدوء والحكمة) اسمح لي يا جلالة الملك، الناس نزلوا الشـوارع وبيأيدوا الجيش.. الشعب لن ينحاز لجلالتـك، والأمانـة تقتضي علـيَّ إني أوضـح لجلالتك الصورة الحقيقية .

نظر فاروق إلى علي ماهر نظرة ثاقبة وكأنه يحاول أن يسـتوعب حديثه مرة أخرى، فاستكمل علي ماهر كلامه قائلًا:

- المصلحة في تولي الأمير أحمد فؤاد العرش، وده بيقضي بعدم المقاومة والموافقة على التنازل والخروج من مصر.

لم يظهر من فاروق وقتها سوى عينيه الذابلتين.. وقد اغرورقت بالدموع المختنقة في مشهد عصيب، وتحدث بانكسار من يترجى آخر رجاء في حياته:

- أنا موافق يا علي باشا.. لكن بشروط ..

- أؤمر يا جلالة الملك .

- هاخرج من مصر على يخت المحروسة الملكي، ومعايا زوجتي والأمير أحمد فؤاد وبناتي، ولازم خروجي يكون مشرفًا، وهأصدر بنفسي وثيقة تنازل تحفظ كرامتي وكرامة الأسرة العلوية.. (مستطردًا بألم) إحنا عملنا للبلد دي كتير يا علي باشا، ولو القدر أمهلني كنت هأعمل أكتر..

تأثر علي باشا ماهر بحديث الملك، فوعده أن يكون تنازله مشرفًا، وأن يكون بوثيقة ملكية على غرار وثيقة تنازل ملك بلجيكا عن العرش. وأضاف قائلًا:

- اسمح لي يا جلالة الملك بتكليف عبد الرازق باشا السنهوري بكتابة الوثقية وعرضها على جلالتك، عبد الرازق باشا قانوني شهير ومخضرم وأكيد هيراعي إن الوثيقة تكون بالشكل المناسب لجلالتك .

ووافق الملك واتصل علي باشا بالسنهوري الذي أنهى كتابة الوثيقة التي جاء بها:

أمر ملكي رقم 65 لسنة 1952

نحن فاروق الأول ملك مصر والسودان

لما كنا نتطلب الخير دائمًا لأمتنا ونبتغي سعادتها ورقيها..

ولما كنا نرغب رغبة أكيدة في تجنيب البلاد المصاعب التي تواجهها في هذه الظروف الدقيقة، ونزولًا على إرادة الشعب، قررنا النزول عن العرش لولي عهدنا الأمير أحمد فؤاد، وأصدرنا أمرنا بهذا إلى حضرة صاحب المقام الرفيع علي ماهر باشا رئيس مجلس الوزراء للعمل بمقتضاه.

صدر بقصر رأس التين في 4 ذي القعدة 1371هـ الموافق 26 يوليه 1952م.

وعرضت الوثيقة على محمد نجيب فوافق عليها، وتم تكليف سليمان حافظ بحمل الوثيقة وتوقيعها من الملك، فاستقبله الملك، وقرأها أكثر من مرة، واطمأن للشكل القانوني لها، لكنه أراد إضافة كلمة (وإرادتنا) عقب عبارة ونزولًا على إرادة الشعب، لكن سليمان حافظ أفهم الملك أن صياغة الوثيقة في صورة أمر ملكي تضمن هذا المعنى، وإنه تم الاتفاق عليها بصعوبة كبيرة ولا تسمح الظروف بإدخال أي تعديل.

ونظر إليه الملك الجريح وقد انتابته حالة عصبية سيئة، وحاول أن يقرأ الوثيقة أكثر من مرة متظاهرًا بالهدوء، لكنه لم يتمكن من كبح جماح غضبه، وقام بالتوقيع عليها.

وارتدى فاروق السترة البحرية وأعدت الحقائب التي بلغت مائة وخمسين حقيبة، وتهيأ الملك للرحيل، وحضر إلى القصر علي ماهر والسفير الأمريكي بالقاهرة، وقاما بتوديع الملك الذي بدا عليه الحزن والتأثر. وغادر الملك قصر رأس التين وعزفت الموسيقى السلام الوطني، وحلقت أربع طائرات نفاثة مشاركة في التحية، وأطلقت المدفعية إحدى وعشرين طلقة، وأدى حرس الشرف التحية العسكرية، وصافح فاروق علي ماهر الذي فاضت عيناه بالدموع، فهو الذي رافق الملك منذ قدومه ليتولى حكم مصر، وركب فاروق زورقًا بحريًّا ليقله إلى يخته المحروسة الراسي في الميناء الخارجي. وحضر محمد نجيب متأخرًا، واستقل زورقًا آخر إلى يخت المحروسة، وأدى التحية العسكرية للملك السابق.

وكان اللقاء بين فاروق ونجيب صعبًا للغاية، فقد استمر نحو نصف الساعة، وتحكمت فيه مشاعر متضاربة، وكان جمال سالم بصحبة محمد نجيب، فصافح الملكُ نجيبَ قائلًا:

- حكم مصر مش سهل يا محمد ..

رد نجيب باقتضاب:



- دي إرادة الشعب يا جلالة الملك.. ومصر محروسة بإذن الله .

وانتبه الملك إلى جمال سالم الذي كان يحمل عصا أشبه بعصا المارشلية، فوجه إليه الحديث بجدية تحمل بين طياتها أمرًا ملكيًّا خافيًا:

- ارم العصاية دي يا حضرة الظابط.. إنت مش عارف قواعد البَروتوكول.. بتقابل الملك وفي إيدك عصاية!!

أظهر جمال سالم المعروف بعصبيته وتهوره شيئًا من الامتعاض وبدا معترضًا على حديث الملك، فأشار إليه محمد نجيب قائلًا:

- نفذ الأمر الملكي يا جمال.

وانصاع جمال سالم لأوامر قائده الأعلى وألقى بالعصا من يده، فمد إليه الملك فاروق يده مصافحًا، وألقى الضابط الشاب التحية العسكرية للملك، بينما ابتسم فاروق، ابتسامة بغير روح.. وهو يطلق العنان لعينيه لتملي نفسها بآخر مشهد له قبل أن يقله اليخت الملكي المحروسة إلى إيطاليا .

ومرت الأيام والثورة الوليدة تحاول أن تحقق أهدافها، لكن صراعًا على السلطة نشأ بين محمد نجيب و**جمال عبد الناصر**، فقد رأى نجيب ضرورة تسليم الحكم لسلطة مدنية منتخبة، في حين أن جمال عبد الناصر كان يرى أن مطلب نجيب مبكرًا، فلم تحقق الثورة أهدافها التي قامت من أجلها بعد، وهو يخشى أن

تفقد أي سلطة مدنية قدرتها على تحقيق أهداف الثورة في الوقت الحالي، لذلك حسم عبد الناصر الأمر في النهاية لصالحه، وحدد إقامة محمد نجيب في قصر زينب الوكيل حرم **مصطفى النحاس** باشا بضاحية **المرج** شرق **القاهرة**، وتولى **جمال عبد الناصر** بعد ذلك حكم مصر مستمدًّا شرعية حكمه من ثورة يوليه.

■ ■ ■

(١٦)

كانـت الأحـداث التـي تمر بهـا البلاد سـريعة ومتلاحقـة، فقد أحدثـت ثورة يوليـه صدمة للمجتمع المصري الـذي عاش عقودًا طويلـة تحـت وطـأة الحكم الملكـي، فلم يكـن يتوقـع أن تأتي له الحرية على طبق من فضة، وأن يشتم عبيرها من جديد .

وقتهـا كان يوسـف باشـا كمـال يجلـس فـي حديقـة قصـره بالمطريـة، وهو يترقب أخبـار الثورة، وعلى مائدة مسـتديرة أمامه جُمِعَـت كل الصحـف المصريـة، وقـد اشـتركت كلهـا تقريبًا في المانشـيت الرئيسـي.. ثورة يوليو تقضي على الإقطـاع ... وأعلن جمال عبد الناصر عن سياسـة الإصـلاح الزراعي ورأى تأميم كل الأراضي الزراعية التي تقع في ملكية الأعيان وإعادة توزيعها على الفلاحين.. وشـعر الباشـا بأن الجو ملبد بالغيوم وأن السـماء على وشـك أن تسقط أمطارها رغم أن شهور الصيف لم تنتهِ بعد، وكان هذا الشـعور يعكس حالة نفسـية فقط تعبر عن رد فعل الباشا تجاه ما قرأه وسـمع عنه.. فالتفت إلـى الأميرة كريمة التي كانت تجلس بجواره قائلًا:



- شايفة يا كريمة.. عبد الناصر عايز ياخد ممتلكاتنا ..
- (بيأس) خلاص يا يوسف.. ما باليد حيلة.. البلد ما بقتش بلدنا، ولا الزمن زمنًّا.

ينظر إليها الأمير يوسف بشيء من التوسل وكأنه أراد أن يستقي من عينيها أملًا فقط:

- إنت بتقولي إيه يا كريمة.. ده مِلكنا وميراثنا اللي ورثناه عن آبائنا وأجدادنا.. وأنا كمان زودته أضعاف الأضعاف بجهدي وعرقي وعملي.. هل من العدالة إنه ينتزع مننا وبالشكل ده .
- (بفقدان أمل) الحمد لله يا يوسف.. ما عندناش أولاد نقلق عليهم.. إحنا خدنا حظنا من الدنيا.. ومش عايزين منها حاجة .
- لكن ده لا في دين ولا شرع.. هل ديننا الإسلامي بيقول كده، الدين فرض على الغني زكاة المال.. ولو أحسنت الإدارة استخدامها.. مش هيكون فيه فقرا، (مستطردًا باهتمام) في زمن الخليفة عمر بن عبد العزيز.. بيت المال ما كانش لاقي فقرا.. وده دور الحاكم ..
- ده عمر بن عبد العزيز يا يوسف.. مش جمال عبد الناصر.. التاني ده عايز يرضي جموع الشعب من الفلاحين علشان

يؤيدوا الانقلاب اللي سماه ثورة.. وما فيش أسهل من إنه ياخد مننا ويمنح غيرنا ..

تركت الأميرة كريمة زوجهـا، ودلفت نحو القصر، بينما جلس الأمير بمفرده وقد ترك لعقله العنان ليعيد شـريط الذكريات.. وهو يتأمـل تلـك المحنة الصعبة التـي يمر بها، فلم يكـن الأمير في يوم مـن الأيـام من الطامعيـن في مال أو سـلطان.. رغم كل مـا امتلكه مـن أراضٍ وعقـارات وقصـور وأمـوال لا نهاية لها.. فهـو كان قد اسـتقر معً نفسـه على أن هذه العطايـا والمنح التي خَصَّـهُ الله بها، هي مجرد وسـيلة ليستمتع بها قليلًا، أما المتعة الدائمة فهي بالزَّود بهـا في ميـدان العطاء.. ولذلك مـا كان في جيبه لـم يكـن ملكًا له، بل كان ملك الناس، فقد أوسـع الأمير في مسـاعدة الفقراء، وإقامة المشـاريع الخيرية، بل إنه كان يقوم بما يجب أن تقوم به الحكومة تجاه الشـعب في إنشـاء المدارس والمستشـفيات، ودعم الجامعة وإرسـال البعثات للخارج، وتطوير الزراعة وميكنتها، ورعاية الفن والفنانين، ومساندة الآراء الوطنية التي تطالب بالاستقلال الوطني، والتدخـل لحل الصراعات القبلية والطائفية، بما له من ثقل ومحبة لدى الناس، بالإضافة إلى ما أضافه من علوم واكتشافات جغرافية..

وقد أوقف الأمير يوسف كمال لمدرسة الفنون الجميلة مساحة قدرها ١٢٧ فدانًا من الأراضي الزراعية الواقعة بزمام مديرية المنيا بصعيد مصر، وأوقف عليها أيضًا عدة عقارات بمدينة الإسكندرية، وقد نص في حجة الوقف على أن يصرف ريعُها فيما يلزم لتدريس



وتعليم مائة وخمسين طالبًا من طلاب المدرسة، يكون الثلثان منهم من المصريين، والثلث الآخر من الأجانب بدون الالتفات إلى الجنسية والدين، ويكون تعليمهم مجانًا بغير استثناء، فيدرسون العلوم العصرية التي كان منها الخطوط العربية، والنقوش البارزة، وأشغال العمارات، والتصميمات والرسومات وغير ذلك.

وبينما تمر الأحداث على ذاكرة الباشا سريعًا، تذكر ذلك النقد الذي تعرض له حين أوقف جزءًا من الأراضي والعقارات على مدرسة الفنون الجميلة، وكان المتشددون يتربصون بالباشا، فقالوا إن الإنفاق على الفنون محرم ومخالف للشريعة، كما خرجت شياطين الفتنة من جحورها، ونفخت في الكير، فقالت إن الوقف لغير المسلمين غير جائز، وحرضت على عدم التصريح للباشا بهذه الوقفية .

وكان يوسف باشا جدير بوضعه الأدبي والاجتماعي بأن يقضي على هذه الفتن، لكنه أراد أن يطعنها في مقتل بقوة البرهان الذي لا يقبل الشك، فرضخ لعرض الأمر على محكمة مصر الشرعية في ذلك الوقت، فأجازت المحكمة وقفية الباشا، وقالت في حكمها أنه لا يوجد مانع شرعي للوقف على أغراض الفنون وتعلمها، طبقًا لما ورد بنص حجة الوقف، بما في ذلك اشتراط يوسف باشا.. أن يقوم بالتدريس مدرسون من فرنسا وإيطاليا، وأن تُمنح ميدالية برونزية لكل من الطلاب من فرنسا وإيطاليا، وأن تُمنح ميدالية برونزية لكل من الطالب الأول والثاني من الناجحين

بالفرقـة النهائيـة مكتوب على أحد وجهي الميداليـة (إنا فتحنا لك فتحًا مبينًا)، وعلى الوجه الآخر تذكار من الأمير يوسف كمال.

وبهـذا الحكـم العادل الذي كشـف بصورة عملية عن سماحة الإسـلام.. اسـتفاد عشـرات المسيحيين مـن الالتحاق بمدرسـة الفنون.. والانتفاع بوقفية الأمير يوسف كمال .

وقد أوقـف الأمير أيضًا بعض المجموعات الأثرية واشـتملت وقفياتـه علـى مجموعـة نادرة مـن المقتنيـات الأثرية، مـن نفائس التحـف ذات القيمـة العالية في فنها وجمالها الـذي لا يقدر بثمن، وقـد حرص على تسـجيل القطع الأثريـة التي وقفهـا قطعة قطعة، مع وصف تفصيلي لكل منها، مثل منشـأ صناعتها، وتاريخ صنعها وثمنها الذي قُدرت به في سنة وقفها.

وكانت تشـمل مجموعات من الأطباق والصحون، والأباريق، والخناجر، والسيوف، والمشغولات الفضية والذهبية، واللوحات الفنية، وكلها ذات نقوش وزخارف ورسوم آية في الجمال، وتنتمي إلى بلدان متعددة من الصين شرقًا إلى تركيا شمالًا، ومراكش غربًا والسـودان جنوبًا ويرجع تاريخها إلى عصور مختلفة منها القديم، ومنها الوسيط، ومنها الحديث.

وبلـغ عدد القطـع التي وقفها الأمير يوسـف كمال ٤٩٥ قطعة، وأمـر بنقلهـا بعـد أن وقفهـا إلـى دار الآثـار العربيـة والإسـلامية



المصرية بباب الخلق، ليُنتفع بها، ويُصرف ريعُها من الرسوم التي يدفعها الزائرون للفقراء والمحتاجين على الدوام.

وفي سنة ١٩٢٥ قام الأمير يوسف كمال بوقف مجموعات أخرى من القطع الأثرية، ومجموعة من الأقمشة القطنية التي يرجع تاريخها إلى القرنين السابع، والثامن الميلاديين، ومجموعات من اللوحات الفنية والكتب والمراجع الخاصة بالفنون الجميلة وبالعمارة، وبعض الصور المجسمة، وجعلها وقفًا، ليستفيد منها المشاهدون وطلاب العلم والمبدعون بدون مقابل.

لقد كان يوسف باشا كمال .... دولة بأكملها ..

وطن.. من لحم ودم وأعصاب.. يعيش داخل الوطن ..

وتذكر يوسف كمال، وهو يسترسل بمقلتيه في متابعة أسراب الطير التي كانت تقطع السماء ذهابًا وإيابًا فوق حديقة القصر، ذلك اليوم الذي تنازل فيه عن اللقب الملكي، وقرر أن يتخلى عن سلطان العائلة المالكة، وأن يصبح واحدًا من جموع الشعب، يشعر بنبضهم ويعيش محنتهم، ويحاول مساعدتهم بقدر ما منحه الله من عطايا.. ورغم أن خبر تنازل يوسف باشا عن لقب الأمير أو البرنس، قد قلب الدنيا ولم يقعدها إلا أنه لم يُعرْه أي اهتمام.. فقد كان اهتمامه الأول أن يتحرر من هذا اللقب الذي سُجن وراءه عمرًا طويلًا، وفقد إحساسه بحريته.. بتقاليده وطقوسه القاسية .

كان لسـان حـال يوسـف كمـال فـي هـذه اللحظة وكأنـه يقول لجمـال عبـد الناصر.. لقـد تخليت عن لقبي الملكـي الأعظم منذ سنوات طويلة... قبل أن تفكر أنت في أن تنزع عني لقب الباشاوية الـذي مـا كان يثمن أو يغني من جوع.. ويسـتطرد فـي حديثه لعبد الناصـر قائلًا.. أنا قمت بثورة قبلـك، وعاونت الحركات المطالبة بالاسـتقلال قبلـك.. وقضيت علـى الإقطاع قبلـك حين وضعت ثروتـي.. ثروة أغنـى أغنياء مصر في خدمة الشـعب.. في وقت لم تكن أنت فيه يا ناصر قد أتيت للدنيا من أصله...

ومرت تلك اللحظات مؤلمة.. ويوسف كمال.. يتوقع أن يتكرر معه نفس المصير الذي حدث مع غيره من أبناء الأسـرة العلوية أو من الأعيان، لكن هذه اللحظات لم تنسـه أحوال الناس في النجع، ولا مـا ألـم بهـم من فتنـة عقب قضيـة الكـوخ التي حملـت الرقم ١٩٣٥.. إنهـا أيام تجبر نفسـها على أن تلح علـى الذاكرة، فآثارها محفـورة فـي الوجدان، وهي ليسـت في الحال الرخـو التي يمكن أن تذوب فيها كما يذوب الملح في الماء، بل هي راسخة بمواقف الباشا الذي حاول حسمها في الوقت المناسب عندما كانت مجرد شـظية صغيرة متناثرة بغبار خائن. ولا يعرف يوسف كمال.. لماذا بدا إليه في هذا المشهد بالتحديد.. أبونجا.. المسيحي الإفريقي.. الذي كان يجهل كل شيء عن الإسلام.. وبمجرد أن التقى أخلاقه تسـير علـى قدمين مجسـدة في يوسـف باشـا.. فقد تفهـم أن هذه الطقـوس التي يمارسـها الأمير فـي صلواته.. هي عبـادة حقيقية..



عبادة مع الله.. لذلك هيأ له سجادة الصلاة، حين كانت زوجته ناريم بين الحياة والموت، وطلب منه أن يصلي من أجلها.. وأن يدعو لها الرب في السماء!!.

فأي حوار راقٍ.. بين الأديان ...... هذا الذي أشار إليه أبونجا بتصرفه؟

وأي لقاء عميق.. بين الحضارات.. هذا الذي رسخه الباشا بموقفه من أبونجا وعائلته؟..

فتلك الفتنة التي دارت طواحينها في النجع، هي بالطبيعة ليست من صنع الفطرة الإنسانية، إنها من صنع الشيطان حين يستسلم له الإنسان بخواره وضعفه، وقد يكون هذا الشيطان متمثلاً في مستعمر بغيض، أو عدو غامض يستتر تحت عباءة الصديق، أو عميل خان وطنه وأرضه وشعبه من أجل حفنة زائلة من المال أو جبل على الماء من المنصب والجاه.. ومهما تعددت صور هذا الكائن.. مشعل الفتنة.. فإنه في النهاية شيطان رجيم.

وبينما كان يوسف كمال يسترسل مع شريط الذكريات، ويعيد مع نفسه مواقفه، معاتبًا في نفسه هذا الحال الذي آلت به ثورة الضباط الأحرار مع من هم من أمثاله.. حدث ما توقعه، وفوجئ بأحد العاملين في قصره يخطره بأن هناك رجلًا يرتدي زيًّا عسكريًّا، ويضع على أكتافه رتبة اليوزباشي.. يطلب مقابلة الباشا.. فسمح له بذلك، ولما دلف الضابط نحو الأمير كان بصحبته حشد من رجال

البوليس والموظفين العموميين، وقد اقترب من الباشا.. الذي استمر في جلسته بثبات الواثق، فحدثه ضابط الجيش متسائلًا:

- حضرة.. يوسف كمال؟!!

أجاب الباشا الجالس في حديقة قصره:

- نعم.. أنا يوسف كمال.

- أنا اليوزباشي حسن سليم.. من الحراسات.. معايا أمر بفرض الحراسة على ممتلكاتك ومصادرتها لصالح الشعب.

وأشار اليوزباشي إلى واحد من مرافقيه، فأخرج عريضة الأمر، وتناولها اليوزباشي الذي بدأ في قراءتها.. فأشار له الباشا بالتوقف، وقال له بجسارة معهودة منه:

- ما فيش داعي تتعب نفسك.. أنا عارف إنت عايز تقول إيه.. (وبرسوخ أدهش الجميع استكمل حديثه) نفذ الأوامر يا حضرة الظابط.

شعر اليوزباشي بحرج شديد، فهو لم يعتد في تنفيذ الأوامر السابقة مثل هذا الرد المسالم، وغالبًا ما كان يمطره الباشاوات بوابل من السباب للثورة ولعبد الناصر، فانحنى اليوزباشي قليلًا نحو يوسف كمال قائلًا:

- أنا بانفذ الأوامر يا فندم.. والأمر اللي معايا شامل كافة ممتلكاتك وقصورك وعقاراتك والأراضي الزراعية في مديرية المنيا ومديرية قنا، وفي الإسكندرية والقاهرة..

تحجرت الدموع في عيون الباشا.. وهو يتماسك بصلابة يحسد عليها، بينما عكست تلك الدموع المتحجرة بريقًا مُشعًّا أبهر من حوله، فحدث الضابط قائلًا:

- ممكن تسمح لي بوقت أرتب فيه حقيبة ملابسي أنا وزوجتي..

- طبعًا يا أفندم.. مسموح بكل متعلقاتك الشخصية وأوراقك الهامة.

وهَمَّ يوسف كمال متجهًا نحو باب القصر، فتعقبه بعض الموظفين حتى لا يسمحوا له بجمع مقتنياته الثمينة.. لكن اليوزباشي حسن سليم أشار لهم بالتوقف، تاركًا الباشا يسير بمفرده نحو قصره.

وحين أنهى الباشا جمع متعلقاته الشخصية بعد ساعات قليلة.. خرج بصحبة زوجته الأميرة كريمة.. وخلفه بعض من خدمه يحملون حقائبه وقد بدا عليهم التأثر الشديد، وفرت دموعهم منسابة وهي تترنح على وجناتهم، بينما تشبك الأميرة كريمة ذراعها في ساعده الأيمن.. فخطا المسافة بصعوبة بالغة من باب

القصر وحتى موقع لجنة الحراسات في منتصف حديقة القصر، وتوقف أمام اليوزباشي حسن سليم قائلًا وهو يشير لحقائبه:

- الحقائب دي فيها ملابسي أنا والهانم ومتعلقاتنا الشخصية فقط.. لو تحب تفتشها اتفضل..

رد حسن سليم بتأثر، وهو يدرك جيدًا تلك القيمة الشامخة التي يقف أمامها:

- العفو يا حضرة يوسف باشا.. مواقفك الوطنية وخدمتك للشعب وللوطن لا ينكرها إلا جاحد.. لكن أنا بأكرر إني بأنفذ الأوامر.

- كل المقتنيات الثمينة هتلاقيها جوه القصر.. وأنا أمرت سكرتيري الخاص بالتعاون معاكم، وهو هيرافق اللجنة في كل مكان فيه ممتلكات خاصة بي في مصر، وهيسلمها لكم.

اقترب اليوزباشي حسن سليم من الباشا قائلًا برفق:

- القرار يشمل ترك أحد العقارات لاستخدامك والمعيشة فيه، وكمان اللجنة هتقرر لجنابك راتب شهري محترم، بالإضافة لسيارة خاصة بجنابك.

نظر إليه يوسف كمال نظرته الأخيرة، وكأنما يلخص له في تلك النظرة كل هذا التاريخ المشرف لهذا الرجل، وحدثه قائلًا:

- أشكرك.. أنا مش محتاج لكل ده.. أنا هأقيم عدة أيام في أي أوتيل، وبعدها هاسيب مصر وأسافر لأوروبا .

وهَمَّ الباشا أن يخطو خطواته الأخيرة، ليترك هذا المكان الذي قضى فيه أروع أيام حياته.. لكن مشاعر من الحزن والتأثر ألمت بالجميع.. ووجد اليوزباشي حسن سليم وبتلقائية لم يحسب حسابها يؤدي التحية العسكرية بصرامة إلى يوسف باشا، ثم يصافحه منحنيًا.. ويصطحبه حتى بوابة القصر الخارجية .

■ ■ ■

وقضى يوسف باشا أيامًا قليلة في العاصمة القاهرة.. نزيلًا في أحد فنادقها، وكان قد قرر أن يترك مصر المحروسة، رغم أنها أغلى بقاع الأرض إلى قلبه، لكنه شعر أن وجوده بمصر سيمثل له عجزًا كبيرًا، فهو قد اعتاد العطاء بلا حدود.. والآن وقد سلبت منه كل أمواله، فسوف يتوقف هذا العطاء، وذلك ما لم يعتده منه الناس .

ولذلك قرر أن يترك مصر.. متوجهًا إلى ستروبل بالنمسا.. تلك المدينة الرائعة التي كانت وجهته دائمًا كلما رحل إلى أوروبا والتي احتفظ في بنوكها بثروة طائلة، وفي منزله بأرقى ضواحيها قرر أن يعيش بقية عمره.. فقد أرادها آخر محطات حياته .

ولحظة وداعه.. بكى طوسون قائلًا:

- سموك.. دي زوبعة في فنجان، ومش ممكن هتأثر على مسيرتك يا باشا.. بكره الظروف تتحسن وترجع بلدك من جديد يا سمو الأمير ..

نظر إليه يوسف كمال ودموع الرجال تفر من عينيه في تلك اللحظة الحاسمة في حياته، وقد تملكته مشاعر متضاربة، لم يستطع أن يعبر عنها بفيض من الكلمات، فتروى قليلًا ثم تفَوَّه بعبارات العاشقين قائلًا:

- مصر أهم من كل شيء.. المهم.. مصر!!

■ ■ ■

مرت شهور قليلة والثورة الوليدة تحاول أن تثبت أقدامها، ومن يوم لآخر كانت شعبية جمال عبد الناصر تزداد توهجًا، وهو يحاول أن يحارب طواحين الهواء كي يحقق أهداف الثورة.. وكان الشعب يرى الفساد ... قيء فوق الطعام ...والديكتاتورية ... اغتيال بالسم البطيء ...والصمت ... قيد في معصم اللسان ... والاحتلال ... زوج أم الحرية ...

والثورة ... جثة هامدة ... عادت إلى الحياة فجأة ... فقررت أن تحيا بروح جديدة وأن تستنشق عبيرًا نقيًا ... وأن تصوب بارود المدافع في اتجاه الطغاة والجبابرة، فتحدث ذهولاَ يفجر البراكين ... وتلد أملاَ يحبو من أمد ما بقي طويلًا في كفن الحلم، فلما رأى عين الشمس أيقظ كل الجثث الراقدة بجواره ...

فقد بدأت ثورة يوليه عام ١٩٥٢ كانقلاب عسكري ثم تحولت إلى ثورة شاملة ... فسيطر الجيش على مقاليد الأمور وتخلص من الحكم الملكي الذي تربى في حجر الاستعمار ثم أدمن الرضاعة من ثدي التواطؤ والعمالة، ولذلك قرر الثوار في خطوتهم التالية طرد الاحتلال الإنجليزي الجاثم على خيرات الوطن عقودًا طويلة ثم حاولت أن تحقق العدالة الاجتماعية وأن تقضي على سيطرة رأس المال على الحكم ... وتعيد توزيع الثروات على الشعب بعد أن حققت القضاء على عنصرية رأس المال .

كان الرئيس عبد الناصر مهتمًّا إلى حد كبير بتأمين الثورة وحماية أهدافها، وذات يوم من أيام شهر يوليو عام ١٩٥٣، كان مبنى مجلس قيادة الثورة يعج بنشاط غير عادي، فقد دعا الرئيس جمال عبد الناصر قائد الثورة ٤٠ ضابطًا من قادة تنظيم الضباط الأحرار لأمر بالغ في الأهمية، وبدأ حديثه للحضور قائلًا:

- ليس لدينا حزب سياسي، لقد قمنا بالثورة ولا بد من أن ندافع عن أنفسنا وعن الثورة، حتى الآن لا نعرف كيف نفعل ذلك، نحن في حاجة إلى جهاز يتولى حمايتنا والدفاع عن الثورة، ولا بد من أن نؤسس جهاز مخابرات وأنتم مكلفون بذلك.

واستقر رأي عبد الناصر على تكليف زكريا محيي الدين كأول رئيس لجهاز المخابرات المصرية، وكان الاحتلال الإنجليزي متواجدًا في منطقة قناة السويس، ولهذا تأسست شعبة في جهاز

المخابـرات باسـم «شـئون الإنجليز» يكـون هدفها الأساسـي هو تحديد الوسـائل التي تجبر الاسـتعمار على الخروج من مصر ... وكان شـعار تلك الشـعبة.. في الصباح مخابرات .... وفي المساء فدائيون..

ومـن أبرز من انضموا لجهـاز المخابرات العامة في تلك الفترة محمد غانم صاحب السـجل الوطنـي الحافل ... وهو من أخلص الذين آمنوا بالثورة على منهج ومبادئ جمال عبد الناصر، ورغم أنه لم يكن من ضمن تشـكيل تنظيم الضباط الأحرار الذي قام بالثورة ... إلا أنـه قـدم إليهـا خدمـات تاريخيـة على عكس مـا كان يفعله فريـق المنتفعين بالثـورة والذين أخذتهم زهوة الحكم والسـلطان فوصفهم عبد الناصر بأنهم عصابة تحكم مصر ...

وكانت الفترة بين انتهاء خطة إخراج الإنجليز من قناة السـويس وابتداء خطة بعث القومية العربية ومحاربة حلف بغداد، هي الفترة الوحيـدة التـي كان لمحمـد غانم كرسـي ومكتب في أحـد مباني المخابرات العامة شـاغلاً منصب نائب مدير إدارة المعلومات عن طريق وسـائل الإعلام المقروءة والمسـموعة والمرئية، وكان عبد القادر حاتم مديرًا لتلك الإدارة في ذلك الوقت ...

كانت فترة زمنية قصيرة جدًّا - مجرد سـتة أشـهر - لكنها كانت مـن أهم الفتـرات في حياة هـذا البطل، فقد كانـت مهمته الاطلاع وقـراءة الصحـف والمجـلات العلميـة والعالمية يومًـا بيوم، على جميـع اتجاهاتها، اليسـارية منهـا واليمينية والراديكاليـة وغيرها،



وكذلك الاستماع لجميع محطات الإذاعة العالمية والتركيز على ما يخص مصر بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، وما يخص السياسات العالمية بصراعاتها المختلفة وترجمة ذلك وتبويبه عن طريق عدد كبير من المتخصصين والمترجمين، ثم البحث عما يربط كل هذه الأخبار والمعلومات بمصر وسياساتها المحلية والدولية، وأخيرًا يتم جمع مقتطفات مختصرة عن كل موضوع مع تعليق من مدير الإدارة عبد القادر حاتم للعرض على الرئيس جمال عبد الناصر صباح وبعد ظهر كل يوم ...

كان محمد غانم من هؤلاء الذين بدءوا حياتهم في النضال تحت شعار.. في الصباح مخابرات .... وفي المساء فدائيون، فهو أول فدائي مصري في السجل الباسل للقوات المسلحة المصرية وقد التصقت هذه الصفة به ولازمته طيلة حياته، وكان من الطبيعي أن تستفيد به الثورة ... بمفهوم الثورة لدى جمال عبد الناصر ...

فقد كان محمد غانم مقاتلاً محاربًا بحكم كونه ضابطًا بالقوات المسلحة، فقد تخرج في الكلية الحربية دفعة ١٩٤٤ وكان جمال عبد الناصر أستاذه ومعلمه بالكلية الحربية، ثم عين بعد تخرجه في سلاح المدفعية، وفي ١٥ مايو عام ١٩٤٨ قررت الحكومة المصرية في ذلك الوقت الدخول إلى فلسطين عسكريًّا لمساعدة الشعب الفلسطيني أمام التطلعات الصهيونية لاحتلال أرض فلسطين، وكان ذلك عقب قرار الحكومة البريطانية إلغاء انتداب عصبة الأمم المتحدة لها بحكم فلسطين، وانسحاب قواتها المسلحة من

أرض فلسطين تاركة تلك الأرض للصراع الفلسطيني الصهيوني وكان محمد غانم الضابط الفني لإحدى بطاريات المدفعية ٢٥ رطلاً التي يملكها الجيش المصري في ذلك الوقت، والتي كانت في واقع الأمر أحدث مدفع أثبت وجوده في معركة العلمين وما تبعها من معارك حتى انتهاء الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٥، وكان آلاى المدفعية ٢٥ رطلاً هو ممثل سلاح المدفعية ضمن قوات المقدمة برئاسة اللواء سيد طه الذي لقبوه بالضبع الأسود والتي عبرت الحدود المصرية الفلسطينية من مدينة رفح فجر ١٥ مايو ١٩٤٨ .

وقد تنقل محمد غانم من معركة إلى معركة وأبلى بلاءً حسنًا وفرضت عليه الظروف أحيانًا أن ينقلب من محارب إلى فدائي إلى الحد الذي استحق الإنعام عليه بوسام نجمة الملك فؤاد العسكرية ... وكان هذا الوسام هو أعلى وأرفع الأوسمة العسكرية مقامًا قبل قيام ثورة يوليه ولا يمنح إلا لعدد محدود جدًّا ممن كانت شجاعتهم وبلاؤهم محل التكريم الخاص .

وفي أحد الأيام الأولى لشهر ديسمبر عام ١٩٤٨، كان محمد غانم قد انتقل حديثًا للعمل ضمن رئاسة قوات المدفعية في المعركة وكان مقرها مدينة غزة، وحضر إلى رئاسة المدفعية قبل ظهر ذلك اليوم البكباشي محمود رياض المسئول عن مخابرات الحملة المصرية في فلسطين في ذلك الوقت.. واجتمع يومها البكباشي محمود رياض مع اللواء الجارحي مدير مدفعية الحملة

المصرية في فلسطين، والصدفة والقدر جعلا محمد غانم متواجدًا داخل هـذا الاجتماع، وطلب محمود رياض مـن اللواء الجارحي تعيين ضابط من أكثر ضباط المدفعية تدريبًا لتكليفه باختراق الحدود الفاصلة بين القوات المصرية والقوات الإسرائيلية أمام غزة بعد غروب الشمس حتى يصل إلى منطقة يطلق عليها «بين النهدين» وهي مسافة مسطحة لا تتجاوز حوالي ٣٠٠ متر تفصل بين سلاسل الجبال الموازية للبحر الأبيض المتوسط في مواجهة غزة وتسيطر عليها القوات الإسرئيلية، على أن يقبع هذا الضابط وسط هذه المنطقة حتى بعد منتصف الليل ليوجه نيران المدفعية المكثفة بهدف تدمير القوات الإسرائيلية المستترة خلف سلاسل الجبال في انتظار ظلمة الليل حتى يمكن عبور هذه المسافة المسطحة غير المحمية من الجبال في طريقها لتطويق القوات المصرية ولتضعهم داخل كماشتها ...

واعترض اللواء الجارحي مؤكدًا للبكباشي محمود رياض أن من يقوم بمثل هذه المهمة من ضباط المدفعية يجب أن يكون من أكفأ الكوادر وأن عدد هؤلاء محدود تحت قيادته، وحيث إن عودة هذا الضابط من مهمته تكاد تكون مستحيلة فلا يستطيع أن يضحي بالإمكانات المحدودة تحت قيادته وما زالت الحروب قائمة... مقترحًا أن الأنسب تكليف وحدة محاربة مناسبة ومتكاملة بالهجوم الكاسح على القوات الإسرائيلية في مرحلة محاولتها

تخطي هذه المسافة المكشوفة مع مساعدة المدفعية لهم من نقاط ملاحظة مأمونة وليست مدسوسة وسطهم ...

وكان للواء الجارحي حجة قوية، فقد شرح للبكباشي محمود رياض الخطة الإسرائيلية للإطاحة بالقوات المصرية في غزة بتطويقها في كماشة محتمًا أن يصل أحد فكيها إلى مدينة العريش المصرية نفسها، وكان رأي اللواء الجارحي أن مثل هذه العملية الفدائية لا فائدة لها لأن احتمالات فشلها كبيرة للغاية، وأنه من الأفضل المواجهة بقوة عسكرية مصرية هائلة ...

كان الدم يغلي في عروق محمد غانم وهو يستمع لمحاولات البكباشي محمود رياض ومعارضات اللواء الجارحي، فقد أثارته فكرة أن تطأ القوات الإسرائيلية الأرض المصرية وكان حتى ذلك الوقت أمرًا مستبعدًا كل الاستبعاد، فقدم محمد غانم نفسه للواء الجارحي مستعدًّا للقيام بهذه التضحية ولكنه أسكته بحزم اللواء القديم للملازم الحديث ...

ولكن محمد غانم لم يسكت ... فقد انتفضت وطنيته ونبضت عروقه من غليان ما بها من دماء ... فهو يرى أنه يستطيع أن يقوم بهذه المهمة ... وقادته الأقدار ليقص ما حدث بين اللواء الجارحي والبكباشي محمود رياض إلى البكباشي أحمد حسن الفقي أركان حرب مدفعية الحملة المصرية في ذلك الوقت، وكان وطنيًّا متحمسًا فأخذ على عاتقه مهمة إقناع اللواء الجارحي حتى انتزع موافقته بصعوبة بالغة، واصطحب محمد غانم متوجهًا



إلـى القيادة العامة للقوات المسـلحة المصرية فـي الميدان وقابلا البكباشي محمود رياض الذي قدم محمد غانم إلى اللواء أ.ح فؤاد صادق قائد الحملة، فقدمه البكباشي أحمد حسن الفقي إلى اللواء فؤاد صادق كأحسـن متدربي ضبـاط المدفعية على الإطلاق، وأنه تطـوع بكل الروح العالية لتنفيذ فكرة المخابرات الحربية المصرية بالتواجد وسـط القوات الإسرائيلية في الوقت المناسب وبالتركيز المؤثر والمطلوب ...

ونظر القائد إلى الملازم محمد غانم متفحصًا في دهشة وسأله:

- إنت مقدر خطورة اللي إنت هتقوم بيه؟!
- أيوه يا فندم ...
- الأمانة تفرض عليَّ إن أقول لك إن احتمال رجوعك يكاد يكون مستحيلًا ... إنت هتكون وسطهم ولا بد هيكتشفوك ويقتلوك ...

رد الملازم الشاب بثقة وإيمان ممزوج بالتحدي:

- سيادة القائد أنا شاب ماليش التزامات (ولم يكن قد تزوج بعد) ولا أستطيع أن أواجه أهلي وأصدقائي لو حط العدو رجله على متر واحد من أرضنا، فما بال وصولهم للعريش وتطويق الجزء الكبير من الجيش المصري في فلسطين...

وأبـدى القائد تقديره الكامل لحديث الضابط الشـاب الذي لم يتردد لحظة في تلبية نداء الوطن قائلًا:

- أحييك ... وأحيي روحك العالية ولكن الأمانة أيضًا تفرض عليَّ أن أقدر احتمالات نجاح العملية بما لا يزيد عن ٣٠٪ .
- حتى لو كانت ٣٪!!.

قالها محمد غانم بإصرار وصدق وعزيمة وتوكل على الله سبحانه وتعالى، وأمام إصراره أمر القائد على الفور بتنفيذ العملية في نفس الليلة وأعطى تعليماته بأن يتم وضع جميع مدافع الميدان لكل وحدات المدفعية المصرية في جبهة غزة تحت إدارة الملازم محمد غانم بعد ظهر ومساء ذلك اليوم، وطلب القائد منه إعداد شبكة نيران مكثفة بحيث تنطلق المدافع جميعها موجهة أينما كان موقعها على ثغرة بين النهدين (مسافة ٣٠٠ متر تقريبًا) في دفعات متلاحقة ومركزة في الوقت الذي يراه مناسبًا عندما تكون كل الوحدات الإسرائيلية في هذا المضيق مستخدمًا في ذلك كودًا لاسلكيًّا يتفق عليه لتقليل استخدام أجهزة اللاسلكي بقدر الإمكان خوفًا من أن يلتقط العدو إشارات اللاسلكي ويجهض العملية ...

وانشغل محمد غانم بعد ظهر ومساء ذلك اليوم في حساب خط نيران كل مدفع من المدافع التي وضعت تحت تصرفه، وبعد أن وضع خطته حاول النوم قليلًا ولكن عينه لم يغمض لها جفن، وبعد العاشرة مساءً تسلل خارجًا من خطوط الدفاع المصرية بعد أن أحيط علمًا بمسارات الألغام في خط المواجهة المصرية كي يتفاداها، ولكن كانت المشكلة الحقيقية في خط ألغام العدو أمام



جبهتـه وقـد تفادها بمهارة شـديدة مـن براعة تخطيطه واسـتعداده الـجيد.

وكانت أجهزة اللاسـلكي في ذلك الوقت كبيرة الحجم وكثيرة الأعطـال ... فاصطحـب محمد غانـم معه أحد عمال اللاسـلكي الـذي حمل الجهاز الثقيل فوق ظهره، بالإضافة إلى دليل عربي تم اختيـاره بعنايـة ليقوده في ظلمة تلك الليلة إلى أنسـب طريق يصل بـه إلى منطقة بيـن النهدين على بعد حوالي أربعـة كيلو مترات في أرض وعرة مليئـة بالتضاريس غير الممهدة وبالألغام من الجانبين ... وبفضـل خبـرة الدليل العربـي وصل الملازم محمـد غانم إلى موقع القوات الإسـرائيلية قبل منتصف الليل، ورآها رأي العين في مجنزراتهـا وحاملات جنودها في انتظـار الأمر بعبور المضيق بين سلسلة الجبال في غفلة من القوات المصرية يسترهم ليل بهيم ...

كانت القوات الإسرئيلية في عرباتها ومصفحاتها ودباباتها على الطريق بينما كان محمد غانم ومن معه على بعد خطوات منهم على حافة الطريق نفسـه وسـط مجرى مياه الأمطار الموازية لكل طرق فلسطين التي يسـير موازيًا لها وفي أحد جوانبها ممر منخفض عن مسـتوى الطريق تتجمع فيه مياه الأمطار، وفي ممر المياه هذا وفي حمى شـجرة من شـجرات الطريق احتمت المجموعة الفدائية بلا حـراك وبـلا نطق ... وتكاد تكون بلا نفس، يسـتمعون إلى حديث الجنـود الإسـرئيلين وصراخهـم وضحكاتهم المغـرورة، وكانت التعليمـات التي وضعها محمد غانم ألا يفتح جهاز اللاسـلكي إلا

في الوقت المناسب وبأقل عدد من الكلمات يشملها كود متفق عليه مع زملائه ضباط المدفعية خلف مدافعهم على الجانب الآخر من الجبهة .

وبعد حوالي ساعة مرت كما لو كانت دهرًا، جاءت اللحظة التي عمل لها البطل الفدائي محمد غانم ألف حساب، وصدرت التعليمات للقوات الإسرائيلية بالتحرك متخطية مضيق بين النهدين، ومع أزيز المحركات وزمجرة أصوات المجنزرات فتح محمد غانم جهاز اللاسلكي وأصدر التعليمات لأول طلقتين من أحد المدافع ليختبر بهما صدق تصوره لخط النار، وصادف أن كانت سرعة الريح على معدلها المحسوب رغم أن توقيت تلك العملية الفدائية كان في فصل الشتاء وما يثار في مثل ليالي الشتاء من تقلبات في الجو.

وفي أعقاب الطلقتين تأكد صدق الحسابات، ونطق الملازم محمد غانم بالكود الثاني الذي يعني جحيم من القذائف في وقت واحد من عشرات المدافع المجهزة لهذا الأمر، وتكررت موجات شبكة النيران لتسقط جميعها بتركيز محكم بين النهدين مدمرة تدميرًا كاملًا كل القوات الإسرائيلية التي كانت تأمل أن تطوق القوات المصرية وتصل كماشتها إلى وادي العريش وتقدر بنحو ٣٠٠ قطعة حربية من أحدث الدبابات والمصفحات والمجنزرات وحاملات الجنود والمدافع المتحركة ...

وتابع محمد غانم ورفاقه اهتمام العدو بإخلاء أرض المعركة من آثارها، فسرعان ما حضر عدد كبير من سيارات الإسعاف لتنقل المصابين ما بين حياة أو موت، وكذلك الأوناش الضخمة لترفع مخلفات الضرب المركز للمدفعية المصرية، ومع انشغال العدو بإخلاء آثار التدمير المروع، قاد الدليل العربي هذه المجموعة الفدائية الباسلة في رحلة العودة إلى داخل حدود القوات المصرية حيث كان في انتظار محمد غانم زملاء السلاح في فرحة ودهشة وزهو بالانتصار، فقد كانوا قد أيقنوا من قبل أنه لن يعود ... واصطحبوه فورًا إلى اللواء فؤاد صادق الذي عبر له بفخر عن تقديره وتقدير قواتنا المسلحة وتقدير الوطن لما قام به .

ودخل محمد غانم تاريخ الأمجاد كأول فدائي في التاريخ الباسل للقوات المسلحة المصرية وخيره اللواء فؤاد صادق بين أن يصدر أمره بترقيته ترقية استثنائية إلى رتبة اليوزباشي أو أن يحصل للمرة الثانية على نجمة الملك فؤاد العسكرية ... فعادة ما تحتفظ النياشين بذكريات الأمجاد والانتصارات .

ثم كانت المفأجاة ... فقد طلب اللواء أركان حرب فؤاد صادق من محمد غانم أن يختار بمعرفته عشرة مقاتلين يشكل بهم بقيادته وحدة فدائية يوجهها بنفسه كل يوم في مهمة فدائية يختارها ويحددها القائد بنفسه، وكانت أول مهمة هي التسلل ليلاً خلف خطوط العدو في موقع محدد داخل قطاع غزة لإطلاق النار على قوات العدو في جزء من خطة إرهابهم وتخويفهم، أما المهمة

الثانية فقد كانت نسف كوبريين صغيرين على بعض مجاري المياه فـي عمق القوات الإسـرائيلية وذلك بهدف إعاقـة تحركات آليات العدو في مواقع معينة وقد نجحت هذه العملية أيضًا نجاحًا فائقًا...

■■■

ربمـا كان هـذا التاريـخ المشـرف للضابـط محمـد غانـم، هو الـذي جعل عبد الناصر يفكر فيما بعـد في خطته لإجبار الاحتلال البريطانـي علـى الرحيـل، فبعد نجاح الثـورة، والتـي كان من أول مبادئها القضاء على الاسـتعمار وإجلاء جنود الاحتلال البريطاني مـن مصر، ركـزت قيـادة الثورة علـى تحقيق هـذا الهـدف. وكان القـرار من مجلس قيادة الثورة بتشـكيل فريق عمل تحت إشـراف المخابرات العامة مهمته الأساسـية إزعاج الوجود البريطاني حتى تقتنع بريطانيا بأن وجودها في مصر لا يحقق أغراضها الاستعمارية، واسـتغلت مصر في ذلك بذكاء شـديد خروج بريطانيا من الحرب العالمية الثانية محطمة معنويًّا واقتصاديًّا، بالإضافة إلى أن استمرار حالة الطوارئ لأي قوات عسكرية باهظ في تكلفته ...

وكان نجـاح محمـد غانـم فـي بطولاتـه الفدائيـة علـى أرض فلسطين، هو الذي وجه البكباشي زكريا محيي الدين عضو مجلس قيـادة الثورة ومدير المخابرات العامـة في ذلك الوقت وبتعليمات من جمال عبد الناصر ليطلب من محمد غانم القيام بهذا الدور في مرحلة أخرى من مراحل الفدائية والتضحية الباسلة ...

ولعب محمد غانم دوره كرأس حربة في فريق المخابرات العامة لإزعاج الوجود البريطاني في مصر، وكان هذا الفريق مقيمًا إقامة دائمة داخل المعسكرات البريطانية تحت ستار أعمال خدمية مدنية كعمال الخدمات مثلًا ... وتنكر وانتحل محمد غانم أكثر من شخصية ليتمكن من البقاء أطول فترة ممكنة داخل معسكرات الاحتلال وتحت اسم «محمد صلاح» عمل مكوجيًّا وجرسونًا وسائق لوري وموزع مياه غازية وسائق عربة كارو وعطشجي في السكة الحديد خلال عملية نسف مخازن الذخيرة في «أبو سلطان»، وكانت كل هذه الوظائف الاستخباراتية تتم أثناء النهار ... فإذا حل الليل بدأت كل أنواع الإزعاج من نسف وخطف وتضحية جسدية وذلك على مدار ١٤ شهرًا من مايو ١٩٥٣ وحتى يوليو ١٩٥٤ قضاها محمد غانم في القرنص، وهي مناطق الشئون الإدارية التي كانت تخدم القوات البريطانية ... حتى اقتنعت إنجلترا تمامًا بالخروج من مصر بعد أربعة وسبعين عامًا من الاحتلال المقيت.

■ ■ ■

كان لابد أن تعتبر الحركات التحررية الإفريقية.. ثورة يوليه.. منارة للشعوب الإفريقية التي عاشت تحت وطأة الطغيان الاستعماري البغيض.. ولذلك نمت العديد من حركات المقاومة في بلدان إفريقيا، وكانت الثورة المصرية تساند تلك الحركات وتمدها بالسلاح.. وتستضيف البعثات الممثلة لها في مصر.. حيث تُعبر من خلال القاهرة عن مطالبها وينطلق صوتها للعالم كله.

ومن بين المكاتب التي إستضافتها الثورة في مصر.. مكتب الحركة الشعبية بأوغندا.. وكان أبونجا قد انضم منذ سنوات طويلة إلى الحركة المطالبة باستقلال أوغندا.. وضرب أروع الأمثلة في مقاومة الاحتلال.. من خلال عمليات المقاومة التي كان من أهدافها، بث الذعر والقلق في قلب المستعمر، ومع مرور السنين وتعاظم دور أبونجا في الحركة.. بالإضافة إلى حبه الجارف لمصر، فقد تم تكليفه من الحركة ليكون حلقة الاتصال مع مصر، وكانت مصر تمد الثوار في أوغندا بالأسلحة.. وأبونجا هو المسئول عن استلام هذه الأسلحة وتوصيلها إلى مخازن الحركة الشعبية.. وحين افتتحت الحركة مكتبها في القاهرة.. أوفدت أبونجا لرئاسة المكتب.. وفور وصوله للقاهرة.. حاول البحث كثيرًا عن الأمير يوسف كمال ... في كل مكان ... فهو لم ينسَ ما فعله معه البرنس.. وكانت زوجته ناريم هي الأحرص على مقابلة يوسف باشا وزوجته الأميرة كريمة.. تمامًا كما كانت أمنيتها عندما زار الباشا منابع النيل منذ سنوات طويلة .

وبعد بحث طويل.. عرف أبونجا أن يوسف باشا قد ترك مصر إلى النمسا.. وأنه سيقضي بقية حياته هناك.. فانتابته حالة من الحزن الشديد!!.

ورغم ما قامت به الثورة من حركة تنمية شاملة، ورغم اكتسابها شعبية طاغية بين دول العالم الثالث بمعاونة كافة الحركات الثورية وخاصة في إفريقيا ضد الاستعمار البغيض، فقد كان وطيس

الخلافـات داخل مجلس قيادة الثورة يشـتد يومًا بعـد يوم... لكن شـخصية عبد الناصـر كانت هي المركـز الذي تتطلـع إليه الأنظار والقلوب، وينتظر منه الناس في ثقة به أن يوقف الانحراف ويواجه الفساد ويدمر الخطأ وأن يصحح مسار الثورة كلما أصيب بالاعتلال والاعوجاج، وهو ما يعكـس علاقته القوية بالجماهير على عكس الآخرين ... لكن عبء الخلاف الناشـب في أروقة الحكم كان قد وصل إلى ذروته بما يعكس إحسـاس عبد الناصر نفسـه بأن رفاقه قد حادوا عن مسـار الثورة.. وفي أحد أيام عام ١٩٦٧، ذهب أنور السـادات لزيارة عبد الناصر على غير موعد كعادته معه ... فدخل عليـه حجـرة مكتبـه ورآه يجلس وقد وضع رأسـه بين يديـه حزينًا مهمومًا ... ووقف السادات يراقبه حوالي دقيقتين ثم سأله فجأة:

- جرى إيه يا جمال؟ ما لك؟ .

فالتفت إليه عبد الناصر في دهشـة، وكان واضحًا أنه لـم يشـعر بدخول أنور السادات إلى حجرة مكتبه وقال:

- إيه اللي جابك النهارده يا أنور؟

- النهـارده الجمعـة وأنـا لي مدة لـم أراك.. قلت أفـوت عليك أدردش معاك شوية وأنا عارف إنك يوم الجمعة بتبقى لوحدك.

ثم سأله أنور السادات باكتراث واهتمام:

- مالك شايل الدنيا على دماغك ليه يا جمال؟

فأجاب عبد الناصر في حزن:

- أيوه ... فعلًا أنا شايل الدنيا على دماغي يا أنور ... البلد بتحكمها عصابة وأنا مستحيل أكمل بهذا الشكل ... إني أبقى الرئيس المسئول واللي بيحكم هو عبد الحكيم وينفذ اللي عاوزه ... طيب أخرج أنا أحسن وأروح أقعد في الاتحاد الاشتراكي ... ويتولى هو رياسة الجمهورية، وأنا مستعد لأن أسأل عن الفترة اللي قعدتها لغاية ما هاخرج ... أجاوب عن أي شيء .

كان من الواضح أن عبد الناصر على معرفة بما يجري في البلاد وما تفعله لجنة الإقطاع بالناس، وضراوة مراكز القوى وحجرهم على الحريات واحتكارهم لجميع الامتيازات، ولذلك كانت نكسة ١٩٦٧ نتيجة متوقعة.. بعدها قرر عبد الناصر أن يستفيق، وانفرد تقريبًا بالسلطة.. وعين أنور السادات نائبًا له ... لكنه مات قبل أن يثأر لنكسة الجيش والشعب.. وودعه الملايين في مشهد تاريخي لا تنساه الذاكرة عبر الأجيال.

■ ■ ■

(١٧)

قبل عامين من تولي السادات حكم البلاد.. كان يوسف كمال يمر باللحظات الأخيرة في حياته، ورغم تلك السنوات الطويلة التي قضاها في ستروبل بالنمسا، فلم ينقطع عن مصر، بتتبع أخبارها وما آلت إليه أحوالها، وكانت هزيمة ٦٧ قد خلفت في نفسه ألمًا شديدًا، وسكبت على آلام الغربة الزيت، فأشعلت في قلبه وروحه نيران الحزن والاكتئاب، ولهذا قرر يوسف كمال وهو يشعر بدنو أجله أن يستكمل ما كان قد بدأه منذ أن وطأت أقدامه أرض المهجر، فقد قرر أن يعيد كافة أمواله وممتلكاته إلى مصر، وبالفعل أعطى أوامره بذلك.. وعادت ثروة يوسف كمال إلى الوطن بإرادته الحرة وبولائه إلى تلك الأرض الطاهرة لتشارك في رحلة التنمية واسترداد الكرامة .

في ذلك الوقت كان آرام قد أصبح تاجرًا كبيرًا.. من مشاهير التجار بالإسكندرية، وكان مركزه مرموقًا، ويشار إليه بالبنان في كل محفل، وقد توجت قصة حبه ببتول بثلاثة أبناء وبنت.. وحين اشتد عود أكبرهما ألحقه للعمل معه في متاجره.. أما بتول فقد

أعطت كل حياتها لبيتها وزوجها وأبنائها منه.. وكانت دائمة النصح والتوجيه لنجلها الأكبر عماد، فقد رأت أن زوجها آرام قد بلغ من العمر ما جعله غير قادر على متابعة أعماله ومتاجره التي انتشرت في كل أحياء الإسكندرية، ولذا كانت تشجع عماد دائمًا على بذل كل جهده كي يريح أبيه من مشقة العمل بعد أن بدأ العقد السابع من عمره .

ولم تنس بتول عائلتها في نجع حمادي، فبعد وفاة أبيها وأمها.. كان لا بد أن تتواصل مع شقيقها دوماديوس، فهي لم تكن شقيقته الكبرى فقط، لكنها كانت بمثابة أمه، وأحيانًا كثيرة كانت تطمئن على أحواله حين يصل إلى مسامعها أخبار لا تسرها عن أحوال النجع، وما قد يعانيه من موجات الفتنة الطائفية بين الحين والآخر ... لكن هذا الحصار الذي فرضه بولس قبل وفاته.. على علاقة أسرته بابنته الهاربة.. وتوارثه أبناؤه من بعده.. جعل لقاء بتول بأحب أشقائها إليها.. دوماديوس.. أمرًا مستحيلًا.. ولذلك لم تره عيناها طيلة هذه السنوات .

ودوماديوس القبطي، أصبح أشهر نجار في النجع كله، وكان محبوبًا من المسلمين قبل الأقباط لدماثة خلقه، وأمانته في مهنته.. حتى إنه تخصص في صناعة منابر المساجد.. وكان هذا الأمر محيرًا للعقول، لكن الصدفة وحدها هي التي جعلت دوماديوس مشهورًا في صناعة منابر المساجد، حين طلب منه أحد أعيان النجع صناعة منبر لمسجد أقامه، ولم يكن دوماديوس على خبرة

بهذا الأمر من قبل، لكنه قبل التحدي.. واستغرق شهرًا بأكمله في صناعة المنبر حتى أخرجه تحفة فنية رائعة، وذهب بنفسه ليضعها متاخمة للقبلة في المسجد ..

وكان الأهالي في النجع ينادون دومادیوس.. بالعم دومادیوس.. وكانوا يرقبونه بتعجب وهو يمسك بالهلال مبتسمًا، ويتهيأ لتثبيته على حافة المنبر الذي قارب على الانتهاء من صناعته في ورشته الشهيرة بنجع حمادي، فأمر هذا الرجل عجيب حقًّا.. بعد أن أصبحت حرفته الأساسية هي صناعة المنابر لمساجد الله، أقبل عليه المسلمون كي يقوم بهذه المهمة، ولم يستطيعوا الاستغناء عن أيدي دومادیوس المسيحي، الذي يصنع لهم منابر تصدح بابتهالات لله.

وصارت الأمور في نجع حمادي تسير على موجات من الغليان.. تهدأ أحيانًا وتفور كثيرًا، فقد وضع الاحتلال البغيض على مدى عقود طويلة قبل الجلاء بذرة الفتنة، وأحال ذلك التاريخ من السلام بين المسلمين والأقباط إلى تفشي أجواء تلك الفتنة اللعينة بشكل مستمر، فقد كان جليًّا للجميع على مدار التاريخ أن مصر لا تعرف مفهوم الأقليات، وأن شعبها نسيج واحد مترابط شعاره «الدين لله.. ومصر للمصريين».. لكن الرياح أتت بما لا تشتهي السفن .

ووقتها.. كان السادات يستعد لمعركة التحرير، بعد أن قضى على مراكز القوى، ووضع في اعتباره أن أول مسئولياته.. تحرير



الأرض.. وبدا الأمر صعبًا ومريرًا، وكان التجهيز العسكري على غير المستوى الذي يمكن أن تخوض مصر به الحرب ضد عدو غاشم، تسانده القوة العظمى الأولى في العالم..

وعقب الهزيمة في معركة يونيو١٩٦٧ حدث إجماع وطني مصري وعربي، بأن ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة، ولم تكن الأراضي المحتلة هي ما يستوجب استرداده فقط بل أيضًا كانت المهمة الأولى هي الثأر للكرامة الوطنية والقومية. فوضع السادات المجتمع المصري في حالة حرب وصار واضحًا أن معركة كبرى سوف تشتعل نيرانها ليس في الأجل الطويل بل في زمن وشيك، وكان الضغط كبيرًا على كافة المستويات الشعبية لاستئناف معركة استرداد قناة السويس وسيناء والأراضي العربية المحتلة منذ ١٩٦٧، واتسم المجتمع بحالة التأهب للحرب.

ومن مخاض الهزيمة كان الإصرار على الثأر والانتصار، وكانت الخطة التي وضعها أنور السادات، تهدف لتوفير فرص مناسبة للقوات المسلحة المصرية، لإعادة تنظيمها والقيام بمسئوليتها في الدفاع عن مصر واسترداد أراضيها. ومهمة إعادة بناء القوات المسلحة لم تكن أمرًا سهلاً، خاصة وأن أول ركائز هذا الأمر هو إعادة الثقة للمقاتل المصري، ورفع معنوياته، حتى يكون قادرًا على مواجهة قتال الجندي الإسرائيلي.. وأثبتت الأوضاع على جبهة القناة أن العدو كان مصرًّا على صلفه وغروره، بأعمال استفزازية ضد قيم الشعب المصري ومبادئه، وأنه لم يلتزم في أي

وقت بإيقاف إطلاق النيران، بل إنه كان يوجـه نيرانه باستمرار ضد سـكان مـدن القناة، حتى يكونـوا أداة ورهينة للضغـط على القيادة السياسية.

ومـع كل ذلك الاسـتفزاز المهين.. تزايد الضغط الشـعبي على الرئيـس الذي تولي الحكم في أعقاب زعيم تاريخي بحجم جمال عبد الناصر ..

لذلك كانت مهمة أنور السادات أشبه بالمستحيلة!!.

وبينمـا كانــت مصـر تسـتعد للحـرب، وكان السـادات ممعنًـا فـي تمويه العـدو بخطة خداع اسـتيراتيجية أبدع فـي التخطيط لها وتنفيذها، كانت أجواء الفتنة الطائفية تحرك السـحب الغائمة فوق أرض المحروسة، وفي يوم ٦ نوفمبر ١٩٧٢ – وكان يصادف عيد الفطر المبارك – قام مجهولون بحرق جمعية الكتاب المقدس في منطقـة الخانكة، على خلفية قيام بعض المسـيحيين بأداء الشـعائر الدينيـة بها تمهيدًا لتحويلها إلى كنيسـة، رغم عـدم حصولها على ترخيص لذلك الغرض، فقامت وزارة الداخلية بإزالة بعض المباني التابعـة للجمعية، التي تدخل ضمن الهيكل العام للكنيسـة المزمع إنشـاؤها، ومنعت استعمالها في الصلاة، وفي اليوم التالي قام عدد كبير من القساوسـة والرهبان، يتقدمهم البابا شنودة الثالث بمسيرة مشـيًا على الأقدام حتى موقع الكنيسـة، وهو ما استفز قطاعًا كبيرًا من المسـلمين المتطرفيـن، فأحرقوا عددًا من المحـلات القبطية. ومنذ هذه اللحظة بدأ السـادات يشـعر أن البابا يقود الأقباط وكأنه



زعيم سياسـي وليس رجل دين واعتبر هذه المسيرة غير المسبوقة، تحديًا مسـيحيًّا وتمردًا علنيًّا على حكمه. لكن البابا شـنودة الثالث كانـت له وجهة نظر أخرى، لم تكن بالطبع تتوافق مع سياسـة أنور السـادات التـي ارتآهـا البابا ضد الأقبـاط.. ولأن مصـر كانت تمر بفتـرة عصيبة، فهي قاب قوسـين أو أدنى مـن خوض حرب حتمية لا يُعـرف نتائجهـا، فكان لابـد أن تحتوى هذه الأزمـة.. والجيش المصـري نسيجه من أقبـاط مصـر ومسـلميها، ولا يمكن خوض الحرب وتلك الفتنة تندلع بقسوتها وتفرض سطوتها على المشهد المصري.

وفي الثانية وخمس دقائق من بعد ظهر يوم السـادس من أكتوبر ١٩٧٣، انفجر بركان الغضب المشتعل منذ ست سنوات.. فألقت المقاتلات والقاذفات ومدفعية الجيشـين الثانـي والثالث بالحمم المشـتعلة علـى حصـون خـط بارليـف الحصين، وجـرف اللهب المشـتعل داخل صدور مقاتلينا البواسـل في موجات عبور متتالية رمال السـاتر الترابي.. ودكت أقدامهم ببسـالة وشـجاعة ٣٩ نقطة حصينة، اعتبر الإسـرائيليون وكل العالـم أن الاقتراب منها من رابع المستحيلات.

وقبل ٢٤ سـاعة مـن انفجار البـركان الذي أذهـل العالم كله.. وبالتحديـد فـي الثانية من بعد ظهـر الجمعة الخامس مـن أكتوبر، خرجـت سـيارة جيب من مقـر وزارة الحربية يسـتقلها الفريق أول

أحمد اسماعيل القائد العام للقوات المسلحة ووزير الحربية.. وكان قد فرغ من أداء صلاة الجمعة في طريقه إلى غرفة العمليات.

وأشار أحمد إسماعيل إلى أعداد قليلة من المارة يسيرون في هدوء بالشارع، وقال لمرافقه من قادة الجيش وهو يتأمل وجوه الناس:

- ترى ماذا سيقول عنا هؤلاء الناس إذا قلنا لهم أن الحرب غدا في مثل هذا التوقيت؟!..

فرد الرجل قائلًا:

- طبعًا لن يصدقنا أحد!!.

وكانت سيناء كلها بشمالها وجنوبها وبمناطقها السياحية النادرة.. وبترولها.. وكنوزها في يد العدو الصهيوني.. وكانت قناة السويس المورد الرئيسي لمصر قد أغلقت.. وبدا الاقتصاد المصري كالمريض الذي يصارع الموت في كل لحظة ... وتوقفت حركة التنمية في مصر، واستمتع العالم الذي هادن إسرائيل، وهو يرى المصريين يئنون من قسوة ذلك الوضع الذي وصف بأنه لا سلم.. ولا حرب!!.

ولما جاءت الساعة الثانية من يوم ٦ أكتوبر.. تفجرت كل تجمعات السنوات الست الماضية.. وقلبت العسكرية المصرية ببراعتها كل الموازين في الشرق الأوسط.. وتحدت القوات



المسلحة نظرية الأمن الإسرائيلي، ومهدت الأرض الصلبة للقيادة السياسية لاستكمال المسيرة..

كان الانتصار عظيمًا ومبهرًا.. وخرج السادات للعالم أجمع ليعلن في خطابه الشهير انتصار القوات المسلحة المصرية على إسرائيل في معركة الكرامة.. وقد بدا في أوج نشوته، بعدما سجل اسمه بأحرف من نور في تاريخ مصر الحديث.. قائلًا:

(وإذا كنا نقول ذلك اعتزازًا وبعض الاعتزاز إيمان، فإن الواجب يقتضينا أن نسجل من هنا وباسم هذا الشعب وباسم هذه الأمة ثقتنا المطلقة في قواتنا المسلحة.. ثقتنا في قياداتها التي خططت.. وثقتنا في شبابها وجنودها الذين نفذوا بالنار والدم، ثقتنا في إيمان هذه القوات المسلحة.. في قدرتها على استيعاب هذا السلاح.. أقول باختصار أن هذا الوطن يستطيع أن يطمئن ويأمن بعد خوف.. أنه قد أصبح له درع وسيف).

كان السادات عظيمًا.. في كلماته، كما كان عظيمًا في تخطيطه وتنفيذه لمعركة التحرير، فقد استرد كرامة المصريين، ومعها كرامة الأمة العربية بأثرها، ومهد له هذا الانتصار- الذي أزعج القوة العظمى الأولى في هذا العالم الكبير، وكشف خيبتها ورعونتها في دعم حليفتها الأولى.. إسرائيل- الطريق ليخوض معركة أخرى، كانت أشرس وأعتى من المعركة العسكرية.. وهي معركة السلام.

■ ■ ■

(١٨)

بـدأت مصـر بعد خوض معركة الحرب والسـلام فـي الانفتاح على العالم، وتبنى حكم السـادات بعـد حرب أكتوبر تغيير التوجه المالـي للدولـة من الاشـتراكية إلى الرأسـمالية والاقتصـاد الحر؛ لذلـك نمت رءوس الأموال الصغيرة التي وضعت بذورها في ظل النظـام الاشـتراكي وتحولت لرءوس أموال كبيـرة، وظهرت طبقة ثرية في مصر كانت قد اختفت فيما بعد الثورة عام ١٩٥٢.

وكان عمـاد آرام.. أحـد نجـوم عصر الانفتـاح.. فقد ورث عن أبيه ثروة طائلة، علاوة على أنه أدار أموال أمه بتول وأشـقائه، وفي خلال سـنوات بسيطة ضاعف هذه الثروة عشرات المرات، واتسع نشـاطه.. وبزغت سـطوته التي اكتسـبها من قوة المـال الذي يقف فوق تلاله ليرى نفسـه ملكًا متوجًا على عرش المال والاقتصاد في مصر، فبدأ يفكر في اسـتثمار أمواله بشكل جديد، فلم تعد التجارة بمفهومهـا القديم ترضي غروره.. بل وجـد أنه يجب أن يكون من رجـال الصناعة.. والصناعة هي الباب الملكي للتجارة والتصدير، فأقـدم علـى جلب التوكيـلات العالمية، وحصل علـى حق تصنيع



منتجاتها في مصر، فكان أكبر مُصنع للثلاجات في مصر.. وأدخل إلى مصر تلك الثلاجة الجديدة.. التي عُرفت بتصميمها الأوروبي الجديد والغريب على المصريين.. وفي لمح البصر.. أنشأ مصنعًا لتجميع أجهزة التليفزيون الملون.. وآخر للأجهزة الكهربائية المتنوعة.. ولم يكتفِ طموحه عند هذا الحد، فحصل على توكيلات الملابس العالمية الشهيرة، وجهز مصنعًا أعده بأحدث الماكينات لهذا الغرض.. كما افتتح عدة متاجر في القاهرة والإسكندرية.. عرفت بعلامة تجارية تحمل اسمه.. فأطلق عليها مسمى (آرام فاشون).. وحظيت تلك المتاجر بإقبال غير مسبوق من الشباب المصري، الذي بدأ ينظر إلى النموذج الأمريكي على أنه الأمثل في هذه الحياة.

كانت نكبة عصر الانفتاح، وخاصة بعد توقيع معاهدة السلام مع إسرائيل، وسقوط مصر في المعسكر الأمريكي، هي ترويج النموذج الأمريكي في كل شيء، فأقدم الشباب على رفض الفن المصري، وأول ما رفضوه هو الطرب الأصيل، فامتلأت أسواق الكاسيت بملايين الأشرطة للمطربين الأجانب وخاصة الأمريكيين منهم، وبدا للشباب أن تاريخ محمد عبد الوهاب وأم كلثوم وعبد الحليم حافظ وغيرهم من عظماء المطربين المصريين هو مجرد هراء.. وفن رتيب.. لا يليق بزمن الحداثة والانفتاح.. حتى الأفلام الأمريكية أخذت حظًّا من الترويج في مصر، لم تأخذه في هوليود نفسها، وحققت تلك الأفلام إيرادات

مذهلة.. في نفس الوقت الذي تأثر فيه الفن المصري بهذه الهجمة الشرسة، وكي يقاومها.. خرج من عباءته بشكل عقيم.. فانتشرت أفلام المقاولات الهابطة.. وخرج نجوم لساحة الغناء يأخذون من النموذج الأمريكي قدوة في جذب الشباب.

أما الموضة الغربية والأمريكية، فقد طلت على المجتمع المصري بقباحتها.. في الملبس والمظهر وقصات الشعر وغيرها، حتى بات الشباب يسيرون في الشوارع والطرقات ويدلفون إلى الجامعات.. بوجوه متأمركة وأجساد متحررة.. والأخطر تلك العقول المغتربة التي باتت ترفض كل ما يتعلق بحضارة المصريين وتقاليدهم.. لحساب الحضارة الأمريكية والأوروبية المستحدثة.. وكان الشباب أقرب إلى أشباح تعيش بين الناس، كل ما يربطها بالوطن.. مجرد شهادة ميلاد.

■ ■ ■

ووصل السادات لقمة شعوره بالمجد والافتخار بعد انتصار أكتوبر واسترداد سيناء عن طريق معاهدة السلام التي وقعها مع إسرائيل.. وقبلها كان قد قرر أن يداعب الغرب والولايات المتحدة، وكان شرطًا لبناء علاقة جديدة مع الغرب أن يقطع هذا المد الاشتراكي في مصر والمرتبط بالمعسكر الشرقي، لذلك قرر السادات أن يتحالف مع الإخوان لوأد الفكر الشيوعي في مصر، فترك لهم الحبل على الغارب كي يعودوا من جديد تحت

الشمس.. ويتحركوا في مجال الدعوة فقط ليذيبوا هذا الفكر الشيوعي تمامًا، فقد كان السادات على ما يبدو مقتنعًا بمبدأ كارل ماركس بأن الدين هو أفيون الشعوب، وأن أي تيار آخر لا يستطيع أن يقاوم المد الديني مطلقًا ... لذلك كان من قراراته الأولى فور أن جلس فوق مقعد الحكم، هو إخراج الإخوان من السجون، ووقتها ذهب عمر التلمساني مرشد الإخوان إلى قصر عابدين ليسجل شكره وتقديره للسادات .

لكن العلاقة بين السادات والإخوان كانت شائكة، فأنور السادات هو عضو بمجلس قيادة ثورة ١٩٥٢ ، وكان نائبًا لجمال عبد الناصر في أواخر حكمه، وهذا النظام عاداه الإخوان كثيرًا.. حتى أخفاهم من على وجه الأرض طوال حكم عبد الناصر تقريبًا، ورغم أن السادات أفرج عنهم وأخرجهم من السجون بعد توليه مقاليد الحكم، فإن تراثًا من الصراع بين النِّدَّيْن لم يذبه الزمان .

وفي إحدى ليالي شهر رمضان من عام ١٩٧٩ ، دعا منصور حسن وزير الثقافة عمر التلمساني في مقر الوزارة ... وحاول الوزير أن يقنع التلمساني بحضور اللقاء الفكري للرئيس السادات بالإسماعيلية يوم ٢٨ رمضان، ووافق التلمساني بعد إلحاح مستمر على حضور اللقاء .

وعندما وصل إلى الإسماعيلية بين أحضان حدائقها البديعة التي تورف بظلالها، ودخل قاعة الاجتماع جلس في آخر الصفوف، لكن مسئول البروتوكول الرئاسي جاءه بعد دقائق وأصر على أن

يجلس التلمساني في الصف الأول، فتوقع عمر التلمساني أن ذلك تكريمًا من السادات لشخصه، وتفاءل بهذه البداية لتفاهم جديد مع رأس الدولة وزعيمها. وكان التلمساني يجلس على كرسي في مواجهة المنصة مباشرة ، حتى بدا للحاضرين أنه لقاء الغريمين.

وبدأ السادات كلمته، التي صبت الغضب على جماعة الإخوان، وكأنها سيل منهمر يترامى من حول التلمساني شمالاً وجنوبًا ويسارًا ويمينًا، وكانت التهم التي وجهها السادات للإخوان ولعمر التلمساني لا حصر لها، وانتقلت بنيرانها المشتعلة إلى ما بين التخريب والعمالة وإثارة الطلبة في الجامعات، والقيام بالدور الخفي في حرب الفتنة الطائفية.

ورأى عمر التلمساني أن السادات قد أطال السباب وضاق صدره، ونفد صبره، فقاطعه قائلًا:

- إن هذا كلام يحتاج إلى ردود.

فنظر إليه السادات نظرة شرسة، ودون أن يعطي لرغبته أي اهتمام ورد بعنف قائلًا:

- لما أخلص كلامي رد كما تشاء.

واستمر السادات في شن حملته التي كان يرى في نفسه أسبابًا لها، وكان في نهاية كل حادثة أو موقف يسرده هجومًا على التلمساني، ينظر إليه قائلًا ..مش كده يا عمر؟



ورأى التلمساني أن في خطاب السادات له باسمه مجردًا من أي ألقاب.. استنكارًا لحرمة السن، وأن العيار قد انفلت، والخيال قد انفتح. وكان السادات طوال مدة حديثه يشد الأنفاس الغاضبة المتتالية من غليونه، وما أن انتهى من حديثه، حتى وقف التلمساني أمام الكرسي الذي كان يجلس عليه في الصف الأول، ولم يكن أمامه مكبر للصوت ولم يكن في ذهنه رد معد مسبقًا، فجاءه منظمو الحفل بمكبر للصوت، يتحدث من خلاله، وكان توقعهم أن يعتذر التلمساني، وأن يسمع العالم اعتذاره وأسفه للسادات على ما أورده من تهم تجاهه وتجاه الجماعة .

وفند التلمساني كل التهم التي وجهها السادات له وللجماعة وختم حديثه قائلًا:

- لو أن غيرك وجه إليَّ مثل هذه التهم لشكوته إليك، أما وأنت يا محمد يا أنور يا سادات صاحبها، فإني أشكوك إلى أحكم الحاكمين، وأعدل العادلين، لقد آذيتني يا رجل وقد أُلزَم الفراش أسابيع من وقع ما سمعت منك.

وفوجئ السادات بما لم ينتظره، وارتجف الغليون بين شفتيه، وهمهمت القاعة بالهمس واللمز، ورد السادات بهدوء مدروس:

- إنني لم أقصد الإساءة إلى الأستاذ عمر ولا إلى الإخوان المسلمين... اسحب شكواك بقى.

فأجابه التلمساني بتحدٍّ يحمل بين طياته أطراف العتاب:

- إنهـا رُفِعـت إلـى من لا أسـتطيع اسـترداد مـا وضعته بين يديه...

وانتهى الاجتماع وأرسـل السـادات للتلمسـاني وزير الأوقاف ومنصور حسـن وزير الثقافة والإعلام، ليبلغاه أن الرئيس لم يقصد الإساءة إليه، وأنه سيحدد موعدًا لمقابلته شخصيًّا.

كان هـذا التوتر طبيعيًّا بين السـادات وجماعـة الإخوان بعد أن أدرك السـادات خطـورة تحالفـه مع الإخـوان المسـلمين في عام ١٩٧١، بعـد صدامه مع بقايـا رجال النظام الناصـري الذين أطلق عليهم مراكز القوى. وقد تصور السادات أن التحالف مع الإخوان الذيـن أخرجهم من السـجون الناصرية يمكن أن يكـون خير دعم له فـي مواجهة التيارات الناصريـة والقومية واليسـارية الكارهة له والمتشـككة فيه، ومن ثم فتـح الطريق المضـاد للناصرية بمبادئها المعروفـة... وهـو ما كان بالطبع شـرطًا من شـروط فتح علاقات قوية مع الغرب وأمريكا. وخرج الإخوان من السـجون، وسـلمهم السـادات مفاتيح الجامعات المصرية، وخصص لطلابهم في هذه الجامعـات مـن يغـض الطرف عـن اعتـداء الأسـر الإخوانية على الأنشطة الطلابية الأخرى التي لا تروق لهم، ويخرج عن تصورهـم للشـريعة الإسـلامية التي أصبحت شـعارًا لدولة العلـم والإيمان، وحاميـة للرئيـس المؤمن الذي لم يمنعه إيمانه من السـكوت على اعتـداءات حلفائـه الجدد من أنصـار الإخوان، وقد صـاروا بمثابة

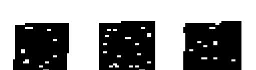


أنياب الديمقراطية، التي أفصح عنها السادات حين أكد أنه يجب أن تكون للديمقراطية أنياب تحميها .

وأدرك السادات في السنوات الأخيرة من السبعينيات أن حلفاءه لم يكتفوا بما قدم لهم، وأنهم يريدون كل شيء في الدولة. وكانت النتيجة تلك الحرب الباردة بينه وبين حلفائه، ولم يجد السادات مفرًّا أمامه سوى التراجع عن هذا التحالف، والصدام مع الذين تكشف له خطرهم.

فعاد السادات إلى أفكار الدولة المدنية الديمقراطية الحديثة، وعندها تباعدت المسافات بينه وبين الجماعة وتفرقت الطرق، وتبين للسادات أن السير في ركب أمريكا التي جمعت أوراق اللعبة كلها في يديها يتطلب إظهار موقف واضح من الجماعة، فبدأ في محاصرتها وعاد لنفس الوتيرة التي كانت عليها العلاقة بين نظام عبد الناصر والإخوان.. وندم السادات كثيرًا على فعلته، ونقض تحالفه مع الإخوان المسلمين وحلفائهم، وبدأ يشدد على الفصل بين الدين والسياسة، وبعد أن قام بتوقيع اتفاقية كامب ديفيد.. جمع كل معارضيه وألقى بهم في زنازين المعتقلات..

وانتهت حقبة السبعينيات باغتيال السادات الذي دفع حياته ثمنًا للخلط بين الدين والسياسة.



(١٩)

كانت بتول قد أصبحت جَدة.. وأراد ابنها أن يكرم أمه في حياتها، فقام بتسمية ابنته.. بتول.. أيضًا.. وحملت العائلة ذات المد الأرمني.. هذه المفارقة الغريبة بين الجدة التي مازالت تتمسك بعذوبتها الساحرة.. ورقتها الفائضة.. وبين حفيدتها التي حفلت بأهم صفات جيلها.. ومن بينها التنكر لكل ما هو قديم.. والتمسك فقط بهذا النموذج الأمريكي الذي أذاب كل القيم والمبادئ الوطنية.

وكثيرًا ما كانت الجدة تدخل في نقاش مع حفيدتها.. فتتكشف مع عباراتها الأولى.. أنه عقيم.. ولا جدوى من الاستمرار.. وكم كانت تتمنى الجدة.. لو أن حفيدتها عاشت في حضرة يوسف باشا كمال.. وتأثرت به.. لاختلف فكرها.. وتغيرت وجهتها في الحياة. لكن الحياة لم تتعفف في أن تزيح الستار عن حقيقتها، فالصراع بين الأجيال قائم رغم أنف الأجيال نفسها ... وكل حقبة من الزمان يعيش روادها على الهوى الذي يرونه متممًا لحياتهم، وباعثًا للأمل فيها.

لذلـك.. قررت الجدة أن تقص على حفيدتها.. تاريخ يوسـف باشـا كمال والحركة الشـعبية المصرية في ذلك الوقت.. وأصرت الجدة علـى ذلك.. ربما تتمكن من تغيير أفـكار حفيدتها.. فيصل إليها تاريخ آبائها وأجدادها كما سطروه بأعمالهم ومواقفهم، وليس كما سـطره الاحتلال الغاشم.. وتروج له اليوم القوى الاستعمارية الأولى في العالم.. والمستترة تحت اسم ... أمريكا!!.

وكان عمـاد آرام.. قـد رسـم خطـة صعـوده الجديد مـع تولي حسـني مبارك حكم مصر عقب اغتيال السادات، فقد أنصت كثيرًا لخطابات مبارك في بداية توليه الأمور، وأدرك أن الرجل سـيجعل من التنمية الشـاملة منهاجًا لخطة عمله، وأنه سيترك الباب مفتوحًا علـى مصراعيـه أمام حركـة الاسـتثمار، وتوغـل رجـال الأعمال ليحتلوا المشهد الرئيسي في هذه الفترة. وقرر عماد آرام أن يقترب من دائرة صنع القرار.. فقد اقتنع أن المصالح الاقتصادية لابد وأن تحميهـا قوة أخـرى كبيرة.. تجتـاح كل العقبات، وتذيـب الجليد بحرارتهـا في مناطـق التجمد.. حيـن يتحطم سـلطان رأس المال أمام بطش السلطة..

لم يكن أمامه من بد سـوى أن يأخذ مركزه في ملعب السياسـة، ولم يكتفِ بمركز حارس المرمى أو لاعب خط الوسـط.. بل قرر أن يحتـل مركز رأس الحربـة، وراوده طموحه الطاغـي أن يحتكر هـذا الموقـع ليصبح بمفـرده رأس الحربـة الوحيد مـن بين رجال الأعمال في نظام مبارك ..

فـي نفس الوقـت كان عم دوماديوس يحتفظ بورشـته الصغيرة في نجع حمادي، ومازال يمارس حرفته التي انقلبت إلى هواية في صناعـة منابر المسـاجد، على عكس المفتـرض أن تتحول الهواية مع الاحتراف إلى مهنة.. لكن عشق دوماديوس لعمله الذي اشتهر به، جعله لا يفكر في شيء دونه.. ودوماديوس هو خال عماد آرام، وكان هـذا يزعج كثيرًا رجل الأعمال الطامح في كل شـيء.. وبلا حدود تكبح جمـاح طموحه.. فكيف يكون بهـذه المكانة، وخاله نجار بسـيط فـي نجع حمادي؟.. عـلاوة على أن عملـه يثير حوله دائمًا دائرة من الأسـئلة المحيرة.. وقد يكون هناك من بين الأقباط المتشددين من يرى أن دوماديوس يرتكب جرمًا بفعلته، فقد صنع مؤخرًا منبرًا جديدًا لمسـجد عبد الرحيم القنـاوي بقنا، وبدأ صيته ينتشر في كل مكان، لدرجة أنه كان يدخل المساجد أكثر من دخوله للكنائس، وعماد آرام كان يخطط لأن يبدأ مسـتقبله السياسـي من نجع حمادي، وكثيرًا ما كانت تصل له الأنباء عن ضيق صدر بعض الأقباط بعلاقته بمسـاجد المسـلمين، وبالطبع فـإن رجل الأعمال الصاعـد لأول مرة على سـلم السياسـة، كان يرمـي كل آماله على أقبـاط النجـع، إذا سـنحت له الفرصة ليرشـح نفسـه نائبًا بمجلس الشعب عن دائرة النجع .

وقتهـا بالتحديـد.. كان دوماديـوس يتذكر وداعـه لابنه الوحيد منذ أربعة شـهور تقريبًـا، وهو مقدم على قضاء الخدمة العسـكرية كجنـدي بالجيش المصري.. ومن يومها غاب ابنه الذي تم تجنيده



في وحدة عسكرية على حدود مصر الجنوبية، وكان يقلقه كثيرًا أنه لم يتمكن من رؤية فلذة كبده الذي لم تصرح له قيادته بإجازة سريعة في هذا الوقت .

وكان عم دوماديوس شخصية محبوبة بين المسلمين، وكان مسيحيًّا صميمًا، يعشق المسيح كعشق كل من تبعه على وجه الأرض مجتمعين، ولذلك كان أمرًا تلقائيًّا أن تتجسد في روحه مفاهيم التسامح والمحبة.. وعندما زار جمال عبد الناصر قنا.. كان عم دوماديوس من بين الذين حرصوا على مصافحته، وكانت تعجبه علاقته بالأنبا كيرلوس السادس.. وأخذ منه جمال عبد الناصر القلة الفخار التي أمد دوماديوس يده بها إليه، حين شعر أن عبد الناصر يحتاج ليتجرع الماء بعد جولة شاقة في المدينة .

ولم تكن الاتصالات سهلة في ذلك الوقت، فتمكن القلق من دوماديوس على ابنه الوحيد، وانقلب منامه إلى كوابيس متلاحقة، وشعر بإعياء شديد ربما يعود إلى حالته النفسية المتأثرة بغياب نجله، ولكنه كان مضطرًّا لينتهي من صناعة منبر، ليقوم بوضعه في زاوية أحد المساجد في نجع حمادي، وهناك.. وعندما انتهى من وضع المنبر، بكى بشدة بين إخوته من المسلمين الذين ترددوا على المسجد لتأدية صلاتهم، فاقتربوا منه ليواسوه، ويدعون في المسجد حتى يعود ابنه، وأخذ دوماديوس يبكي معهم، ويناجي الله من قلبه، وهو يهمس قائلًا:

- يا رب أنا في بيتك، إنت يا رب.. بيوتك المساجد، والكنائس، رجع لي ولدي.

وكانت المفاجأة المذهلة.. هي عودة ولده.. بعد يومين في إجازة طويلة.

وكان دوماديوس يستمتع بصناعة الأرابيسك، رغم أن سنوات عمره قد زحفت به إلى الشيخوخة، وأي منبر مهما كبر حجمه لا يأخذ في صناعته أكثر من عشرين يومًا، بعدها يدخل دوماديوس إلى المسجد، ليضع المنبر في زاوية القبلة بنفسه، وكثيرًا ما تعاطف مع تلك المساجد التي بُنيت بالجهود الذاتية، فيتنازل عن أجره أو يخفضه، ولو كان يملك المال لتبرع له.. فرغم كون الفقر قد أذل الناس، فإنها لا تستطيع أن تستغني عن ربها الذي تعبده.

هكذا كان يردد عم دوماديوس.. دائمًا!!.

وذهب عماد آرام إلى النجع في جولة يتكشف بها قبول الناس للخطوة التي ينوي الإقدام عليها.. فقد انضم إلى الحزب الوطني الذي أصر مبارك على ترؤسه، وقرر أن يرشح نفسه نائبًا عن دائرة نجع حمادي.. مسقط رأس أمه.. وبينما كان يمر بين أرجاء النجع، ويتفقد قبائله، ويتحرى رأي سادته.. ويتجول بين مصانعه ومتاجره.. استمع عماد إلى ما يعكر صفوه.. فقد وجد سيرة خاله دوماديوس تلاحقه في كل مكان.. ورغم أن حكاية أمه بتول وأبيه آرام كانت هي التي أشعلت فتيل الطائفية في النجع، إلا أن الناس



نسوا هذا الماضي، والأغلب أنه لم يعد موجودًا بينهم بعد أن رحل عن الحياة كل من عاصر هذه الحكاية.. لكن الأمر يختلف بالنسبة لدوماديوس، الموجود بشحمه ولحمه بين الأهالي. وعلى الفور عزم عماد أن يذهب إلى خاله.. وأن يتحدث إليه.. وأن يعرف حكايته التي يتندر بها كل أهالي النجع..

وترقب عماد الأجواء بحذر، فقد كانت سماء النجع ملبدة بغيوم الفتنة، ويبدو أن نجع حمادي أصبح أشبه بمقياس يستشف منه مقدمات الفتنة أو تبعاتها، ومنذ عامين تقريبًا وقبل تولي حسني مبارك حكم مصر، كانت البلاد كلها تضج بالفتنة الطائفية التي جرت أحداثها في الزاوية الحمراء ... وهو أحد الأحياء الشعبية بشمال القاهرة، وترجع تسمية حي الزاوية الحمراء إلى وجود زاوية للصلاة عند محطة شادر السمك مطلية باللون الأحمر وكانت العلامة المميزة لهذا المكان، لذلك أطلق على هذه المنطقة الزاوية الحمراء، وزادت شهرة هذا الحي في هذا الوقت من عام ١٩٨١، لما شهده من أحداث الفتنة الجسيمة بين المسلمين والأقباط. وقبل إغتيال السادات بشهور، أعلن مسلمون، أعلن مسلمون عن حقهم في قطعة أرض اعتزم بعض الأقباط إقامة كنيسة عليها، وتحول الأمر من شجار عادي بين الجيران إلى معركة مسلحة، وأصيب سكان الزاوية الحمراء بالتوتر والهلع وبعد خمسة أيام، اشتبك المسلمون والمسيحيون في الزاوية مرة أخرى. وكان هناك مجموعة من الصبية تنتقل من حي إلى آخر فيمرون من منشية

الصدر إلى الوايلي، إلى الزاوية الحمراء بهتافات.. لم تكن سوى شتائم ودعوات إلى حرق وهدم بيوت ومنازل الأقباط، فيضعون علامات مميزة لبيوت المسيحيين ومتاجرهم، واشتعلت الفتنة، وتركتهم الشرطة لمدة ثلاثة أيام، قام فيها مثيرو الفتنة والخارجون عن القانون من اللصوص ومحترفي الإجرام بأعمال السلب والنهب دون أي تدخل يفض هذه المعارك، وراح ضحية هذه الأحداث عشرات القتلى، وكانت بداية فشل الحكومة في وأد هذه الفتنة، وخرج الرئيس السادات الذي قال وقتئذ في خطابه بأن سبب حوادث الزاوية الحمراء كان ماء غسيل وسخ ألقاه مسيحي قبطي على عائلة مسلمة، فاندلع الشجار بين العائلتين نتيجة لذلك.

وكان ما أعلنه السادات ليس هو الحقيقة بعينها، لكنه أراد أن يخفف من وطأة الأحداث، فازاد طينها بلة!!.

ولا شك أن هذه الأحداث في شمال مصر ألقت بظلالها على الجنوب المشتعل أصلًا بنيران الفتنة.. فقد تحفز الأهالي في النجع لاحتمال وصول تبعات أحداث الزاوية الحمراء إلى نجعهم.. وكانت الأجواء مشحونة بالتوتر والتربص، واستمر الحال هكذا في الشهور الطويلة التي أعقبت هذه الحادثة حتى لقي السادات حتفه، وانشغلت البلاد مؤقتًا بهذا البركان الذي هز استقرارها باغتيال رئيس الدولة وزعيمها.

واقترب عماد آرام من ورشة خاله عم دوماديوس.. وكان يستقل سيارة سوداء فخمة من طراز العام، يقودها سائق يجلس

بجواره السكرتير الخاص لعماد آرام، بينما يجلس رجل الأعمال المهم.. على المقعد الخلفي.. وكانت تلك السيارة هي واحدة ضمن موكب ضم عشر سيارات أخرى، يحتلها طاقم حراسته الخاص وبعض المساعدين له، ولفيف من شخصيَّات إعلامية شهيرة جاءت لمؤازرة عماد آرام في جولته التفقدية الأولى .

وتوقفت سيارة عماد أمام باب الورشة، ووقتها كان عم دوماديوس يجلس فوق كرسي خشبي أمام ورشته، وهو يتابع إنهاء بعض عماله لمنبر جديد يصنعه لواحد من مساجد النجع الجديدة، وكان دوماديوس يوجه من حين لآخر عماله، فيعطيهم التعليمات، وأحيانًا رغم اعتلال صحته الواضح كان يهم بنفسه ليثبت قطعة من الأرابيسك في موضعها، في حين احتكر لنفسه دائمًا آخر مهمة في صناعة المنبر.. وهي تثبيت الهلال أعلى المنبر.

وأسرع السكرتير الخاص بفتح باب السيارة الخلفي، ليطأ عماد آرام بقدميه الأرض أمام بوابة الورشة.. بينما نظر إليه العم دوماديوس نظرة متفحصة دون أن يترك كرسيه، فدلف نحوه عماد الذي أشار لحراسه حتى لا يتبعوه، وقال بغبطة:

- إيه يا خال.. مش عارفني؟!

دقق عم دوماديوس في وجه محدثه.. قائلًا:

- ما تآخذنيش يا ابني.. العتب ع النظر.. والمرض خد مني اللي أخده .

- أنا عماد يا خال.. عماد آرام.. عماد ابن أختك بتول..

وقعت الصدمة في قلب عم دوماديوس وهو لا يصدق نفسه، وهَمَّ واقفًا بصعوبة تسبب فيها مرضه العضال رغم أنه لم يتجاوز الخمسين بعد.. واغتبط الرجل المريض، وقد ظن أن ابن شقيقته الذي لم يره في حياته، قد جاء خصيصًا للنجع لرؤية خاله والتعرف عليه.. فصدح بفرحته، ولاحقته مشاعر ممتزجة ما بين الحزن والفرحة، وفتح ذراعيه ليتقبل بينهما ابن شقيقته ويضمه إلى صدره.. بينما أمر له بكرسي ليجلس بجواره، وطلب من أحد عماله أن يعد الشاي الصعيدي لضيفه.

ومرت ساعة بأكملها.. كان عم دوماديوس يستفسر فيها عن أحوال شقيقته وأسرتها، ويحكي لعماد ما ألم به من مرض.. فقد أصيب بداء القلب وفشل في وظيفة كبده، وضعف في بصره بسبب السكر.. وهو ما جعل الناظرين إليه يتوقعون أنهم يقفون أمام شيخ هرم، فقد اجتمع الفقر والمرض على الرجل.. وأبقاه اجتماعهما البغيض شبه عاجز عن ممارسة حياته.

لكن عماد دخل في الموضوع مباشرة.. ودون أن يعير حديث خاله أي اهتمام، فلم يسأله عن أحواله.. وأحوال أسرته.. ورغم ثرائه الفاحش.. فلم يعرض عليه مساعدته في العلاج والتداوي.. ونطق حديث الهاوية والسقوط وهو يحتسي رشفة من كوب الشاي قائلًا:

- أنا نويت يا خال أرشح نفسي نائبًا في مجلس الشعب عن نجع حمادي .

نظر إليه دوماديوس نظرة ثاقبة، وأسارير الدهشة تتملكه.. ورد بتوجس:

- وإنت تعرف إيه عن النجع يا ابني؟!!

لم يعجب عماد برد خاله، فترك كوب الشاي، وأجاب بشيء من الضيق:

- يا خال أنا دلوقتي رجل أعمال كبير.. كبير قوي.. وبقيت من رجالة النظام، وعايز أخدم النجع ... (مستطردًا) إنت ما بتسمعش عني ولا إيه؟!!.

أجابه دوماديوس باستهتار:

- لا يا ابني ما بأسمعش ... اعذرني أصل سمعي ضعيف .
- أنا داخل الانتخابات.. خلاص ده قرار نهائي.. والحزب الوطني هيرشحني في النجع ...
- بالعافية يعني ...
- لا يا خال.. مش بالعافية.. لكن بالفلوس ... الفلوس تعمل كل حاجة .
- أهي فلوسك دي هي اللي هتسقطك.. ومش هتطول صوت حد في النجع.. حتى صوت نفسك مش هتاخده .

انفجر عماد آرام ضاحكًا بصلف، وكأنه استمع إلى نكتة أضحكته، حتى تحشرج صوته من فرط الضحك.. ثم قال بحسم وغرور:

- مش للدرجة دي يا خال.. أنا هأنجح يعني هأنجح ... (مستطردًا) المهم تعمل إنت اللي عليك.

- (متسائلًا بدهشة) أنا ما فيش في إيديا حاجة أعملها .

- (بصلف) لا.. فيه كتير ... شغلانتك دي مش مناسبة.. وكمان حكاية المنابر دي هتسبب لي حرجًا كبيرًا.. الأقباط هنا مستنكرين عمايلك دي .

- (غاضبًا) إنت بتقول إيه.. المطران نفسه ما كلمنيش في الحكاية دي.. ده بيعتبرني رمزًا للمحبة.. (مستمرًّا) أنا كل الناس هنا بتحبني.. المسلمون والمسيحيون..

- (مراوغًا) يا خال أنا عارف أنا بأقول إيه ... أنا بأقول تاخد قرشين يعيشوك ملك طول حياتك.. وتقفل الورشة دي .

كان عماد قد أمسك بكوب الشاي مرة أخرى، بينما وصل الغضب ذروته، وامتلأت عروق عم دوماديوس بالدماء الفائرة.. فانتفض واقفًا بغضب شديد، وكاد أن يترنح ويسقط، فلحقه أحد عماله.. ومد دوماديوس يده ونزع كوب الشاي من عماد، وصرخ في وجهه قائلًا:

- إنت جاي تقل أدبك يا واد إنت يا قليل الرباية ... اركب عربيتك وغور من قدامي، (بغضب) اللي اختشوا ماتوا

بصحيح ... أربعين سنة ما نعرفش عنكوا حاجة ولا تعرفوا عننا حاجة.. ولما نشوف طلعتك البهية.. جاي تقل أدبك.. يا قليل الأدب.

أقدم الحارس الخاص لعماد على التدخل.. فأخذ بعض الخطوات في اتجاه دوماديوس، لكن عماد أشار له بالتوقف.. ونظر شزرًا لخاله، نظرة توعد وتهديد.. قائلًا بغضب:

- إنت أكيد خرفت واتجننت!!

انتفض عم دوماديوس غاضبا، واستجمع آخر ما تبقى له من رمق الصحة.. وهبت في جسده فجأة قوة شاب في العشرين.. استمدها من روحه الغاضبة، ودفع عماد دفعة قوية كاد أن يسقط على أثرها، وهو يصرخ في وجهه ويدفعه ليطرده من ورشته.. وأسقط في يد عماد آرام الذي غرزت أقدامه في وحل الحرج أمام رجاله ومصاحبيه.. فاندفع نحو سيارته هاربًا من الموقف.. بينما خطا دوماديوس خطوات قليلة نحو السيارة التي يستقلها عماد، وهو يصفعها بكف يده صفعات غاضبة متتالية صارخًا:

- بره.. بره.. مش عايز أشوف وشك العكر ده تاني هنا.. بره.. بره ..

ألقى عماد بنظرة توعد على خاله.. وبدا الشرر يتطاير من عينه.. حتى كادت شظاياه أن تحرق العم دوماديوس.. وكانت تلك النظرات تحمل تهديدًا واضحًا.. وانتقامًا شرسًا .

(٢٠)

ذهب عماد غاضبًا.. إلى الدرجة التي أصابته بصمت الصدمة، فهو لم يتوقع مثل هذا الرد من الفعل من خاله دوماديوس.. وقرر على الفور أن يتوجه إلى مكتب المحافظ، ولم يكن بحاجة لموعد سابق، فالمحافظ يعرف من هو عماد آرام وعلاقته بالسلطة الجديدة، وبمجرد أن وصل رجلِ الأعمال الشهير إلى مكتب المحافظ، وأخطره مدير مكتبه بأن عماد آرام على باب مكتبه يطلب مقابلته، حتى خرج المحافظ بنفسه ليستقبله في مكتب السكرتارية واصطحبه مرحبًا إلى مكتبه.. وكان عماد غاضبًا إلى الدرجة التي أزعجت المحافظ.. لكن عماد قص عليه مقتطفات مختصرة عن لقائه بخاله دوماديوس، وطلب منه فورًا أن يصدر قراره بغلق ورشة دوماديوس ... لكن المحافظ تريث قليلًا وهو يرد على عماد آرام قائلًا:

- عم دوماديوس؟!! ما أقدرش يا عماد بيه ..

انزعج عماد كثيرًا من جواب المحافظ، فنطق غاضبًا:

- إنـت عارف الظروف اللي بتمر بيها البلد دلوقتي يا سـيادة المحافـظ.. ودوماديـوس وضعـه حرج.. وعلاقتـي بيه.. ممكن تضرنـي في الانتخابات.. المسـلمين المتشـددين هيقفـوا قدامـي.. والأقباط اللـي مش عاجبهـم تصرفات دوماديوس.. هأخسر أصواتهم .
- (بحنكة وهدوء) يا عماد بيه علشان أنا عارف ظروف البلد كويـس، بأقولك ما أقـدرش ... البابا شـنودة رجع وتولى الباباوية بعد ما السادات عزله.. والقيادة السياسية حريصة جـدًّا على منع أي شـوائب ممكن تعكر صفـو العلاقة مع الكنيسـة.. وعم دوماديوس ده تاريخ.. تاريخ كبير قوي.. ده غيـر إنه محبوب جـدًّا من أهالي النجـع.. وأي تصرف ضـده ممكن يقلب الدنيـا.. خصوصًا وإن الكنيسـة بتحبه وبتحترمـه.. ومـش شـايفه فـي حكايـة المنابـر دي أي اعتراض..

صمت المحافظ قليلًا.. وهو يتدبر الأمر.. ثم قال:

- يا عمـاد بيه.. أنا لو عملت الخطوة اللـي بتفكر فيها دي.. ممكن أدفع تمنها الكرسي اللي أنا قاعد عليه ده .

انتفـض عماد آرام واقفًا بغضب شـديد.. بينما أصاب المحافظ الذهـول من هذا الغضب العارم الذي سـيطر علـى رجل الأعمال البارز.. وصرخ عماد بغضبته قائلًا:

- أنا هأتصرف يا سيادة المحافظ.. (بصلف المغرور وبنبرة تهديد) وبخصوص الكرسي اللي إنت قاعد عليه ده.. هتحتاج تنجده.. لإنه هيقع بيك قريبًا!!.

كان الغرور والصلف هو الماركة المسجلة لتصرفات عماد آرام، فقد توحش في أفكاره ومبادئه، ولم يعد يرى الدنيا إلا من خلال نافذة المال والنفوذ.. ولا يتصور أن رغبة لديه يمكن أن يوقفها أي شيء.. حتى لو كان الطوفان نفسه.. وقرر بالفعل أن ينتقم من دوماديوس.. انتقامًا يحرق قلبه وعقله.. ويذل جسده المريض الذابل.. ولم تمر الليلة حتى سلط عماد من أضرم النيران في ورشة دوماديوس.. وفي لحظات أحالها الوهج إلى رماد، فاحترق ما بها من منابر.. أتحف وأبدع دوماديوس صنعها.. لكن نيران هذا الحدث كانت بمثابة الشمس التي سطعت فجأة في ظلام الليل، فخرج أهالي النجع يحملون المشاعل وهم يتضافرون بمسلميهم وأقباطهم غضبًا من هذه الحادثة التي ظهر لهم جليًّا أنها بفعل فاعل... وتوجهوا ناحية الورشة وشاركوا في إخماد النيران المضرمة.. واتصل محافظ الإقليم بعماد على هاتف سيارته.. متشككًا في أن يكون وراء الحادثة.. لكن عماد قطع الاتصال فورًا.. في موقف مخذٍ.. أحرج المحافظ كثيرًا ... ثم هاتف رجل الأعمال المغرور مؤسسة الرئاسة.. مهددًا بأنه إذا لم يُقل المحافظ مع سطوع شمس الصباح، فسوف يسحب دعمه للحزب.. وسينهي كل استثماراته في مصر..



وبالفعل.. كان أول ما وقعت عليه عين المحافظ حين ذهب إلى مكتبه بديوان عام المحافظة في الصباح الباكر.. هو قرار إقالته!!.

كانت نهاية الرجل مؤلمة.. لكنها رسخت أول أوتاد الفساد في هذا العصر ...

■ ■ ■

رغم أن الاحتقان الطائفي، ودخول من يحسن الفقه ومن لا يحسنه في هذا الملف الدقيق، كان هو القاسم الأعظم في هذه الفترة الدقيقة في تاريخ البلاد، إلا أن الأهالي قرروا أن يتلاحموا وأن ينسوا تبعات ما ألم بالنجع من فتنة.. ودقت أجراس المطرانية.. وارتفعت مكبرات الصوت في المساجد بصوت الآذان في غير أوقات الصلاة.. وتجمع الأهالي بالمطرانية وبمساجد النجع التي زينت بمنابر رائعة من صنع دوماديوس.. ولم تفرق الكنيسة أو المسجد.. بين دين هذا أو ذاك.. واستقر الرأي على جمع التبرعات لإعادة تشغيل ورشة عم دوماديوس.. وما هي إلا أيام قليلة.. حتى فتحت الورشة أبوابها.. بصورة أروع مما كانت عليه.. وعلق دوماديوس عليها لافتة كبيرة.. كتب عليها.. (لا لعماد آرام نائبًا عن النجع ... يسقط الظلم.. يسقط الفساد) .

وكان هذا الموقف العظيم.. يحمل كل معاني العلاقة الحميمة بين أقباط مصر ومسلميها، حتى لو مرت سحابة صيف بالعلاقة بينهما، ولم يتفهم أعداء الوطن أن أقباط مصر هم جزء من نسيجها

الوطني الذي كان يعيش في هذه البلاد قبل الفتح الإسلامي، وقد كان لآبائهم عهد وميثاق، لذلك بقي الرباط الوطني الذي يجمع بين المنتسبين إلى الوطن الواحد في ميثاق للتعايش المشترك بينهم، فالمواطنة هي الأساس، مهما اختلفت مشاربهم أو تباينت عقائدهم، ويترتب عليها واجبات وحقوق متبادلة، وتجعل أصل حرمة الدماء والأموال والأعراض أمرًا مشتركًا بين الجميع.

■ ■ ■

ورغم كل هذا الغضب الذي اجتاح أهالي النجع.. ورفضهم لهذا التصرف الذي أقدم عليه عماد آرام ... فقد أصر رجل الأعمال المغرور على ترشيح نفسه في الانتخابات البرلمانية، ومع أنه لم يلقَ سوى الاستنكار في كل جولاته الانتخابية، وكان الأهالي يلقونه بحبات الطماطم الفاسدة.. وأكياس الماء.. ورغم أن شيئًا واحدًا.. لم يترك الدليل على أي شعبية لهذا الطاغي ... فقد أعلنت نتيجة الانتخاب.. واكتسح فيها عماد آرام كل منافسيه وبنسبة تقترب من الإجماع!!.

غريب أمر هذه السلطة الفاسدة.. فهي لم تخجل أو تتوارى قليلًا.. وهي تعلن هذا الإجماع.. إنها لم ترَ هذا التبجح الذي رسخ على وجهها، وهي تقر بعدالة الانتخابات ونزاهتها.. وأنها أجريت وفقًا لمعايير الشفافية!!



ويا طول.. ما ظُلمت أيتها الشفافية الناصعة.. وقراصنة العصر يلقون بجرائمهم على ثوبك الأبيض النظيف.. ويلطخون نقاءك الأبدي.. بقذارة أفعالهم.. وحطام كرامتهم المتدنية.. وهم يدوسون بأقدامهم الملوثة بروث البهائم على الأخضر واليابس في هذا الوطن.. فيغدقون على الشعب من حقائب فسادهم.. ويوزعون الفقر والجهل والمرض كقطع الجاتوه والحلوى على المطحونين والمكدودين، ويخططون للفتنة بين أقباطه ومسلميه.. متوهمين بهذه الشفافية المفضوحة!!.

فقد فاح دنث الظلم.. وفاض الطغيان.. مع أول ملامح العهد الجديد.. وكتب الحاكم القابع على كرسيه في مكتب الرئاسة أول براهين كذبه.. وخداعه.. حين أخذ الصمت البهيم حيال فساد رجاله.. أهم مبادئ عصره.. وأول قرارات عهده.

لكن الغباء أعمى عيونه.. فتحجرت في مخدعها كالمقل البائدة.. في جثة بلا حراك.. تقود الشعب..

فلم تدرك أن للشفافية وجهين.. وجه العدالة.. ووجه الفضيحة.

■ ■ ■

كان حسني مبارك يحاول أن يرسم نفسه كزعيم سياسي، ومفجر لثورة التنمية في بداية حكمه.. لكن مهمته كانت صعبة للغاية.. فإن يضع أقدامه في نفس الموضع الذي وضع فيه جمال عبد الناصر.. وأنور السادات.. أقدامهم.. هو أمر أشبه بالمستحيل، فهو لا يحمل

من التاريخ.. سوى أنه كان قائدًا من قادة حرب أكتوبر.. ولم يكن هذا بعربون ثقة بينه وبين الشعب.. يجعله يزيح تاريخ زعيمين من العمالقة.. فالمصريون يدركون جيدًا أن عبد الناصر هو أول من أعد لمعركة استرداد الكرامة قبل وفاته.. وأن السادات بعبقرية تخطيطه العسكري وقيادته المحنكة.. هو الذي قاد الجيش ليحقق انتصاره على إسرائيل.. وهو الذي قاد المعركة السياسية والاقتصادية ليعد جيشه المفكك.. ويعيد تلاحمه وتماسكه، ويؤهله من الناحية النفسية لخوض حرب ضروس.. نتائجها مرهونة على الاحتمال أو التوفيق.

ومهما تحفظ المصريون على سياسات أزعجتهم.. في عهد ناصر أو السادات.. فإن رصيدهما في قلوب الملايين يزداد يومًا بعد يوم..

لذلك اختصر حسني مبارك.. حرب أكتوبر في بطولات القوات الجوية التي كان يقودها.. وتناسى بعمد الآثمين.. البطولات الأعظم التي قامت بها أفرع الجيش الأخرى، وبات احتفال أكتوبر من كل عام.. هو احتفال محتكر على قائد الضربة الجوية.

وربما حلم الزعامة.. هو الذي جعله يعتمد على أفكاره الشخصية.. دون أن يفكر أن يبدأ معركة التنمية مستعينًا بجنود من شعبه.. ففتح الأبواب على مصاريعها أمام الطغيان الأمريكي على مصر.. واهتم فقط بالبنية الأساسية.. كما وعد رجال أعماله.. حتى يدشنون مشاريعهم الكبرى التي قال للشعب عنها.. إنها ستجلب



لهم الخير والنماء.. لكنه نسي الشعب تحت عجلات قطار الفقر والجهل والمرض.. فلم يهتم بثقافة أو تعليم.. وبات نظامه يمعن في ترسيخ الجهل والأمية بين الناس.. فتضحضح الحال بهم.. وهاجرت عقول الوطن إلى الخارج ... وحُرِم الناس من أبسط حقوقهم.. مسكن بسيط.. وماء نظيف.. ورغيف آدمي.. ودواء آمن.. وترك النظام طواحين المرض والفقر.. تضرس حبات الأمل الباقي.. حتى أبادتها وحولتها إلى طحين تذروه رياح الفساد .

ولم يكن عماد آرام وحده.. هو النموذج الوحيد من أباطرة الفساد في عهد مبارك.. بل تحولت الدولة كلها.. إلى دولة رجال أعمال ... وترك مبارك لهم الحبل على الغارب ليقتحموا العمل السياسي أيضًا.. وهو يغض الطرف عن حمايتهم لمصالحم الخاصة من وراء الستار السياسي .

وكعادة كل الفراعنة.. حين يمسكون بعصا الحكم.. يتركون أبناءهم وزوجاتهم يعبثون بأقدار الناس.. ولا تعرف لهم هوية.. فهم ليسوا برؤساء.. ولا وزراء.. ولا بمسئولين.. وهم أيضًا ليسوا بمحكومين مثل بقية الناس.. وهم أيضًا ليسوا بملائكة.. حتى الشيطان يتبرأ من أفعالهم..

إنهم كيانات.. فوق البشر!!

وكان الناس يرون الخطأ ... ويعيشون الهوان ... ويقبلون مصير العبيد، ويغرقون في الوحل حتى الأعناق، ثم إذا طل

الحاكم عليهم بطلته، خرجوا خروج الرجل الواحد ليهتفون له بالروح والدم، وكان الحاكم ينهب مقدراتهم وأموالهم... ثم يصفقون له ويجددون له البيعة ويعيدون انتخابه... أو حتى على الأقل يرتضون بنتيجة الانتخاب المزيفة، وكان الحاكم يُوَلي أبناءه... ويرفع زوجته إلى سدة العرش بجواره... ويصنع لهم ألوهية جديدة تتضخم في الظلام... تتسرب إلى حياة الناس من تحت عقب باب الحرية المغلق دوما... ثم يفاجئون بأنهم أمام الحاكم الإله.. وورثته من الآلهة من بعده!!

لقد أفسد هذا النظام ذوق الناس.. وأفقدهم إخلاصهم لوطنهم.. وهم ضحايا بالطبيعة.. فحين تُختصر كل الآمال في مجرد البحث عن لقمة العيش.. فلا يُلام الناس على خضوعهم.

وما فعله حسني مبارك على مدى أكثر من ثلاثة عقود في حكم مصر، هو محاولة منه لتكريس فكرة الحاكم الإله... المنزه عن النقد.. والذي يمكن أن تنهار مقدرات شعبه إذا ترك معبده بقصر الرئاسة... لقد طغى الرجل وتجبر إلى الحد الذي لم يعد يسمع فيه إلا صوته وأصوات المسبحين بحمده، والمهللين لعظمته، ولم يعد يرى إلا ما تحب أن تراه عيناه، رغم أنه أصيب بالعمى منذ سنوات بعيدة، ولم يعد يرى إلا بعيون الفاسدين والمنافقين والغشاشين والأفاقين من بطانته التي أسرف في انتقائها بكل إجرام وتوحش وغباء!!

وكان الميثاق الذي يربط مبارك ببطانته يقوم على قاعدة «البقاء مقابل الولاء» فالبطانة موجودة في مكانها ... باقية في فسادها.. في مقابل الولاء للحاكم، فعلى الوزير أن يسرق وينهب ويشرد ... ويبيع أرض الوطن بأبخس الأثمان، ويُعين عشرات المستشارين من حاشيته وأقاربه برواتب خيالية تخطت حاجز المليارات من ميزانية الدولة، وأن يمنح الشركات ورجال الأعمال المرضي عنهم عشرات العقود بالأمر المباشر، وأن يعالج من «نزلة برد» في مستشفيات أوروبا وأمريكا بفواتير أسعار تخجل مما تحمله من أرقام مليونية.. وكل ذلك وغيره مما تحمله دساتير الفساد.. من إبداعات في الإفساد في مقابل الولاء لنظام مبارك!!

والناس لم يقتنعوا أن حسني مبارك لم يكن يعلم بكل هذ الفساد!! وهو المشهور عنه أنه كان يعرف «دبة النملة» وكل صغيرة أو كبيرة تجري على أرض مصر، وكان لديه أجهزته الأمنية التي تدين بالولاء له فقط. فتوسعت في كبح جماح الحريات، والتجسس على الناس.. واغتيال حرماتهم، وكان في مكتبه سكرتير صحفي ينقل له بدقة كل ما يُنشر في الصحافة على جميع طوائفها.. القومية.. والمعارضة.. والمستقلة، وكان يعمل معه أيضًا سكرتير للمعلومات، ووظيفته أن ينقل للرئيس كافة المعلومات بدون حدود.. حتى ولو كانت من النوع المحظور تداولها، فلا شيء محظور على الرئيس، هذا بالإضافة إلى جملة التقارير اليومية التي كانت تصل له من كل أجهزة الدولة.

إن حسني مبارك كان يعلم أي شيء ... وكل شيء في أي وقت، وربما يعود ذلك إلى طبيعته الشخصية التي لم تكن ترتضى إلا أن تملأ الفراغ من حولها .

وأي شيء كان يقتحمه الرئيس من أجل ترسيخ حكمه، فهو الذي فتح قنواته السرية مع من قتلوا السادات.. وكان لنظامه أنفاق خفية للعلاقة مع الإخوان والتيارات المتشددة، رغم أنه ذاق مرارة الإرهاب في عقد حكمه الأول.. فقد ترك لهم جزءًا من الكعكة.. إرضاءً لأمريكا.. وحتى يُقال إن في مصر حرية دينية.. لكنه لم ينسَ أن يضع هذه التيارات تحت المنظار.. فكانت علاقة نظامه معهم.. أشبه بعلاقة القط بالفأر!!.

***

غرقت السنوات الأخيرة من حكم مبارك.. في مستنقع الفتنة الطائفية.. هذا المستنقع الذي حرك مياهه الراكدة.. تلك التيارات الدينية.. التي أسرفت في تشددها.. ومن جانب آخر كانت أمريكا تنفخ في الكير.. فهي تريد أن تبقي مبارك في قفصها الحديدي الكبير، وكلما راجت فكرة الزعامة في رأسه.. كانت أمريكا تروِّضه ببراكين متتالية.. من بينها بركان الفتنة الطائفية.. وهي عادة ليست بجديدة على المستعمر!

فتخرج الأبواق الأمريكية وجماعات حقوق الإنسان في أمريكا.. لتندد وتستنكر ما يحدث في مصر.. دون أن تفكر في



أن تندد بقباحة أمريكا وهي تُسلم السكين بيدها ليقطع به رقاب الفلسطينيين في الأراضي المحتلة .

ولم تتراجع احتكاكات الفتنة، وتعددت مواقع الصدام واتسعت، وعكست نموًّا مضطردًا لنشاط الجماعات المتطرفة.. التي خرجت كلها من عباءة جماعة الإخوان، وفي ابتزاز واضح.. استحلت الجماعات التكفيرية والمتشددة أموال المسيحيين وممتلكاتهم، وقاموا بالسطو على محلات الذهب ومتاجر الأقباط.. وكان المسلمون الوسطيون من عامة الشعب.. يرون في تلك التصرفات إسلامًا مُبتدعًا.. يبعد كل البعد عن حقيقة إسلامهم الحنيف.

وفي ليلة عيد الميلاد عام ٢٠١٠، كان دوماديوس يستعد مع أسرته الصغيرة للذهاب إلى مطرانية النجع للصلاة والاحتفال بذكرى ميلاد السيد المسيح.. وبمجرد انتهاء قداس عيد الميلاد، انطلقت رصاصات الغدر على تجمعات من شباب الأقباط في ثلاثة مواضع مختلفة في أنحاء النجع..

وكانت سيارة مسرعة، يقودها بعض المجهولين قد أطلقت النيران على الضحايا من أسلحة آلية، وسقط سبعة أشخاص قتلى.. وكان من بينهم مساعد شرطة مسلم في الثامنة والعشرين من عمره، أما بقية الضحايا من الأقباط.. وقتها أصيب دوماديوس بحالة من الذعر.. حتى بدا لناظريه أن لوثة عقلية ألـمَّت به.. فهو يعرف تاريخ الفتنة في النجع عن ظهر قلب.. وعاش بعض أحداثها.. وحكى

لـه أبوه قبل وفاته حكايات الصـراع الطائفي.. وكيف أن رجلًا من الأثرياء كان يعيش بين فقراء النجع.. يدعى يوسـف باشـا كمال.. كان يتصـدى بوطنيتـه المعهـودة لمثل هذه الأحداث، فلم يسـمح طوال حياتـه بأن تندلع نيران الفتنة.. وكان بسـعيه المخلص يئِدُها في مهدها.. وصحيح أن دوماديوس رأى يوسـف باشا بعينه.. ولم ينسَ أنه أنفق على تعليمه بالمدرسة الفنية.. لكنه وقتها كان مراهقًا صغيرًا.. ولم يكن بإمكانه أن يتعرف على مواقف يوسـف باشا إلا من حكايات أبيه.. بولس سمعان.. عن هذا الرجل .

وجمـع دومـاديـوس كل هذه الذكريات في تلـك اللحظة.. فهو يعرف بدايتها.. ويعرف نهايتها.. ويعرف أيضًا مَن وراءها.. وحين رأى الجثث تتسـاقط أمـام عينه.. وأن ثورة غضب على وشـك أن تندلـع فـي قلوب هؤلاء الأقبـاط المتجمعين أمـام المطرانية، وقد تحولت فرحة عيدهم إلى مأتم.. اندفع بشيخوخته المعجلة بسبب مرضه العضال.. وهو يتوغل بين جموع المسيحيين الهائجين هياج البحر الغاضب.. بينما تدلف سـيارات الإسـعاف من هنا وهناك.. وهي تطلـق صفارتها.. فيصرخ دوماديوس فـي الجموع.. صرخة الخائف على وطنه:

- دي.. فتنة.. دي فتنة ... اثبتوا.. مكانكوا ... صدقوني دي فتنـة ... (يصـرخ بصعوبة بالغـة) مش إخواتنا المسـلمين اللـي نعرفهم هما اللي عملوا كده.. دول مش مسـلمين.. دون مش مسلمين ...



وحاول دوماديوس أن يُهدئ من جموع المسحيين الغاضبين.. فلا يسعفه صوته الضعيف وقد غطت عليه صفارات سيارات الإسعاف.. وصرخات الأطفال والنساء، بعدما أصابهم الذعر وهم يرون دماء الضحايا تسيل على أسفلت الطريق.. فيصرخ بصوت شاب يخرج من صلب جسده الضعيف:

- أنا عمكم دوماديوس ... أنا دخلت جوامع المسلمين ... أنا اللي عملتلهم المنابر.. وأنا اللي وقفت قدام القبلة ودعيت ربنا واستجاب ... (باكيًا بحرقة.. تقطع صراخه بين الحين والآخر) صدقوني ربنا استجاب ... ورجع لي ابني الوحيد.. المسلمين ما يعملوش كده .... دول مش مسلمين.. دول مش مسلمين ..

وسقط دوماديوس على الأرض مغشيًّا عليه ... فلم يتحمل قلبه الضعيف كل هذا الصرخ والعويل.. بينما سيقان وأقدام الغاضبين تعدو حوله من كل ناحية.. والرجل يستفيق من حين لآخر.. فيرى المشهد مروعًا.. فيرسم علامة الصليب على صدره، ويعود غائبًا في غيبوبته المؤقتة.. حتى حملته إحدى سيارات الإسعاف إلى المستشفى المركزي.

وفي اليوم التالي.. وأثناء تشييع جنازات القتلى ظُهر يوم عيد الميلاد، اندلعت موجات جديدة من الاعتداءات الطائفية، فطالت منازل وممتلكات الأقباط في نجع حمادي، وقرية بهجورة المجاورة، وعزبة تركس التابعة للقرية، وقامت مجموعات تحمل

أسلحة بيضاء وعصيًّا وأوعية من البنزين بكسر أبواب محلات الأقباط التجارية وسرقتها وإشعال النيران فيها، بل وحاولوا فتح أبواب المنازل عنوة والتهجم على سكانها.

وكل هذا باسم الإسلام!!. والإسلام الحقيقي.. بعيد عن كل هذا القبح .

■ ■ ■

كانت الجدة بتول.. تصارع الأيام القليلة المتبقية في حياتها.. وقد توسطت عقدها العاشر من العمر.. وبدت طاعنة في السن.. هزيلة.. وضعيفة.. أشبه بركام هش.. وكان زوجها آرام قد غادر الحياة من سنوات طويلة.. فرفضت أن تترك بيتها.. وأصرت على البقاء بين ذكرياتها.. مع آرام.. فهي لم تنسه يومًا.. ولم تنسَ بدايات قصة العشق الذي جمع بينهما.. وفصولها التي كانت لب حديث الناس كلها.. في كل وقت وحين .

وعاشت بتول في الإسكندرية والألم يعتصرها.. فقد كان رفض أبيها للارتباط بآرام لا يقبل أي نقاش.. حتى بعد أن غَيَّر مِلته.. فبولس سمعان في البداية والنهاية رجل صعيدي، وأخلاق أهل الصعيد تمنع أن تفرض الابنة رجلًا على أبيها ليكون زوجًا لها.. ولما وجدت بتول أن إصرار أبيها لا يمكن زحزحته.. هربت إلى حبيبها في الإسكندرية.. وتزوجته.. ووقفت بجواره في مشوار عمره حتى صار تاجرًا كبيرًا.. له وزن وكلمة بين السادة وعِلية



القوم.. فعاشت معه ساعات الفرح وساعات الحزن.. ومرت بجواره في أيام الفشل.. وأيام النجاح.. وربما لكل هذه الأسباب رفضت أن تترك بيتها.. وأصرت أن تعيش على أطلال الماضي.. وأن تكون نهايتها على فراشها.. وفي غرفة نومها.

وشيء واحد هو الذي كان يعكر صفو حياتها.. فقد حرَّم أبوها عليها دخول النجع، ومن بعده أشقاؤها.. إلاَّ دوماديوس.. فقد كانت بتول بالنسبة له هي الأم الحنون.. فهي أول من تلقفته بعد ميلاده.. وهي التي شعر على صدرها بأول لمسات الأمومة.. وكان دوماديوس يتمنى لو التقى بتول.. لكن كل ما كان يعرفه عنها أنها تعيش في الإسكندرية، وأن زوجها آرام قد عَلا نجمه.. لكن الفقر والمرض جعلاه عاجزًا عن البحث عنها.. وقد أراد أن يختزن آخر ما تبقى له من صحة لتعاونه على مهنته التي يأكل منها الخبز والقوت.

وشعرت بتول بأنها تفارق حياتها.. وكانت تعلم ما فعله ابنها عماد بخاله دوماديوس.. ولذلك قاطعته من يومها.. ولم تسمح له بدخول بيتها.. في الوقت الذي أصبح فيه عماد آرام رجل الأعمال الأول المقرَّب إلى السلطة.. والصديق الصدوق لنجل حسني مبارك. وأرادت بتول أن تصحح من أخطائها السابقة.. فهي لم ترَ شقيقها دوماديوس منذ ما يقترب من ثمانين عامًا.. وقتها كان دوماديوس طفلًا رضيعًا.. ولذلك أوفدت له من يحضره بعد أن هاتفته.. ومن مطار الأقصر.. أقرب مطار إلى نجع حمادي..

اصطحب أحد المرافقين دوماديوس على الطائرة المتجهة إلى الإسكندرية.. بعدما طلبت بتول منه أن يأتي إليها ليقضي معها عيد الميلاد المجيد في يناير من العام ٢٠١١ .

ووصلت الطائرة إلى مطار برج العرب.. وكانت هناك سيارة في انتظار دوماديوس وابنه الوحيد الذي رافقه.. ورغم أن السيارة كانت تشق شوارع الإسكندرية بسرعة كبيرة، نحو منطقة كفر عبده.. المتاخمة لشاطئ رشدي بكورنيش الإسكندرية.. حيث توجد الفيلا الصغيرة التي تعيش فيها شقيقته بتول مع بعض من الخدم الذين خُصِّصوا لرعايتها.. فقد شعر دوماديوس بأن السيارة تسير ببطء شديد.. وهو يخشى ألا يمنحه القدر الفرصة للقاء شقيقته.. فكلاهما بعد أن وصل إلى أرذل عمره.. كان يتوقع كل لحظة أن تفيض روحه وتخرج إلى خالقها..

ووصل دوماديوس إلى فيلا كفر عبده.. وهو يتسند على ابنه العجوز أيضًا.. وخطا خطواته نحو الداخل بصعوبة.. حتى اقترب من تلك المساحة التي تقف عليها بتول أمام البوابة الداخلية.. تنتظر أخاها ... وتوقف دوماديوس لحظة.. ورفع عينيه تجاه شقيقته.. وقد استقبلت نظرته بذهول شديد.. ومرت لحظات من الصمت بينهما.. وكان وقع اللقاء عصيبًا عليهما.. وعلى غير العادة في مثل هذه المواقف، لم يقذف دوماديوس نفسه في أحضان بتول.. ولم تندفع هي نحوه.. فقد أخذ العمر ما أخذه منهما.. فتيبس جسدهما.. وجفت المشاعر كثيرًا في روحهما..

فحيـن يصل الإنسـان لهـذا العقد من عمـره.. فلن يفكر في شـيء أبدًا.. إلا لحظة النهاية.

واقترب دوماديوس قليلًا نحو شقيقته.. ودَمعة واحدة فقط هي التـي سـقطت فوق وجناته.. لكنها عكسـت بكاءً مـن عمق الزمان بينهمـا.. ورَشَـحت دمعة أخرى على وجه بتـول.. وقد مدت يدها لتصافح دوماديوس.. قائلة بصعوبة بالغة:

- أهلًا.. يا دوماديوس يا حبيبي ..

وشعر دوماديوس للحظة أنه أمام امرأة غريبة لا يعرفها.. ونفس الشعور كان يسـيطر على بتول.. فتكلم دوماديوس ناطقًا بكلمات ترتجف من هَول الموقف:

- ازيك.. يا بتول ... أشكر الرب إني شفتك قبل ما أموت.. إنت مش أختي وخلاص.. إنت كمان أمي ..

كانـت بتول أشـبه بدمية تتحرك بخيـوط الماريونـت.. وكانت تسمع بعض الكلمات من حديث دوماديوس.. وكلمات أخرى لم تصل إلى مسـامعها.. وتقريبًا لم تنصت إلى عبارة شـقيقها الأخيرة ... والتفتـت بصعوبـة وهـي تدعوه للدخـول متكئة علـى عكازها الخشـبي.. فـي حين قطع هـذا اللقاء.. مجـيء بتـول.. الحفيدة.. فهـي تكاد أن تطيـر من فـوق الأرض لتلحق بجدتهـا فتطبع قبلتها علـى خدها كعـادة كل يوم.. وكانـت الفتاة في أواخر العشـرينات

مـن عمرها.. تتقد بحيوية الشباب.. رائعة الجمال.. ولا يمكن أن توصف بكلمات بشرية عادية.. فهي ملاك يتحرك فوق الأرض.

وبتـول هـي ابنـة عمـاد آرام.. وكان حديـث جدتهـا الدائم لها عـن أمجـاد بلادهـا، قد جعلهـا تختلف معه فـي الكثير مـن الآراء السياسـية.. ولـم يكـن أبوهـا يمثـل بالنسـبة لهـا القـدوة والمثـل الأعلـى.. فهـي تـراه مجرد رأسـمالي يتطلـع لحماية ثروتـه بنفوذ السـلطة... وكيـف تجعل بتول الصغيرة من أبيهـا قدوتها.. وبتول الجـدة لم تترك فرصة إلا وقصت عليها فصولاً من حكاية يوسـف باشـا كمال.. إلى الدرجة التي أصبحت الفتاة معها لا ترى الرجال إلا من خلال شخصية الأمير.

وكان هـذا الجنـون الذي سيطر على بتـول الصغيرة.. بسـحر البرنـس يوسـف كمـال.. كفيـلاً لأن يجعلهـا تجمـع صـوره.. وتُكبرهـا.. وتضعهـا فـي براويـز فاخـرة... وتمـلأ بهـا جـدران حجرتها... وذهبت الفتاة إلى دار الكتب المصرية بكورنيش النيل بالقاهرة.. واطلعت على مكتبة الأمير يوسـف كمال، والتي تحوي مـا يزيد عن خمسـة آلاف مجلد في العلـوم التاريخية والجغرافية، وفيها من النسـخ الفريدة في نوعها، والوحيـدة في فنها، وما يتعذر اقتنـاؤه مهما دُفع فيه من مال.. وقـد آلت تلك المكتبة لدار الكتب بعد ثورة ١٩٥٢.

وتوقعـت بتـول أن يكـون للأمير يوسـف مؤلفـات ومجلدات خاصة، لذلك بدأت في جمع مؤلفاته لتحتفظ بنسـخة منها.. وكان

هذا الأمر شاق.. ويبعث على اليأس.. لكن الفتاة المثابرة.. بحثت عمن ينتمون لأسرة محمد علي في مصر.. وراسلت من هجرها إلى أوروبا أو أمريكا.. وكانت تريد أن تجمع مكتبة ليوسف كمال مثل التي وجدتها في دار الكتب.. فحصلت على نسخ من كتب رحلة السفينة نازيرور حول القارة الإفريقية، وسياحتي في بلاد الهند الإنجليزية وكشمير، والوثائق التاريخية والجغرافية والتجارية عن إفريقيا الشرقية، والذي ألفه المسيو جيان، ونقله إلى العربية الأمير يوسف كمال، وكذلك المجموعة الكمالية، وغيرها من الكتب القيمة والنادرة.

وكانت بتول قد أنهت دراستها في الجامعة.. وتخرجت في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، ولم تستجب لإلحاح أبيها للعمل معه في مجموعة شركاته ومصانعه.. بل قررت أن تخوض تجربة العمل الإنساني.. في المؤسسات الخيرية.. علاوة على عشقها لتاريخ الأمير يوسف كمال.. وكان هذا كافيًا لشغل وقتها.. لكن أباها عماد آرام كان يرى أن القراءة والاطلاع من الأسباب التي أفسدت عقل ابنته على حد اعتقاده.

لذلك كانت المفاجأة عظيمة.. أن تتعرف على عم دوماديوس.. إنه كنز هبط من السماء عليها... فلم تتركه لحظة يخلو لنفسه أو لشقيقته.. وجن جنونها حينما علمت أنه من أمهر صناع منابر المساجد.. وقررت وبدون سابق إنذار.. أن تجمع تاريخ وحكايات العم دوماديوس.. وأن توثقها في موسوعة مطبوعة.

وكانت هذه الليلة هي بداية أعياد رأس السنة الميلادية الجديدة.. وطلبت الجدة بتول أن تصطحب دوماديوس وحفيدتها.. إلى كنيسة القديسين بسيدي بشر.. لتأدية الصلاة والاحتفال بذكرى ميلاد السيد المسيح.. وقد اعتادت ذلك منذ سنوات بعيدة، عندما افتتح آرام متجرًا له في سيدي بشر.. ولما رفضت بتول الحفيدة.. متعللة بأن الإسكندرية تشهد اليوم زحامًا شديدًا بمناسبة رأس السنة.. وبالتأكيد فإن الكنيسة ستشهد اليوم اكتظاظًا بزوارها.. وقد يكون هذا من غير المناسب لاصطحاب الجدة الطاعنة بشدة في عمرها.. وكذلك شقيقها العجوز.

لكن الجدة بتول.. بكت بكاءً مؤثرًا.. وهي تؤكد لحفيدتها أنها تشعر أن هذه الصلاة في كنيسة القديسين ستكون آخر صلاة لها في الدنيا.. وأن إحساسًا بدنو أجلها قد تملكها، ولا يجب أن تحرمها من رغبتها الأخيرة في الحياة.

وبالطبع لم يكن أمام بتول سوى تنفيذ رغبة جدتها... فاصطحبتها مع شقيقها دوماديوس إلى الكنيسة في سيارتها الخاصة، بينما طلبت من مديرة البيت أن تلحقها مع بعض الخدم الذين يعتنون بالجدة في سيارة أخرى...

وحين أنهت الجدة بتول وشقيقها دوماديوس الصلاة.. وخرجا مع جموع المسيحيين المحتفلين بأعياد رأس السنة الميلادية.. ومع أول دقائق العام الجديد... وقع انفجار ضخم أمام الكنيسة ... وكان المشهد مروعًا.. لدرجة ألقت الذعر في قلوب الجميع..

والقنابل تتوالى في إحداث دوي مرعب.. وأشلاء الجثث والضحايا تتناثر في كل مكان، وسقطت الجدة بتول صريعة على باب الكنيسة وغرقت في دمائها وسط مئات من صرخات الضحايا والمصلين.. بينما تحاول بتول الحفيدة.. أن تنقذ جدتها، فتشير إلى شباب الكنيسة ليحملوا جدتها إلى عربة الإسعاف.. لكنها كانت قد فقدت حياتها تمامًا .

وقتها شعر دوماديوس بأن مشهد أحداث الفتنة في نجع حمادي يتكرر من جديد، وأن السيناريو يعيد نفسه.. وخاصة حين تجمهر مئات المسيحيين أمام المسجد المقابل للكنيسة بغية اقتحامه.. فصرخ دوماديوس بصوت لا يكاد يسمعه الناس من فرط حالة الذعر التي أحاطت بساحة الكنيسة.. وقال:

- ما لكوش دعوة بالجامع ... اللي عمل كده مش المسلمين ... المسلمين أنا عارفهم كويس ... صدقوني ... دول مش مسلمين.. أنا عارف المسلمين كويس .

التفتت بتول إلى دوماديوس وهي تنظر إليه بدهشة.. وظنت أن شقيق جدتها قد أصابه الجنون.. أو أن لوثة عقلية تنتابه على الأقل في تلك الساعة العصيبة.. فكيف يدافع رجل مسيحي عن المسلمين!! ... وفي هذه اللحظة بالذات؟! فمن هم أصحاب المصلحة في تلك الجريمة.. سوى هؤلاء المتشددين الذين لم يتوقفوا عن تكرار مثل هذه المذابح.. وارتكابها باسم الدين؟!!

تسمرت بتول لحظة.. وقد غاصت بعينيها في جنبات هذا المشهد.. لكن أمرًا لم يخرجها عن هول ما حدث.. سوى ذلك الصراخ المنطلق من ناحية العجوز دوماديوس وقد رطمه الناس في فرِّهم وكرِّهم، فسقط على الأرض.. وظل يزحف حتى توارى بجانب شجرة على رصيف الكنيسة.. في حين استمر في صراخه وعويله قائلًا:

- صدقوني.. دول مش مسلمين ... المسلمين أنا عارفهم.. أنا دخلت بيوتهم وجوامعهم ... دول مش مسلمين.. مش مسلمين .

■■■

كانت الأوضاع في البلاد قد آلت إلى ما لا يمكن السكوت عليه، وأصبح حسني مبارك وكأنه حاكم لدولة أخرى غير مصر.. فقد صم أذنيه عن صوت المطحونين والفقراء، وترك الحبل على الغارب لبطانته لتعبث في مقدرات الناس.. وتفرض الضرائب.. وترفع الأسعار أو تتركها بلا رقابة، فيستغل الموقف هؤلاء التجار الجشعون، كما أدخل رجال أعماله من ذوي الثراء الفاحش في منظومة الدعم، فمنح مصانعهم دعمًا في الكهرباء ومستلزمات التشغيل بحجة تشجيع الاستثمار، وغض الطرف عن تهرب الكثير منهم من سداد الضرائب والرسوم، وشجع ابنه الطامح في الحكم على التعامل كرئيس دولة، فكان يعين الوزراء والمحافظين

ويقيلهم، وتفرض له البروتوكولات وضع رئيس الدولة، وأطلق له العنان ليدير الحزب الحاكم، فجمع أصدقاءه من رجال الأعمال في لجان الحزب، ومنح لهم الفرصة ليحتلوا مقاعد البرلمان بغير هوى الشعب ورضائه، فباتت الانتخابات الأخيرة.. كأروع مَثَل حي في التزوير والتلفيق وتجاهل إرادة الشعب. وسحب مبارك البساط من تحت أقدام العلماء والمفكرين والمثقفين، وأخلى دوائر الحكم ومناصب القيادة من أمثالهم من النبهاء، وصار كل من يحمل كارت الوساطة.. أو يصطف في طابور المحسوبية والرشوة.. هو صاحب الحق في كل شيء.

وجريمة مبارك الكبرى، أنه أفسد التعليم.. فأصبحت المدارس مجرد دور للتنزه وقضاء الوقت.. وفاضت روح هيبة المعلم.. وكان معظم من تخرج في مدارس الحكومة في عهد مبارك.. يحمل شهادة رسمية في الجهل.. مختومة بخاتم الشعار الجمهوري الرسمي، ولذلك عزف سوق العمل عن توفير الفرص للالتحاق بوظائفه، وتضخمت معدلات البطالة.. وصار من الطبيعي أن يتخرج الطالب من مدرسته أو جامعته، ليلحق بكرسي (القهوة)، فيرتاد المقاهي ليقضي بها وقت فراغه القاتل، وبدلًا من أن يرفع هذا العبء عن كاهل أسرته التي ذاقت الأمَرَّيْن في مشوار التربية والتعليم، صار أي خريج حِملًا ثقيلًا على أسرته، إلا من نال رحمة ربه!!

ولـم يتوقف المشـهد عنـد هذا الحد، بـل كان اشـتعال أزمات الفتنـة الطائفيـة بيـن قطبـي الأمة من أكثـر الأزمات التـي واجهت عصـر مبارك، وكان تكـرار حوادث الاعتداء علـى الأقباط يعكس عجـز نظام مبـارك، ويعطي المبـرر والحجة لأوروبـا وأمريكا كي تتدخـل في شـئون مصر، خاصـة وأن الأقباط لـم يلقـوا حظهم من الاهتمام في عصر مبارك، بعد أن حجبت عنهم المناصب الهامة.. وتم التعامل معهم على أنهم من مواطني الدرجة الثانية .

لذلـك لم يكن مـن الغريب أن تتصاعد حركـة الاحتجاجات.. وأن تخرج لأول مرة حركات جماهيرية تعترض على نظام مبارك.. وتطلق شعار (كفاية) اعتراضًا على حكم استمر نحو ثلاثين عامًا .

وكان عمـاد آرام قـد وصـل إلى قمـة طغيانه في اسـتغلال علاقته بالسلطة، وكان من المشجعين لفكرة توريث الحكم، وعرض مساندة الفكـرة بالأمـوال المطلوبة، وعلـى الجانب الآخر سـمح له الحرس الجديد في السـلطة أن يتحصـل على أراضي الدولة بـلا مقابل ليقيم عليها مشـروعاته، وبدت التسـهيلات الممنوحة له.. كما لو كان يدير عزبة من أملاكه، وفاحت رائحته القذرة.. فلاحقته صحف المعارضة بكشـف فسـاده، وصار بين يوم وليلة مكروهًا من فئات الشعب.. في نفـس الوقت الذي دفع بـه النظام في الانتخابـات البرلمانية الأخيرة، فأصبح نائبًا للشعب للمرة الخامسة.. بالتزوير والتلفيق .

■■■

رَسَخ مشهد اغتيال الجدة بتول في ذهن دوماديوس، وحفيدتها.. فدخلا في حالة من الحزن والاكتئاب استمرت أيامًا طويلة، وانشغلت الحفيدة بتول بموقف العم دوماديوس ودفاعه عن المسلمين بهذه الطريقة المستميتة، لذلك أصرت على مفاتحته في الأمر، وانتهزت بتول وقتًا شعرت فيه بأن أحوال الرجل العجوز قد استتبت، وكان يجلس بمفرده في بهو الفيلا بكفر عبده.. وهو يفكر في العودة إلى نجع حمادي.. واقتربت بتول بهدوء حذر من دوماديوس، وطلبت أن تتحدث معه.. فابتسم دوماديوس.. مؤكدًا أنه يرى فيها شباب شقيقته والذي لم يمنحه القدر الفرصة ليراه بعينه ويعيش تفاصيله، فسألته بشيء من اللطف:

- أنا عايزه أتكلم معاك في موضوع.. لكن مش عارفه هيضايقك والا لأ؟!.

رفع دوماديوس رأسه بسكينته المعتادة وهو يقول:

- اتكلمي يا بنتي.. أنا مش ممكن أتضايق منك أبدًا.. ده إنت من ريحة الغالية .

- أنا مستغربة من موقفك يا عم دوماديوس ... إنت عارف كويس إن المسلمين ورا تفجير الكنيسة.. ومع ذلك كنت بتدافع عنهم!!.

ابتسم دوماديوس، وتدبر الأمر قليلًا ثم قال:

- هـي دي الحقيقـة يا بتول يـا بنتـي.. اللـي لازم تعرفيه إنت وجيلـك كله ... اللي حصل في كنيسـة القديسـين.. وراه مجموعات إرهابية فعلاً.. لكـن بالتأكيد مش هما أخواتنا المسلمين اللي عيشنا معاهم العمر كله في سلام ومحبه .
- إزاي بـس.. والجماعـات اللـي بتعلـن عـن مسـئوليتها.. جماعات إسلامية .

استفاض دوماديـوس فـي سـرد تاريـخ الفتنـة بيـن المسـلمين والأقبـاط، وهـو يؤكد من عبـارة إلى أخـرى، بأن أعـداء الوطن هم من كانوا دائمًا وراء هذه الأحداث. وشـرح دوماديوس لبتول حقيقة الإسلام الذي يعرفه أو قرأ عنه.. أو سمع عن تاريخه حين كان يجلس أحيانًا في ندوات يوسـف باشـا كمال بالدائرة اليوسـفية وهو مراهق صغير، فأكد لها أنه عندما دخل الإسـلام مصر حرر المسـيحيين من الاضطهـاد الرومانـي وكان ذلك أحـد العوامل في قبـول المصريين للغـة العربيـة، فأصبحت اللغة السـائدة لدى الجميع ممـا صنع نوعًا مـن التصـور والوعـي والتفكيـر المشـترك. حتـى إن البابـا كيرلـس السـادس اشترى مطبعة ليواجه بها منشورات التبشير الذي رآه خطرًا علـى الأرثوذكسـية المصرية قبل أن يكون خطرًا على الإسـلام، كما وقف بطريرك الأقباط مثل مشايخ الإسلام وحاخام اليهود مع الثورة العرابية عام ١٨٨٢ في صراعها مع الخديوي توفيق.

واسـتمر دوماديوس في سـرد الحقائـق بثقافته التـي كان يتمتع بهـا رغـم أنه لم يلـقَ حظًا وفيرًا مـن التعليم، وحكى للفتاة الشـابة



قصة بناء الكاتدرائية الجديدة للأقباط، ففي يوم ٢٤ يوليو ١٩٦٥ قام قداسة البابا كيرلس السادس بوضع حجر أساس الكاتدرائية بحضور رئيس الجمهورية جمال عبد الناصر الذي كانت تربطه بالبابا علاقة مودة متميزة، وفي ذلك اليوم أمر جمال عبد الناصر بصرف مائة ألف جنيه مساهمة من الدولة في البناء، كما حضر عبد الناصر افتتاح الكاتدرائية مع البابا كيرلس السادس بعد ثلاث سنوات من وضع حجر الأساس.

وتعجبت الفتاة من هذا التاريخ الذي تسمعه لأول مرة.. وكان حالها كحال جيلها بالكامل الذي لا يعرف الحقائق كاملة، فأصبح فريسة لأعداء الوطن، وهم يستغلون فورته وحماسته لبث الفتن الحمقاء.. والتفتت إلى دوماديوس قائلة:

- طيب لما هي الحكاية كده.. إيه اللي بيحصل دلوقتي يا عم دوماديوس؟
- دي حكاية قديمة يا بتول يا بنتي ... وإحنا بنعيش نتايجها النهارده ...

التفتت الفتاة منتبهة بجوارحها، وقد تركت أذنيها لدوماديوس في إصغاء تام، بينما استمر قائلًا:

- من زمان وأعداء مصر.. بيفكروا إزاي يقضوا على وحدة الشعب المصري.. كانوا بينزعجوا لما تخرج مظاهرة ويلاقوا المسلمين والأقباط.. إيد واحدة.. وإرادة

واحدة.. علشــان كــده أي احتلال حكم مصر.. كان بيزرع دايمًا الفتنة بين المســلمين والأقباط.. علشان يقدر يقضي على الحركة الوطنية والمقاومة الشعبية .

- يعني الموضوع ده قديم يا عم دوماديوس؟

- قديــم قوي يــا بنتي.. ومئات مــن حوادث الفتنــة المفتعلة حصلــت قبــل مــا جدودنــا يتولــدوا ويشــوفوا الدنيــا ... لكــن الموضوع دخــل في إطار تاني.. لما الســادات تولى الحكــم.. وكان عايــز يرضــي الأمريكان لأنه كان شــايف إن أوراق اللعبــة السياســية كلهــا عنــد أمريــكا.. قام عمل تعديــلات دســتورية، وجعــل مدة الحكــم فترتيــن.. وقام بتحويل النظام الاقتصادي للدولة من اشتراكية روسية إلى رأسمالية أمريكية.. وقام بعمل الانفتاح.. وعلشان يرضي أمريكا أكتر، أفرج عن الجماعات الإســلامية من السجون الناصرية.. علشــان يتقــال إن في مصر حريــة دينية.. ودي كانت أكبر أخطاء حكمه .

- أيوه أنا قريت الموضوع ده، ووجهة النظر اللي قريتها كانت بتقول إن الســادات عمل كده علشان تقوم الجماعات دي بمحاربــة الفكر الناصــري، والتأثير علــى أي ذكرى جيدة لعبد الناصر في وجدان الناس وبالتالي يكتســب السادات شرعيته في الحكم..



- ده مجرد رأي.. لكن الأهم إن الجماعات دي كانت متطرفة، وما بتعبرش عن حقيقة الإسلام، وكان لها أغراض سياسية (مستطردًا) دي كفرت فئات كثيرة من المجتمع ... ومن يومها وطاحونة الفتنة دايرة..
- طيب وأيام زمان.. كان إيه اللي بيحصل في النجع؟
- زمان كانت مصر تحت الاحتلال.. علشان كده الفتنة كان معروف أسبابها، وقلوب الناس كلها كانت مليانة بالوطنية وبحب مصر.. علشان كده كانوا بيسمعوا صوت العقل.. والله يرحمه يوسف باشا كمال.. كان صوت العقل في النجع.. علشان كده.. ما فيش خلاف بين مسلم ومسيحي يبات الليل من غير ما يكون الباشا حله، وبعدالة ما فيش زيها ... ده غير بقه الحالة الاقتصادية وتأثيرها ...
- إزاي يعني.. يا عم دوماديوس؟
- أيام الملكية وأيام محمد نجيب وعبد الناصر، المسلمين والمسيحيين كانوا بيعيشوا في محبة وسلام.. لما ساءت الحالة الاقتصادية.. الناس بصت لبعضها، وكل واحد عايز يشوف إيه اللي في إيد التاني.. يقوم المسلمين يشتكوا من سوء معاملة الحكومة لهم وإنها بتنحاز للأقباط علشان ترضي أمريكا، وبعدين يشتكي الأقباط من عدم اهتمام الحكومة بيهم وبدور العبادة والكنايس،

وفـي وسـط ده كلـه الجماعـات المتطرفـة كانـت بتلعب دورهـا القذر.. وكل ما الأمور تهـدا.. يقوموا بعملية دنيئة زي حكاية كنيسـة القديسين.. علشـان نرجع لنقطة البداية تاني.. (متدبرًا ومؤكدًا) لكن صدقيني يا بنتي المسـلمين الحقيقييـن معتدليـن.. أنا دخلـت مسـاجدهم واتعاملت معاهـم.. وكلـت معاهـم في طبـق واحد.. وهما نفسـهم ما كانـوش راضيين علـى تصرفات الجماعـات المتطرفة وكانوا بيتبرءوا من أفعالهم.

شـعرت بتـول بأنها فهمت الكثير من الحقائـق التي كانت غائبة عـن جيلها، وأنها وغيرها من الشـباب القبطي قد وقعوا في شـباك مروجي الفتنة الطائفية في مصر، وفهمت من دومايوس القبطي.. حقيقـة الإسـلام.. وسـماحته، وكان بالطبـع لحديثـه صـدى فـي نفسـها، فهو مسـيحي قبطي.. معتز بدينه إلى أبعـد الحدود، ولكن هذا الصفاء النفسـي الذي يتصف به، جعله ينظر للأمور بشـيء من المنطقية والعدالة.. وتمنت بتول التي انفطر قلبها حزنًا على جدتها أن يـرى النـاس الحقيقة بنفـس العين التـي يراها بهـا دومايوس، لذلـك قـررت أن تجعـل هـذا الأمـر رسـالتها.. فهـي فـي البداية والنهاية.. مصرية.. تعشـق تراب هذا الوطن.. وتلك السجية نادرة في هذا العصر.

■ ■ ■

(٢١)

كانت حالة من الاحتقان قد أصابت الشعب المصري بكافة طوائفه وبخاصة الشباب نتيجة لتفشي الظلم والفساد الواضح الذي كان ينتهجه نظام مبارك على مر سنوات حكمه، فهناك على الأقل ثلاثة أجيال متعاقبة عانت من نظام مبارك، وفقدت الأمل في حياة أفضل ومستقبل مشرق، وكانت فئة الشباب من أكثر الفئات التي تأثرت بالفساد، فمن الصعب أن تفكر في المستقبل، والواقع أسوأ من الماضي، فطبيعة عجلة الزمن أن تدور للأمام، ولكن ليس من الطبيعي أن تدور إلى الوراء، وهو أمر- لا شك- يبعث على الإحباط، وحين يشعر الإنسان بأن الإحباط يصل إلى الحلقوم، فإنه يشعر بغرغرة الموت قهرًا، ووقتها يفعل الإنسان أي شيء وكل شيء حتى يبقى على قيد الحياة، حتى لو كلفه ذلك أن يفقد حياته بالفعل.

وكان هذا الاحتقان قد أخذ طريقه إلى الغليان، وظهرت بوادر ثورة في الأفق حين تم القبض على المواطن المصري خالد سعيد والذي لم يحظَ بموقف عادل وقانوني في التعامل معه بتهم نسبت



إليـه، وقامت قوات الشـرطة بالقبـض عليه بحجة قانـون الطورئ الذي ضيّـق الخناق على المصريين طوال العقـود الثلاثة الماضية مـن حكم مبارك، ولقي المتهم حتفه بصورة مشـبوهة وجنائية قبل أن تظهر الحقيقة..

وقـد حظيت قضية خالد سـعيد بعد القبض عليـه بمعرفة قوات الشـرطة، باهتمـام جمعيـات حقـوق الإنسـان، ووسـائل الإعلام المحليـة والعالميـة، بـل تدخلـت بعـض دول العالـم مـن خلال حكوماتهـا بتصريحات وتعليقات تعكس حالة الغضب مما حدث فـي التعامل مع خالد سـعيد وأدى إلى نهايته المأسـاوية، وقد أدى هذا الزخم الإعلامي والسياسي إلى قيام بعض النشطاء السياسيين من الشباب بتدشين صفحة على موقع التواصل الاجتماعي الشهير الفيسـبوك.. باسـم (كلنا خالد سـعيد)، واهتمـت الصفحة بفضح وزارة الداخلية وانتهاكاتها بسـبب تطبيق حالة الطوارئ، بالإضافة إلى ما كانت تقوم به وزارة الداخلية من ممارسات فاضحة واضحة وصريحة ضد الشـعب المصري وضد المواطنين، وعلى أثر إنشاء هـذه الصفحة على موقـع الفيسـبوك، تعاقب اشـتراك الآلاف من الشـباب في الصفحـة ذاتهـا، وبدأت حملـة كثيفة مـن التدوينات والتعليقات التي شـكلت ضغطًا على نظام مبارك ووزارة الداخلية التي تفرغت لحماية هذا النظام.

وقرر الشـباب أن يقود شـعب مصـر هذه المرة فـي الثورة على نظـام مبـارك، واختـار يـوم ٢٥ يناير من عـام ٢٠١١.. وهـو اليوم

الذي تحتفل فيه الشرطة بعيدها، فوجه نداءً إلى الشعب المصري عبر المواقع الاجتماعية على الإنترنت لإعلان احتفال الشرطة بعيدها هو يوم غضب للشعب، فلبى آلاف المحتجين الدعوة وخرجت المظاهرات السلمية في مختلف أرجاء مصر. وقد كانت المظاهرات ضد الفقر، والجهل، والبطالة والغلاء وطالب المتظاهرون برحيل الحكومة.

وفي منتصف الليل، لجأت قوات الأمن المركزي لفض اعتصام آلاف المصريين بالقوة في ميدان التحرير بوسط القاهرة، بينما كانت المظاهرات مستمرة في مدن مصر كلها، وردد المتظاهرون لأول مرة هتافًا ضد مبارك.. صارخين بغضب عارم.. يسقط يسقط حسني مبارك.. و.. الشعب يريد إسقاط النظام.. كما قامت وزارة الاتصالات بقطع خدمة الهواتف المحمولة في ميدان التحرير.

وفي اليوم التالي قام المئات من قوات الأمن بإلقاء القنابل المسيلة للدموع بكثافة على نحو عشرة آلاف متظاهر بميدان التحرير، وفرقتهم وطاردتهم عبر الشوارع الفرعية، وازدادت الاحتجاجات بمحافظة السويس، ونجح المتظاهرون مرة أخرى في التجمع بقلب العاصمة، وقامت السلطات بمنع مواقع التواصل الاجتماعي وغلقها أمام الشباب.

وازدادت موجات الغضب.. وتوالت.. وبدأ النظام يفقد سيطرته على الموقف، فازداد عنف أجهزة الأمن وسقط العديد من القتلى، وفي حدود الساعة الواحدة ليلاً بدأت موجة من



الاعتقالات الواسعة لعشرات من النشطاء السياسيين بصورة غير مسبوقة. وفي صباح اليوم أصدرت وزارة الاتصالات أمرًا بوقف خدمة الإنترنت والاتصال عبر الهواتف المحمولة في جميع أنحاء الجمهورية المصرية.

وبدأت بعد أداء صلاة الجمعة يوم ٢٨ يناير تظاهرات شعبية واسعة في عدد من المدن المصرية، فخرج مئات الآلاف في أغلب المدن المصرية كالقاهرة والإسكندرية والسويس والمنصورة والإسماعيلية ودمياط والفيوم والمنيا ودمنهور ومحافظة الشرقية وبورسعيد ومحافظة شمال سيناء. وأطلق الأمن في القاهرة القنابل المسيلة للدموع واعترض البوليس المتظاهرين في محاولة لمنعهم من الوصول إلى ميدان التحرير، إلا أن جموع المتظاهرين واصلت تظاهرها وبدأ المتظاهرون في التوجه إلى القصر الرئاسي بقلوب غاضبة، وهم يَهتفون بسقوط حسني مبارك.

ومع عصر اليوم كان المتظاهرون قد نجحوا في السيطرة بالكامل على مدينتي الإسكندرية والسويس، وتم إحراق جميع مراكز الشرطة في أنحاء البلاد، واضطرت قوات الأمن في آخر الأمر إلى الانسحاب بعد الفشل في قمع المتظاهرين. وتم حرق المقر الرئيسي للحزب الوطني الواقع في مدينة القاهرة، وتدمير مقرات الحزب في عدة مدن أخرى، وقام المتظاهرون فضلاً عن ذلك بإتلاف جميع صور حسني مبارك في مسقط رأسه في شبين الكوم بمحافظة المنوفية.

في حدود الخامسة بعد الظهر بدأت قوات الجيش بالظهور في ميادين القاهرة، وفي الخامسة والنصف أعلنت رويترز أن الحاكم العسكري يُعلن عن حظر التجول في القاهرة والإسكندرية والسويس، وبالرغم من ذلك فقد تحدت جموع المتظاهرين حظر التجوال.

وفي نهاية اليوم نزلت مدرعات الجيش المصري إلى شوارع المدن لمساندة قوات الشرطة التي لم تعد قادرة على مواجهة الأمر، وبدأت حالات من النهب والسلب بعد اقتحام السجون وهروب المساجين وعتاة الإجرام، مما أثار ذعرًا بين جموع الشعب .

وتجلت حضارة المصريين في هذا المشهد العصيب، فقد قرر المصريون أن ينزلوا للشارع ليحموا بلادهم ومساكنهم وممتلكاتهم بأنفسهم، بل قرروا أن يحموا تاريخهم وحضارتهم، فوقفوا بالمرصاد لمحاولة سرقة المتحف المصري واستنجدوا بقوات الجيش لإنقاذ المتحف بعد أن تجاهلوا حظر التجول .

ولم يفلح مبارك في خطاباته المتتالية في تهدئة الجماهير الثائرة، حتى بعد أن أعلن عن سلسلة من الإجراءات السياسية والاقتصادية، وقرر تطبيق أحكام القضاء والتي كشفت تزوير الانتخابات البرلمانية الأخيرة، وعزل ابنه وبطانة الحكم كلها من المشهد السياسي، وعين نائبًا له ليقطع الشك باليقين في أنه لا ينوي توريث الحكم، لكن الشعب الهادر بثورته لم يقبل هذه

الإجـراءات، واعتبرهـا هدنـة يسـعى إليها مبـارك ليلتقط أنفاسـه، ويعيد تنظيم صفوفه.. ثم يعود لبطشه وطغيانه من جديد.

ولـم يكن أمام مبارك سـوى أن ينسـحب من المشـهد.. خاصة بعـد أن أعلن الجيش المصري انحيازه للشـعب، فخرج نائبه يعلن تخليه عن الحكم.

■■■

حاول عماد آرام أن يمنع ابنته بتول من السفر للقاهرة للمشاركة فـي تظاهـرات ميدان التحريـر، وكانت حجتـه أن النظام سيسـترد عافيتـه، وأن الثـورة ستفشـل، واعتقال كل من شـاركوا فـي الثورة سـيكون أمـرًا واردًا ... وقـرر عمـاد أن يعد حقائبـه للهرب خارج البلاد، وخاصة بعد أن تهجم بعض الثائرين على مصانعه ومتاجره، باعتبـار أنه واحدًا من رموز الفسـاد في مصر.. وبعـد انهيار النظام الـذي كان يحمـي فسـاده، كان لابـد أن يفكر في الهـروب خارج مصر.. مصطحبًا زوجته وأبناءه.. ومن بينهم بتول..

لكن الفتاة المنطلقة بقلبها العاشـق لمصر.. رفضت أن تنفذ أمر أبيها، واشـتاط عماد غضبًا، محاولًا بث الرعب في أوصالها، فأكد لهـا أنـه من المحتمـل أن يتوجه الغاضبـون نحو بيتـه ويقتحمونه، وفي هذا خطر على حياتها، علاوة على أنها مسـيحية.. وقد بدأت التيـارات الدينيـة فـي النزول إلـى الميادين.. وبدأت الشـعارات

المطالبة بالحكم الإسلامي تكشف عن نفسها ... لكن الفتاة رفضت بإصرار أن ترافق أباها..

وقررت البقاء في مصر.. والنزول مع الثوار لميدان التحرير لاستكمال مطالب الثورة .

وكانت رائحة الإخوان قد بدأت تفوح في ميادين مصر ... ففي بداية الثورة عزفوا عن المشاركة، وحين اطمأنوا إلى انهيار الحكم.. نزلوا إلى الميادين بثقلهم.. وتذكرت بتول ما قصه عليها العم دوماديوس عن تاريخ الإخوان.. ضمن حكاياته التي تلاها على مسمعها في أيامه التي قضاها بفيلا كفر عبده بالإسكندرية ... وخاصة بعد أن بدأت أصابع الاتهام تشير إليهم في أحداث العنف التي صاحبت أيام الثورة التالية .

وكانت بتول تتردد في أيام الثورة وبعدها على ميدان التحرير الذي أصبح رمزًا للثورة، ولاحظت الفتاة أن أقطابًا من التيارات الدينية المتطرفة قد بدأت تحتل الميدان، وأن ضغوطًا تمارسها على المجلس العسكري الذي تولى السلطة لكي يشارك الإخوان في المشهد السياسي الجديد، ووقتها كانت قد استجمعت في ذاكرتها كل هذا الخطر المحدق بالوطن والذي استشعرته من قراءتها للتاريخ، وما شاهدته بعينها من ممارسات عنيفة في أحداث الثورة والأيام التي تلتها ..



وآلت الأمور إلى أن يتولى الإخوان حكم مصر.. وخرج الوافد الإخوانـي الجديد محمد مرسـي ليراوغ الشـعب، وهـو يتوهم أنه يسـتطيع خداع حضارة عمرها سـبعة آلاف سـنة.. وقد حنث بكل وعوده وعهوده السـابقة.. وبدأ في تدشـين خطته ليسـلم مصر إلى جماعته، وكان أكثر ما أوجعها هو ذلك الإعلان الدسـتوري الذي أصدره الرئيس الجديد، وهو يكشـف من خلاله عن صورة حديثة لفرعـون جديـد.. يقبع في بـلاط الحكم.. داخل القصر الرئاسـي بمصر الجديدة ..

واغتاظـت الفتـاة الثائـرة مـن هـذا الخلـط الدنـيء بيـن الدين والسياسـة، فمـن الطبيعـي أن يُهـذب الديـن السياسـة، وليس من المنطقـي أن يتسـيس الدين ويصبح لعبة في أيـادي الحمقى الذين لا يتورعون عن الإطاحة بدينهم من أجل زهو النفوذ والسـلطان.. ووقتها كان الأقباط يشـتعلون غضبًا، وكل الممارسـات الواضحة تؤكـد أنـه لن يكـون لهم وجـود في هـذا العصر، فقد شـاركوا في الثورة.. جنبًا إلى جنب مع المسـلمين، لكنهم لم يتصوروا أن يأتي لسـدة الحكم.. من يسرق هذه الثورة.. باسـم ديـن مزيف.. ليس بالطبع هو دين الإسلام الحقيقي ...

هـذا مـا فهمته بتـول جيدًا.. من صانـع منابر المسـلمين.. العم دومادـيوس، وقد اقتنعت بالأمـر جيدًا.. بعد أن قـرأت الكثير عن تلك الحقائق.. ولذلك قررت الفتاة أن تدشن حركة شبابية لكشف هذا الخلط بين الدين والسياسة، ودعت شباب المسلمين والأقباط

للانضمام إليهـا.. وأطلقت عليها.. الحركة الكمالية لتوحيد قطبي الأمة!!.

وكان اسـم الحركـة ملفتًـا للأنظـار.. ولـم يتفهم المشـاركون بالحركـة فـي البدايـة.. حقيقة هذه التسـمية، وما الدافـع وراءها.. لكـن الفتـاة الرائعة فـي روحهـا.. كروعتها فـي جمالهـا.. وقفت فـي الاجتمـاع الأول للحركة وقد احتشـد به الآلاف من الشـباب المصري الوطني، وهي تفسر اسم الحركة.. قائلة:

- من أسـابيع قليلة فقط.. الحظ خدمني في الالتقاء بإنسـان مصـري صميم.. من صعيد مصر.. اتولد في نجع حمادي سـنة ١٩٣٥ ... أنـا مـش هأكلمكـم عـن الشـخص ده النهارده.. لكن هأقولكم هو قال لي إيه ...

واستمرت في خطابها وسط شغف الحضور:

- هو قالي إن كان فيه باشـا غني جدًّا.. اسـمه يوسـف باشـا كمال.. أمير من أمراء أسـرة محمد علي.. سيرته وتاريخه مفخـرة لكل المصريين.. لكن للأسـف التاريـخ لم يعطه حقَّه ... ونظام التعليم الفاسـد في عهد مبارك.. واللي كنا مـن ضحاياه.. ما كانش ممكن يتكلـم عن النماذج الرائعة اللـي في تاريخنا زي يوسـف باشـا كمال ... علشـان كده أنا بادعوكم لقراءة تاريخ يوسـف باشـا كمال.. وسـاعتها



هتعرفوا إحنا كشباب محتاجين إزاي لقدوة زي الأمير يوسف باشا ...

توقفت بتول قليلًا.. لتتكشف رد فعل حديثها على الحضور، فلما لاحظت اهتمامًا مثيرًا، استطردت قائلة:

- وأحب من خلالكم.. أن أوجه رسالة مهمة وقوية للمسئولين.. وللسادة المحترمين.. اللي بيتصارعوا النهارده على نصيبهم من الكعكة.. إحنا لو كنا لقينا حد فيكم ينفع قدوة.. ما كناش فكرنا أبدًا إننا نستدعيها من التاريخ.

التهبت القاعة بالتصفيق الحاد تأثرًا بحديث بتول.. فابتسمت الفتاة ابتسامة رقيقة، وقد شحنها هذا التأييد بجرعات متدفقة من الثقة.. فاستكملت خطابها قائلة:

- في ظل الحكم الحالي لمصر.. إحنا كأقباط شاعرين بالخوف.. وأعتقد إن كتيرًا من إخواتنا المسلمين مشاركينا في نفس الرأي.. وخصوصًا بعد أحداث الفتنة اللي كنا فاكرين إنها ممكن تتوقف في عهد.. بيقول على نفسه إنه بينتمي للإسلام.. لكن بكل أسف إنتوا شوفتوا وسمعتوا بنفسكم اللي حصل في الخصوص.. وغيرها من حوادث حرق الكنائس في الصعيد.... ويوسف باشا كمال.. كان رمز من الرموز الوطنية.. اللي وقفت ضد

الفتنـة.. وقاومتها.. علشـان كده أنا اخترت اسـم الحركة الكمالية.. ويا ريت حضراتكم توافقوا عليه .

كانـت هناك عينـان ثاقبتان.. يبرز شـعاعهما من رأس شـاب.. جلـس فـي الصفوف الخلفيـة لهذه القاعـة.. وأثار انتباهـه ما قالته بتـول، وبـدا عليـه أنـه فـي الثلاثين مـن عمـره.. ذو طلـة جذابة.. وهنـدام أنيـق . وكان هذا الشـاب هو عَلي إمام.. مـن هؤلاء الثوار الحقيقيين.. الذين نزلوا لميدان التحرير من أجل قولة حق في وجه سـلطان جائـر ... ورفـع عَلي يده لأعلـى طالبًا الكلمـة.. فانتبهت بتول له.. فأشـارت لـه مرحبـة بمداخلته.. ووقف الشـاب في ثقة وثبات قائلًا:

- أنـا اسـمي.. عَلي إمام.. واحـد من الناس اللـي نزلت من يـوم ٢٥ يناير وفضلـت في الميدان لحد مـا حققنا مطلب الثورة الأساسي ... (يستكمل بتلقائية) أنا سمعت كلامك يا آنسـة بتول.. ومصدقك.. وفاهم إنت عايزة تقولي إيه.. لأنـي قرأت كتيـرًا عن يوسـف كمال.. وعـارف أد إيه هو كان راجل عظيم ووطني ...وعلشان كده أنا موافقك على الاسم اللي سمتيه للحركة ..

يلتفت عَلي إمام إلى جموع الحاضرين ويوجه حديثه لهم قائلًا:

- الإنسانة دي صادقة يا جماعة (مشيرًا إلى بتول) يكفي إنها مسيحية.. وبتتكلم عن واحد مسلم.. هو يوسف كمال.. ده أكبر دليل على وطنيتها وحيادها ...

هبت عاصفة من التصفيق الحاد.. ويبدو أن الحضور قد اتفق على فكرة الحركة.. ودورها في التصدي للفتنة الطائفية وخاصة في هذه المرحلة الحرجة من عمر البلاد.. وبمجرد انتهاء الاجتماع التأسيسي للحركة.. حرصت بتول على مصافحة عَلي إمام، وحدثته قائلة:

- أنا سعيدة جدًّا يا عَلي إني اتعرفت عليك.. واضح إنك شخصية مثقفة وواعية .

- وأنا كمان سعيد يا بتول ... فكرتك ممتازة ومهمة ... الإخوان مش هيسيبوا البلد في حالها.. وواضح كده إن الرئيس الجديد هيتعبنا معاه..

- يااه.. ده إنت خايف منهم قوي يا عَلي .

- لا طبعًا.. أنا خايف على مصر منهم ... وخايف على الوحدة الوطنية من طموحهم المريض ..

- إنت شايف إنهم ورا أحداث الفتنة اللي بتحصل دلوقتي .

- أنا قريت تاريخ كويس.. وعارف إن أي فصيل متطرف.. هو إفراز من إفرازات جماعة الإخوان ... يعني كل

الحـركات الدينيـة اللـي قدامنا فـي السـاحة دي.. أصلها واحد.. وهو الجماعة ...

- برضه ما قلتليش رأيك بصراحة؟

- الحكم الديني ممكن يكون سبب لأي فتنة طائفية.. عندك مثـلًا فتوى جماعة الإخـوان على موقعهم الرسـمي بعدم جواز المعايـدة على الأقباط فى أعيادهـم الدينية، وكمان إصـدار مرسـى قرارًا بالدعـوة الى الانتخابـات النيابية في نفـس الوقت اللـي بيحتفل فيه الأقبـاط بأعيادهم.. كل ده ممكن يكـون مبررًا للفتنـة.. وما ينفعش يصـدر من رأس النظام.. والمفروض إنه رئيس لكل المصريين .

- علشـان كـده أنا شـايفة إن الفتـرة الجاية ممكـن تكتر فيها أحـداث الفتنـة.. أكيـد المتشـددين والمتطرفيـن ممكـن يفكـروا فـي الاعتـداء علـى الأقبـاط وكنايسـهم.. وأكيد برضـه المتطرفيـن من المسـيحيين هيكون لهـم رد فعل.. (بحماس) علشان كده دور الحركة من النهارده، إنها لازم تفهم الناس.. مين اللي زرع الفتنة بينهم.. وليه..

- تعرفي يا بتول.. أنا فعلًا بأحييك على الاسـم اللي اخترتيه للحركة؟

- (بدعابة) اشمعنى؟!!

- لإننـا فعـلًا محتاجيـن إننـا نسـتحضر قـدوة زي يوسـف باشـا كمـال.. إحنـا كشـباب يـا بتـول.. فقدنا القـدوة من سـنين طويلـة ... والراجـل ده كان عظيـم فعـلًا.. حارب الفتنـة الطائفية وقاومهـا.. ودعـم الحـركات الطلابية ضد الاحتـلال (متوقفًا برهـة)، ومـن الجانب التانـي.. إننا لو حققنـا أهـداف الحركة.. نكـون وصلنا فعـلًا للكمال في العلاقة بين المسلمين والأقباط .

انتشرت أصداء الحركة بشـكل واسع.. وضمت مئات الآلاف من الشـباب المصري، وميزة هذه الحركـة إنها وضعت يدها على أهـم المنافـذ التي ينفـذ منها أعـداء الوطن إلى جسـد الأمة، وقرر هؤلاء الشـباب أن يكونوا الـدرع الواقي.. وأن يسـدوا هذا المنفذ بحركتهـم الوطنيـة الجديـدة ... فهـم يطالبـون بحقـوق الأقباط، وعـدم التعامـل معهم على أنهم من مواطني الدرجـة الثانية.. ومن جهة أخرى يرفضون أن ينسـب ذلك الإرهاب الأسود الموجه إلى كنائس ومتاجر وممتلكات الأقباط إلى المسـلمين الحقيقيين.. أو إلى دين الإسلام..

ما أعظمها من رسالة.. وما أنبله من هدف!!.

وكان انتشـار تلـك الحركة الشـبابية قـد أزعج تنظيـم الإخوان كثيـرًا.. خاصة بعد أن وضعوا أيديهم في أيدي الحـركات الشـبابية الثوريـة الأخـرى.. ووجـد مستشـارو الرئيـس ومعاونـوه أن هذه الحركة سـتفضح كل المخططات التي تهدف إلى تفكيك مفاصل

الدولـة.. لأن العبث في أواصر العلاقة بين المسـلمين والأقباط.. هـو من أهـم الأسـباب التي يمكـن أن تؤدي إلـى تفكيـك الدولة وتحللهـا.. ولذلك جاء الأمـر من قيادة الجماعـة لمكتب الرئيس أن يضـع أعضاء هـذه الحركة تحـت المراقبة الدقيقـة.. وأن تتبع الأجهـزة الموالية للرئيـس اجتماعات الحركـة الكمالية.. وترصد تحركات قادتهـا وأهـم أعضائها.. ومن بينهـم بالطبع بتول عماد.. وعَلي إمام..

وكانـت الاتهامـات التـي يجـب أن توجه لقـادة الحركـة مُعدة سلفًا.. فبتول هي ابنة رجل الأعمال الهارب عماد آرام والمطلوب للعدالة، وأحد رجال النظام السـابق.. ولابد أنها تفعل ذلك انتقامًا مـن النظام الذي قـدم والدها للعدالة.. علاوة على أنها مسـيحية.. ويمكـن بسـهولة أن يـروج النظـام أنها تسـتقوي بالخـارج، وأنها تحصل علـى تمويل أجنبي لدعـم الحركة الشـبابية التي تقودها.. أما بالنسـبة لعَلي إمام، فقـد كان تلفيق تهمة له.. أمـرًا صعبًا.. فهو لـم ينتم يومًا لأي حزب سياسـي، ولـم يكن له نشـاط مشـبوه يمكـن أن يفتحَ النظام دفاتره.. لذلك كان التهديد.. هو أفضل الطرق التي توصل لها النظام الجديد ليوقف عَلي إمام عند حده .

ولـم يسـلم الشـاب مـن الملاحقـات الأمنيـة.. والمطـاردات الهاتفيـة.. وفـي أحـد الأيـام كان عَلي عائـدًا إلى منزله في سـاعة متأخـرة.. وبمجـرد وصوله لمدخـل العمارة التي يقطـن بها حتى دلفـت سـيارة حديثـة.. وتوقفت فجأة أمـام المدخـل، وهبط منها



أربعة رجال أشداء.. يمسك كل منهم في يده عصا غليظة أشبه بالشومة.. وفي سرعة شديدة باغتوا عَلي، وانهالوا عليه بعصيانهم الغليظة.. وأوسعوه ضربًا، وهوى أحدهم بشومته على رأسه، فسقط مغشيًّا عليه.

■ ■ ■

كانت الرسالة واضحة جدًّا.. وبدون الحاجة إلى من يفك عقدتها أو طلاسمها.. ووصلت رسالة التهديد إلى عَلي.. بينما أشار بيان للنائب العام إلى أن عماد آرام مطلوب للعدالة، وأن ابنته بتول تدير حركة شبابية ضد نظام الحكم، وتعمل لحساب الفلول، وتتلقى تمويلًا أجنبيًّا .

كانت البجاحة قد فاقت حدودها.. وفقد قادة هذا النظام الدماء في عروقهم، وهم يلقون التهم نحو هذا أو ذاك.. وما أكثر تهم العمالة والخيانة التي اختلقها رئيسهم وهو يشير بأصبعه نحو مرتكبيها.. وقد تناسى.. أن جماعته قد تزوجت أمريكا عرفيًّا.. بعد ثورة ٢٥ يناير، وأنها قبل ذلك كانت تنام معها في الحرام... وكانت العلاقة بينهما مشبوهة إلى الحد الذي حرص فيها المارد الأمريكي على إخفائها.. وكذلك جماعته!!

وضجت البلاد بأفعال الجماعة.. والتي جعلت من رئيسها.. مجرد خاتم في كف المرشد العام لها ... وكان على الرئيس أن يقدم تقريرًا كل صباح وكل مساء إلى المرشد العام، وأن ينتظر

التعليمات حتى يتمكن من ممارسة مهامه كرئيس.. وأصدر العديد من القرارات التي أجلس من خلالها أتباعه في مراكز صنع القرار في مصر ... وبدأ يتكلم في العلن وفي خطاباته عن أهله وعشيرته ... أما من هم من دون الجماعة.. فهم الأعداء والخونة..

ولم ينسَ الرئيس الإخواني أن يلحس وعوده السابقة التي وعد بها الشعب، أو حتى أن يصدق في عهد واحد قطعه على نفسه لهؤلاء المثقفين الذين ذهبوا إليه قبل انتخابه ليعلنوا تأييدهم له.. ولما تولى الحكم.. صفع الكبير منهم فوق قفاه.. وأخرج لهم لسانه.. وطردهم من ذاكرة اهتماماته .

وطبيعي مع هذه الأجواء التي قسَّم فيها هذا الرجل مصر إلى فئتين.. الأهل والعشيرة.. أو الأعداء والخونة ... أن تتوقف حركة كل شيء.. وأن ينهار الاقتصاد، وأن تصبح مصر قاب قوسين أو أدنى من الغرق في بحر الإخوان .

وكعادة الشباب فهم مؤشر الحياة وبوصلتها في مصر.. تمامًا كما كان موقفهم في ثورة ٢٥ يناير ... وكان بالطبع من بين هؤلاء الشباب بتول عماد، وعَلي إمام.. وكانت حركتهم قد ذاع صيتها وانتشر.. وفي نفس الوقت تبين لهما أن حركة جديدة قد ولدت في الشارع المصري.. وأطلق عليها حركة.. تمرد.. وكانت هذه الحركة الشبابية تقوم بحملة لجمع تفويضات شعبية لإسقاط الرئيس الإخواني محمد مرسي ... تمامًا كما فعل سعد زغلول ورفاقه عام ١٩١٩ .. وأسرع عَلي إمام بالانضمام إليها، واصطحب



بتول معه بالطبع.. وأخذا على عاتقهما ضم شباب الحركة الكمالية إلى حركة تمرد.. وجمع مئات الألوف من التفويضات لإسقاط مرسي.

وحدد المعارضون يوم ٣٠ يونيو ٢٠١٣ في مصر، للخروج في مظاهرات مليونية، دعت إليها حركة تمرد.. بعد أن أشارت أصابع الاتهام إلى الرئيس الإخواني المستتر خلف عباءة الإسلام.. في جريمة قتل المتظاهرين الذين زحفوا إلى قصر الاتحادية للمطالبة بإسقاطه، واستنجد الرئيس بأهله وعشيرته.. فحضروا بإشارة السمع والطاعة، وهاجموا المتظاهرين السلميين، وأطلقوا الرصاص عليهم، فأردوا منهم القتلى.. والمصابين..

وشارك في تنظيم مظاهرات ٣٠ يونيو التي دعت إليها تمرد.. عدة أحزاب وحركات معارضة لنظام الحكم، وطالت هذه المظاهرات قصر الاتحادية من جديد، مقر الرئاسة في مصر. وثارت مصر كلها.. وخرجت الجماهير عن بكرة أبيها... وأحرقوا مكاتب الجماعة في كل مكان في مصر، ووقع عشرات من القتلى والجرحى، وأصر الشعب الغاضب على عزل مرسي.. الذي لم تحمِه مظاهرات مؤيديه.. فبدت كحبَّة رمل في صحراء.. أمام جحافل الغاضبين من الشعب المصري.

وأصبح رئيس أهله وعشيرته.. كمريض الجذام الذي يفر من أمامه كل الناس، حتى المقربون منه... فقد استقال خمسة وزراء

تضامنًا مع مطالب المتظاهرين، واستقال مستشاروه الواحد تلو الآخر.. وقدم ثلاثون عضوًا بمجلس الشورى استقالاتهم..

وخرجت الجماعة بقبحها لتواجه هذه المظاهرات بالقمع وبميلشياتها المدربة.. وسادت حالة من التوتر في أرجاء البلاد... وكانت بتول وعَلي ومئات الآلاف من الشباب قد نزلوا إلى الميادين.. وهم يواجهون عنف الإخوان.. وقد تحرر هذا الشباب الحر من كل شيء إلا وطنيته ومصريته.. وطالبوا قائد الجيش بالتدخل وتحمل أعباء هذا الظرف التاريخي.. ووقفت بتول في قلب ميدان التحرير... ومئات من الشباب يلتفون حولها.. وقد جاءت بثوب أبيض كبير من القماش الخام... وأمسكت بطرفه.. وأمسك علي بالطرف الآخر.. وهو يبتعد شيئًا فشيئًا... حتى طاف الثوب الميدان بأكمله، واستدار حول محيط دائرة الميدان تقريبًا... ثم أخرجت بتول.. مشرطًا صغيرًا وخدشت بلطف ذراعها.. فخرجت قطرات من الدماء، سرعان ما غمست أصبعها في هذه الدماء المتفجرة... وكتبت فوق الثوب الأبيض بدمائها.... بتول.. بحب مصر.. ورسمت هلالًا يحتضن في جوفه الصليب.. بينما فعل مثلها.. عَلي.. وسطر اسمه بدمائه .. عَلي إمام.. وذيله بعبارة.. شباب مصر ضد القصر.... وسرى هذا الفعل مسرى النار في الهشيم.. وكتب شباب مصر بدمائهم أسماءهم على الثوب الأبيض.. وكل منهم يرسم هلالًا يحتضن الصليب.. في إصرار على وأد فتنة.. كان النظام الحالي أبرز صانع



لها علـى مدى تاريخه.. حتى امتلأ ثوب القماش الأبيض بأسـماء كل الشباب الثائر في الميدان..

ووقتهـا أذاعت النشـرة الإخباريـة... بيان قائـد الجيش.. وهو يعلـن عن نهاية الدولـة الدينية إلى الأبد... وخرج شـيخ الأزهر.. بصحبة بطريرك الكنيسـة المصرية.. وهما يعلنـان.. أن مصر فوق الجميع..

وكانت بتول عماد، وعَلى إمام.. من الشـباب الذين شاركوا فى حضور بيان قائد الجيش مع غيرهـم من الشباب الذى لم يقبل سقوط الوطن فى مسـتنقع الحكم المتأسلم، وقد إرتضى لنفسه أن يكون دُمية فى يد إسـتعمار جديد يقبع فى الناحية الغربية خلف المحيط، مصوبا سـهام حقده المسـموم ناحية الشـرق، وهو يمـارس عادته السـاقطه ومجونه المفضوح فى بث الفتنة بين جموع المصريين.. وللأسـف.. إمتطى أصحاب النفوس الضعيفـة.. وقد تخفوا وراء قنـاع الديـن.. فبضاعتهـم لم تعـد رائجـة، وأتباعهـم ينفضون من حولهم كل دقيقة، بعد أن أدركوا أن هؤلاء المتأسلمون هم أعضاء فـى نقابة اللصوص.. يسـرقون الوطن.. ويتمنون لـو مَثلوا بجثته، ليقدمونها على طبق من ذهب إلى ما وراء البحار!!.

وقتها مال عَلى جانبا ليهمس فى أذن بتول قائلًا وهو يشعر بزهو النصر:

- تفتكرى فيه حاجة يا بتول.. أهم من اللحظة إللي بنعيشها دي؟

نظرت إليه بتول بثبات وثقة.. ومقلتيها تعكسان إرادة جيل جديد.. وهمست له.. بآخر كلمات نطقها يوسف كمال قبل رحيله:

- مصر أهم من كل شيء.. المهم.. مصر!!

فأطلق عَلى إمام لبصره العنان.. كأنما يتكشف المستقبل بنظرته البعيده، قائلًا بصمود عجيب:

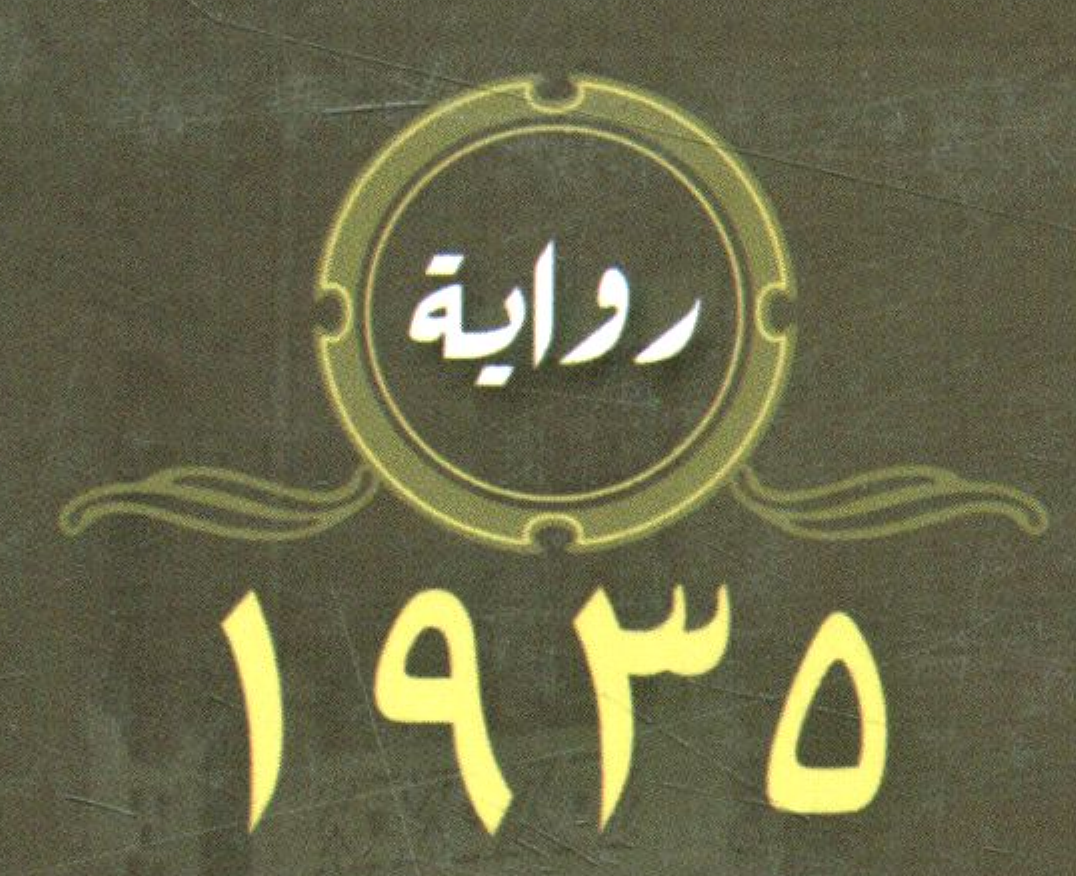
- كل إللي عملناه إننا طوينا صفحة العمالة والخيانة.. لكن الطريق لسه طويل.. ده مجرد مخاض لمستقبل جديد.. والحكاية مش حكاية الخيانة.. الحكاية مين إللى وراها؟..

يصمت برهة.. يحشد فيها كل معانى التحدي.. ثم يستمر بجسارة وحسم:

- الخطوة الجاية.. ثورة المصريين.. هتتخطى المحيط.. وأكيد هننتصر فيها!!.





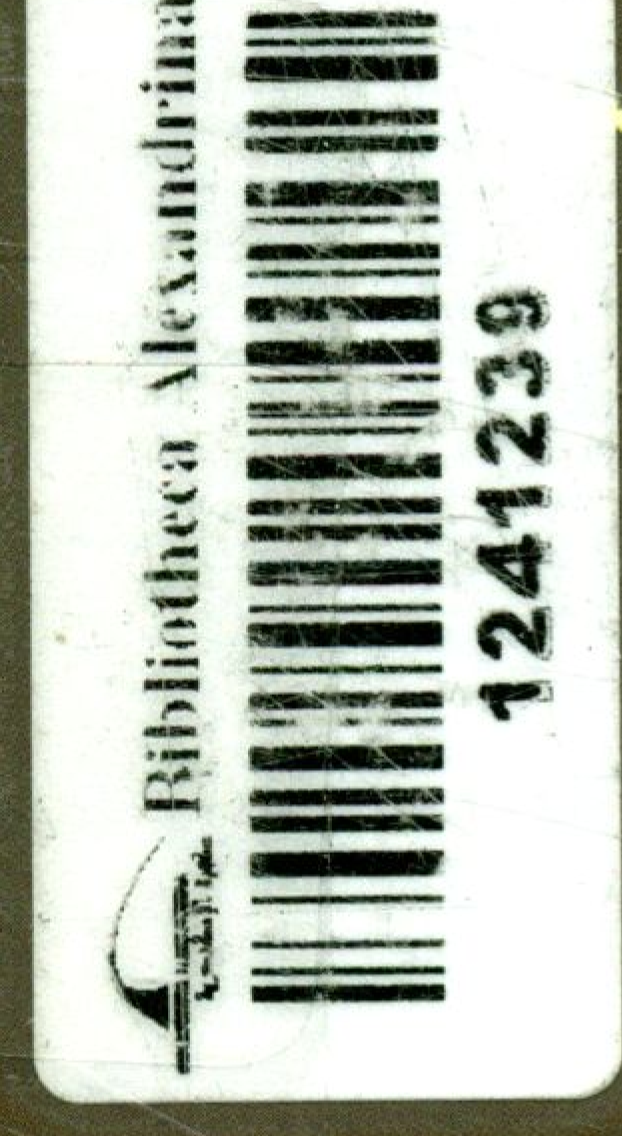


ويا طول .. ما ظُلمتِ أيتها الشفافية الناصعة .. وقراصنة العصر يُلقون بجرائمهم على ثوبك الأبيض النظيف .. ويلطخون نقائك الأبدى .. بقذارة أفعالهم .. وحطام كرامتهم المتدنية .. وهم يدوسون بأقدامهم الملوثة بروث البهائم على الأخضر واليابس فى هذا الوطن .. فيغدقون على الشعب من حقائب فسادهم .. ويوزعون الفقر والجهل والمرض كقطع الجاتوه والحلوى على المطحونين والمكدودين، ويخططون للفتنة بين أقباطه ومسلميه.. متوهمين بهذه الشفافية المفضوحة !!.

فقد فاح دنث الظلم .. وفاض الطغيان .. مع أول ملامح العهد الجديد .. وكتب الحاكم القابع على كرسيه فى مكتب الرئاسة أول براهين كذبه .. وخداعه .. حين أخذ الصمت البهيم حيال فساد رجاله .. أهم مبادىء عصره .. وأول قرارات عهده .

لكن الغباء أعمى عيونه .. فتحجرت فى مخدعها كالُمقل البائدة .. فى جثة بلا حراك .. تقود الشعب..

فلم تدرك أن للشفافية وجهين .. وجه العدالة .. ووجه الفض



تصميم الغلاف : إيمان صلاح



التوزيع
المجموعة الدولية
للنشر والتوزيع

